
سلسلة تفسير القرآن الكريم (٤)



التفسير المنهجي

سورة النساء

تأليف

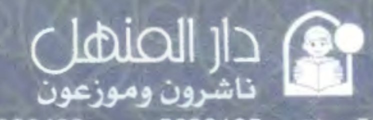
الأستاذ الدكتور فضل عبّاس

إشراف

الأستاذ عمر خليل يوسف

المراجعة العلمية

الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار المنهل
ناشرون وموزعون

هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن

http:\www.dmanhal.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٩٢٣ / ٤ / ٢٠٠٦)

٢٢٢,٦
عباس، فضل حسن
التفسير المنهجي: سورة النساء / فضل حسن
عباس. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦
(٢٢٢) ص (سلسلة القرآن الكريم؛ ٤)
ر.إ: (٩٢٣/ ٤/ ٢٠٠٦).
الواصفات: / التفاسير/ / القرآن / / سور القرآن/ / الآيات القرآنية/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى
2006

رقم الإجازة: 1031 / 4 / 2006
رقم الإيداع: 923 / 4 / 2006
التصنيف الدولي: 9957-08-514-x

مؤلفو السلسلة

- الأستاذ الدكتور فضل عباس
- الدكتور أحمد نوفل
- الدكتور صلاح الخالدي
- الأستاذ الدكتور أحمد شكري
- الدكتور جمال أبو حسّان


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمّد خاتم الأنبياء والمُرسلين ، وعلى آله وصحْبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآن الكريم هُو كلامُ الله المُعجزُ ، أنزلهُ على نبيِّه مُحمّد ﷺ ؛ ليُخرج به الناس من الظُّلماتِ إلى النّور ، ويهديهُم به إلى كلِّ خير ورشاد ، كما قال سبحانهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم ١) ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة ١٥-١٦) .
وقد ورد في عدد من الأحاديثِ الحثُّ على تعلُّم القرآنِ ومُدارسته ، ومنْ ذلك قولُهُ صلّى اللهُ عليه وسلَّم : خيْرُكُمْ منْ تعلَّم القرآن وعلَّمهُ[1] ، وقولُهُ : « وما اجتمع قومٌ في بيت من بُيوت الله يتْلُون كتاب الله ويتدارسُونهُ بينهم إلاَّ نزلتْ عليْهم السّكينةُ ، وغشيتْهُم الرّحمةُ ، وحفّتْهُم الملائكةُ ، وذكرهُمْ اللهُ فيمنْ عنْدهُ »[2] .

وقد بذل المُسْلمُون على مرِّ العُصور جُهودا كثيرة مُتوالية في خدْمة هذا الكتاب العزيز ، ومنْ بين هذه الجهود ما يتعَلّقُ بتبيين معاني الآياتِ وتفْسيرها ، وكان لكلِّ تفسير ميزتُهُ وخصائصُهُ .

وميزةُ هذا التفسير أنَّه أُعدَّ ليكون منْهاجا للتّدْريس في المدارس التي تلتزمُ في منْهاجها تدريس الطلبةِ تفسير القرآن الكريم كاملا ، والتزم مُؤلِّفُوهُ السّيْر على نمط مُتقارب مُتدرِّج ، وفيما يلي أهمُّ النّقاط التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السّهْلةِ الواضحةِ بمايتناسبُ مع أعمار الطّلبةِ ومستوياتهم .
* بدْءُ كلِّ درس بتبيين معاني المفرداتِ والتراكيب التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفتها .
* التّعْريفُ بالسُّورة بإيجاز قبل الشروع في تفسيرها .

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩)
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم الحديث (٤٨٦٧)

* تفسيرُ الآياتِ بصورة معتدلة وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بين آياتِ الدَّرْسِ السَّابق والتَّالي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجح في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغال الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَج السَّلف في تفسيرِ آيات الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درس بعدد مِن الأنشطة المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحفْزِ الطالب على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومة في ذهنِهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِن الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أوِ تعليقُهُ في مجلّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ درْس بعدد من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالب قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويم السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ درْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدار استيعابهِ للدَّرس وحفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ للأسئلةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو روايةٍ أو حادثةٍ أو حديث له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المعْلومةِ .

* تخريجُ الأحاديثِ النَّبويَّةِ وروايات أسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصار على الصَّحيح من رواياتِ الأحاديث .

والله تعالى نسألُ أن يَجْعلَ هذا العمل خالصاً لِوَجْههِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَبلَهُ بقبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورَةُ النِّساءِ القِسْمُ الأَوَّلُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ
ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي
ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا
فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ
وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ النِّساءِ مَدَنيَّةٌ ، عَدَدُ آياتِها مائةٌ وَسَبْعونَ وستٌ ، وسُميِّتْ بهذا الاسْمِ لِكَثْرَةِ ما وَرَدَ فيها مِنْ أَحْكامٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ ، وهِيَ تُسَمَّى سورَةَ النِّساءِ الكُبْرَى ، وهِيَ مِنَ السَّبْعِ الطِّوالِ . ومِنْ أَهَمِّ مَوْضوعاتِها :

١ـ الأَمْرُ بِتقوى اللهِ تَعالى في السِّرِ والعَلَنِ .

٢ـ تَذْكيرُ النَّاسِ بأنَّهم خُلِقوا مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ .

٣ـ بَيانُ أَحْكامِ المواريثِ .

٤ـ أَحْكامُ القِتالِ .

٥ـ الحَديثُ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ والمُنافِقينَ .

٦ـ الحَديثُ عَنْ عيسى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَساءَلونَ	يَسْأَلونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً .
اليَتامى	جمعُ يتيمٍ ، وهو مَن ماتَ أبوهُ ولمْ يبلغِ الحُلُم .
تَتبدَّلوا	تَسْتَبْدِلوا .
الخَبيثَ	الحرامَ .
بالطَّيِّبِ	بالحلالِ .
حوباً كَبيراً	إثْماً عَظيماً .
تُقْسِطوا	تعْدِلوا .
طابَ	مالَ إليهِ القلبُ .
تَعولوا	تجوروا وتَظْلِموا .
هَنيئاً	لَذيذاً عِنْدَ أكْلِهِ .
مَريئاً	ما تَحْسُنُ عاقبتُهُ .
السُفهاءَ	الّذينَ تُصيبُهُمْ خِفَّةٌ في العَقْلِ واضْطرابٌ فيهِ .
قِياماً	تقومُ بها أُمورُ مَعايِشِكُمْ .
قَوْلاً مَعْروفاً	ما تَطيبُ بِهِ النُّفوسُ وتَأْلَفُهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ .

ابْتَدَأَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ بهذا النِّداءِ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وَهُوَ يَشْمَلُ جَميعَ المُكَلَّفينَ ، مُنْذُ نُزولِ القُرْآنِ الكَريمِ إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وما عَلَيْها ، ولَيْسَ صَحيحاً ما يُقالُ مِنْ أنَّ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يَخْتَصُّ بِأَهْلِ مَكَّةَ . والنَّفْسُ الواحِدَةُ هِيَ آدمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، و ﴿ زَوْجَهَا ﴾ حَوّاءُ ، حَيْثُ خُلِقَتْ مِنْ نَفْسِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ . لَقَدْ جاءَ هذا النِّداءُ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لِيُنَبِّهَ عَلى أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ :

الأوَّلُ : وحْدَةُ الدِّينِ ، فَرَبُّهُم جَميعاً واحدٌ ، فعَليْهِمْ أنْ يَتَّقوهُ ولا يَعْبُدوا غيْرَهُ .

الثّاني : إنَّ النّاسَ جَميعاً على اخْتِلافِ ألْوانِهِمْ وألْسِنَتِهِمْ وأجْناسِهِمْ يَنْحَدِرونَ مِنْ أصْلٍ واحِدٍ هُوَ آدمُ عليْهِ السّلامُ .

وتأْمُرُ الآيَةُ النّاسَ جميعاً في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ أنْ يَتَّقوا اللهَ ربَّهُمْ ، وذلِكَ بأنْ يُخْلِصوا لهُ سُبْحانَهُ العِبادَةَ والطّاعَةَ ، وأنْ لا يعْصوهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فَهُوَ الّذي أوْجَدَهُمْ مِنْ نَفْسٍ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وخَلَقَ مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ حَوّاءَ ، وتَناسَلَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْهُما ، وإنَّ خَلْقَ النّاسِ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْ أعْظَمِ الأدِلَّةِ على كمالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وهُوَ مِنَ الأُمورِ الّتي يَنْبَغي أنْ تَحْمِلَ النّاسَ عَلى تَقْوى اللهِ تَعالى ، وتَجْعَلَهُمْ مُتَعاطِفينَ مُتَراحِمينَ ومُتَعاوِنينَ فيما بَيْنَهُمْ .

وقدْ عبَّرَتِ الآياتُ عَنِ التَّناسُلِ والتَّوالُدِ بالبَثِّ ، لِيُبَيِّنَ أنَّ هؤلاءِ قَدْ تَكاثَروا وانْتَشَروا في أقْطارِ الأرْضِ على اخْتِلافِ ألْوانِهِمْ ولُغاتِهِمْ ، وعَلَيْهِمْ أنْ يَعْلَموا أنَّهُمْ مَهْما تَباعَدَتْ ديارُهُمْ واخْتَلَفَتْ أجْناسُهُمْ وألْوانُهُمْ ، فإنَّهُمْ يَرْجِعونَ إلى أصْلٍ واحِدٍ .

وقال سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ أيْ : اتَّقوا اللهَ الّذي يَسْألُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِهِ ، فيَقولُ الواحِدُ للآخَرِ : (أسألُكَ باللهِ) ، واتَّقوا الأرْحامَ أنْ تَقْطَعوها فلا تَصِلوها بالبرِّ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ تَعالى حافِظٌ يُحْصي عَلَيْكُمْ كُلَّ شيءٍ ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلى جَميعِ أعْمالِكُمْ وأحْوالِكُمْ ، مُراقِبٌ لِحَرَكاتِكُمْ وسَكَناتِكُمْ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ ﴾

بعْدَ الأمْرِ بتَقْوى اللهِ تَعالى ، واسْتِشْعارِ عَظَمَتِهِ وهَيْمَنَتِهِ على خَلْقِهِ ، بَدَأَتِ الآياتُ تَذْكُرُ بَعْضَ التَّكاليفِ الّتي أُنيطَتْ بالإنْسانِ ، فتَحدَّثَتْ عَنْ إيتاءِ اليَتامى أمْوالَهُمْ ، وعَنْ حُكْمِ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ، وإيتاءِ النِّساءِ صَدُقاتِهِنَّ ، وعَدَمِ السَّماحِ للسُّفَهاءِ بالتَّصرُّفِ بالأمْوالِ .

وابْتَدَأَتْ بالأمْرِ بإيتاءِ اليَتامى أمْوالَهُمْ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ والخِطابُ للأوْلياءِ والأوْصياءِ عَلى اليَتيمِ ، حَيْثُ يَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بأنْ يَحْفَظوا مالَ هذا اليَتيمِ ، ولا يَتصرَّفوا فيهِ بِسوءٍ ، واليَتيمُ هُوَ مَنْ ماتَ أبوهُ ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ ، فهذا اليَتيمُ إنْ كانَ لهُ مالٌ يَجِبُ عَلى الوَصِيِّ عَلَيْهِ أنْ يُحافِظَ عَلى مالِهِ ، ولا يَخْلِطَهُ بغَيْرِهِ مِنَ الأمْوالِ ، وعَلَيْهِ أنْ لا يُسَلِّمَ المالَ لِلْيَتيمِ إلاّ إذا آنَسَ مِنْهُ الرُّشْدَ ، أيْ : يَصيرُ قادِراً عَلى المحافَظَةِ عَلى مالِهِ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ ﴾ أيْ : لا تَسْتَبْدِلوا الحرامَ وَهُوَ مالُ اليَتامى

بالحلالِ وهُوَ مالُكُمْ ، أوْ لا تستبدِلوا الأمْرَ الخبيثَ وهُو أخْذُ أمْوال اليتامى ، بالأمْر الطَّيِّب وهو حفْظُها والتَّورُّعُ عنْها .

ثُمَّ قالَ سُبْحانهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ وهذا نَهْيٌ آخرُ عن الاعْتداءِ على أمْوالِ اليتامى ، والمقْصودُ : لا تضمُّوا أيُّها الأوْصياءُ أمْوال اليتامى إلى أمْوالِكُمْ فتُصْبح مُخْتلطةً بها ، فتأْكُلوها مع أمْوالِكُمْ ، وذلكَ أنَّ خلْطَ الأمْوالِ يُؤدّي إلى ضياعِها وعدمِ تميُّزِها ، وقدْ يموتُ الوصيُّ فلا يُعْرفُ مالُهُ منْ مالِ اليتيم .

وقدْ خُتِمَت الآيةُ بقوْلِه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أيْ : إنَّ أكْل مالِ اليتيم بأيِّ طريقة من الطُّرُق المُحرَّمة كانَ إثْماً وذنْباً عظيما .

لقدْ جاءَت الآيةُ لتَذُمَّ الأوْصياء على جشعِهِمْ وضعْفِ دينِهِمْ ، فقدْ رزقهُمُ اللهُ حلالاً ، فكانَ ينْبغي عليْهِمْ أنْ يكْتفوا بمالِهِمُ الّذي أنْعم اللهُ بِهِ عليْهِمْ ، ولكنَّهُمْ طمعوا في مالِ اليتيم وخلطوا مالَهُمْ معَ مالِه .

وتنْتقِلُ الآياتُ لتتحدّث عنْ يتامى النِّساءِ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ ﴾ .

عنْ عُرْوةَ بنِ الزبير أنَّه سألَ السيِّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنْها عنْ هذه الآيةِ ، فقالتْ : يا ابن أُختي ، هيَ اليتيمةُ تكونُ في حِجْرِ وليِّها تُشْرِكُهُ في مالِه ويُعْجِبُهُ مالُها وجمالُها ، فيُريدُ وليُّها أنْ يتزوَّجها منْ غيرِ أنْ يُقْسِطَ في صَداقِها ، فيُعطيها مثل ما يُعطيها غيرُهُ . فنُهوا عنْ أنْ ينْكِحوهُنَّ إلاّ أنْ يُقْسِطوا لهُنَّ ويُبْلِغوا لهنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ في الصَّداقِ ، وأُمِروا أنْ ينْكِحوا ما طابَ لهُمْ منَ النِّساءِ سواهُنَّ[1] .

يقولُ سُبْحانهُ وتعالى للأوْلياءِ والأوْصياءِ على النِّساءِ اليتامى ، إنْ علِمْتُمْ أنَّكُمْ لنْ تعْدلوا فيهِنَّ إذا تزوَّجْتُموهُنَّ ، ولنْ تُعاشِروهُنَّ بالمعْروفِ ، ولنْ تُعْطوهُنَّ مُهورهُنَّ الّتي سنَّها اللهُ لهُنَّ ، فانْكِحوا غيْرهُنَّ منَ النِّساءِ اللّواتي أحلَّهُنَّ لكُمُ اللهُ تعالى . والأمْرُ في قوْلِهِ ﴿فانكِحُوا﴾ للإباحةِ ، أيْ : قدْ أباحَ اللهُ تعالى التزوُّجَ بواحدةٍ أو اثنتينِ أوْ ثلاثاً أو أرْبعاً ، ولكنْ إنْ خفْتُم أنْ لا تعْدلوا بيْن الزَّوْجاتِ في القَسْمِ والنَّفقةِ والحُقوقِ الزَّوْجيّةِ فعليْكُمْ أنْ تتزوَّجوا واحدةً فقط ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أيْ : اقْتصِروا على الإماءِ الّتي تمْلِكونَها ، والّتي أباح لكُمُ اللهُ أنْ تسْتمتِعوا بهنَّ .

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ إنَّ اخْتيار الواحدةِ أقْربُ إلى العدْلِ وإلى عدم الميْلِ إلى الظُّلْم . والعدْلُ المطْلوبُ هُوَ ما يكونُ ضِمْنَ قُدْرةِ الإنْسانِ ؛ وذلكَ مثْلُ المُساواةِ في المسْكنِ والملْبسِ والمأْكلِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير . باب : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ـ رقم الحديث ٤٢٩٨ .

والمشرب ، أمّا ما لا يدْخُلُ في وُسْعِ الإنْسانِ مِنْ مَيْلِ القَلْبِ إلى واحدةٍ دون الأُخْرى ، فهذا أَمْرٌ عفا اللهُ عنْهُ إذ لَمْ يَتْبَعْهُ مَيْلٌ في المُعاملة والإنْفاقِ ، وقدْ كانَ الرَّسولُ ﷺ يقولُ : (اللَّهُمَّ إنَّ هذا قسمي فيما أملكُ فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أمْلِكُ)[1] ، يقْصُدُ الميْلَ القلْبيَّ .

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

وأمرتِ الآياتُ بعْدَ ذلكَ الرّجالَ أنْ يُعْطوا النّساءَ مُهورَهُنَّ عطيّةً عنْ طيبِ نفْسٍ منْهُمْ ، فإنَّ هذه المُهورَ قدْ فرضها اللهُ تعالى لهُنَّ ، ولا يجوزُ لَكُمْ أيّها الرّجالُ أنْ تأْخُذوا منْ هذهِ المُهورِ شيْئًا ، إلاّ إذا تنازلتِ النّساءُ عنْ شيْءٍ منْ هذا المَهْرِ عنْ طيبِ خاطِرٍ ، ورضا نفْسٍ ، فَخُذوهُ منْهُنَّ ولا إثْمَ عليْكُمْ ولا ذنْبَ في أخْذِه ، وكلوهُ هنيئًا مريئًا ، فهُوَ مالٌ حلالٌ طيّبٌ لا يُسبّبُ لكُمْ ضررًا ولا حرجًا .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

وتنْتقلُ الآياتُ لمُخاطبَةِ أوْلياءِ اليَتامى بأنْ لا يُعْطوا السّفهاءَ ، وهُمُ اليتامى الّذين لا يُحسنونَ التّصرُّفَ في أمْوالِهِمْ لِصغرِهِمْ أوْ لضعْفِ عُقولِهِمْ ، نهتِ الآيةُ عَنْ إعْطائِهِمْ أموالَهُمْ ، ما داموا لا يُحْسنونَ التّصرُّفَ فيها . وقدْ أضافتِ الآياتُ الأمْوالَ إلى الأوْلياءِ مَعَ أنّها لليتامى ، فقالَ : ﴿أموالَكُم﴾ ولمْ يقُلْ أموالَهُمْ ، لِيُنبّهَ سُبْحانَهُ إلى أنّهُ ينْبغي على الأوْلياءِ حِفْظُ أموالِ اليتامى وصيانَتُها ، حتّى كأنّها أموالُهُمْ . وقدْ جعلَ اللهُ هذهِ الأمْوالَ قِيامًا ، أيْ : بها تقومُ معايشُهُمْ ومصالحُهُمْ ، والمصالحُ العامّةُ لا تزالُ قائمةً ما دامتِ الأمْوالُ في أيْدي الرّاشدينَ المُقْتَصِدينَ الّذينَ يُحسنونَ تثْميرها وتوْفيرها .

وقدْ أمرتِ الآياتُ الأوْلياءَ بثلاثةِ أُمورٍ :

الأوّلُ : ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ ﴾ .

الثّاني : ﴿ وَٱكْسُوهُمْ ﴾ .

الثّالثُ : ﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ .

أيْ : اجْعلوا هذهِ الأمْوالَ مصْدرًا لرِزْقِهِمْ وكِسْوتِهِمْ ، وذلكَ بأنْ تتّجروا فيها ، حتّى تكونَ نفقاتُهُمْ منَ الأرْباحِ لا منْ أصْلِ المالِ ، وذلكَ لأنّهُ إنْ أنْفقَ عليْهِمْ منْ رأْسِ المالِ ، فإنّهُ سيَفْنى ولذلكَ قالَ سُبْحانهُ : ﴿ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ ولَمْ يقُلْ منْها ، أيْ : اسْتَثْمِروا لَهُمْ أموالَهُمْ ، ولا تتْركوها دونَ اسْتثمارٍ .

---

(1) خرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب : في القسمة بين النساء ، حديث رقم ٢١٣٤ .

أمّا القَوْلُ المَعْروفُ فهُوَ أنْ يُكلِّمَ اليَتامى كَلاماً ليِّناً تطيبُ بهِ نُفوسُهُمْ ، وأنْ يعظوهُمْ ، ويَنْصحُوهُمْ لِيَصِلوا بِهِمْ إلى الرُّشْدِ ، ويبعدوا بِهِم عَنِ السَّفهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ وُجوبُ مُراقَبَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وخَشْيتِهِ وإخْلاصِ العِبادَةِ لهُ ، لأنَّهُ هُوَ الّذي أوْجدَ الخلْقَ منْ نَفْسٍ واحِدَةٍ .

٢ـ وُجوبُ صِلَةِ الرَّحِمِ بيْنَ الأقاربِ .

٣ـ النَّهْيُ عَنْ خَلْطِ مالِ اليَتيمِ بمالِ الوَصيِّ عَليْهِ .

٤ـ إباحَةُ التَّعدُّدِ في الزَّواجِ ، حَيْثُ أباحَ اللهُ تَعالى للرَّجُلِ أنْ يَتزوَّجَ أرْبَعَ نِساءٍ شَريطةَ العدْلِ بيْنَهُنَّ .

٥ـ المَهْرُ حَقٌّ لِلْمَرْأةِ ومُلْكٌ لَها ، ومنْ حَقِّها أنْ تَتصرَّفَ فيهِ بما شاءَتْ ، وأنْ تُعْطِيَ لِزَوْجها منْهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لماذا سُميّتْ سورةُ النِّساءِ بِهذا الاسْمِ ؟

٢ـ اذْكُرْ مَوْضوعَيْنِ مِنْ مَوْضوعاتِ سورةِ النِّساءِ .

٣ـ ما مَعْنى المفرداتِ التّاليةِ :

الخَبيثَ ، تُقسطوا ، نِحْلةً ، السُّفهاءَ ، تَعولوا .

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هذا النِّداءِ ﴿ياأيُّها النّاسُ﴾ ؟

٥ـ كَيْفَ يَكونُ اتِّقاءُ الأرْحامِ ؟

٦ـ ما مَعْنى : ﴿ولاتَتَبدَّلُوا الخَبيثَ بالطَّيِّبِ﴾ ؟

٧ـ كَيْفَ يَكونُ الاعْتداءُ عَلى أمْوالِ اليَتامى كما بيَّنَتْهُ الآياتُ ؟

٨ـ فَسِّرْ قوْلَهُ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامى﴾ .

٩ـ مَنِ السَّفيهُ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ إعْطائِه مالَهُ ؟

١٠ـ لِماذا قالَ سُبْحانَهُ ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ؟ ولَمْ يَقُلْ مِنها ؟

١١ـ بِمَ أمَرَتِ الآياتُ الأَوْلياءَ تِجاهَ السُّفَهاءِ ؟

١٢ـ ضَعْ أمامَ كُلٍّ مِنَ العباراتِ الآتِيَةِ كَلِمَةَ (حلالٌ أو حرامٌ) :

أ ـ (   ) أكلُ مالِ اليتيمِ .

ب ـ (   ) زَواجُ أربعةٍ مِنَ النِّساءِ .

ج ـ (   ) أخْذُ مالِ المرأةِ بِغيرِ رِضاها .

د ـ (   ) اسْتِثْمارُ أَمْوالِ الأَيْتامِ .

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ حَديثاً للرَّسولِ ﷺ يَحُثُّ عَلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما مَعْنى قَولِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها : مِنْ غيرِ أنْ يُقْسِطَ في صَداقِها ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ لَقَدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يميلُ إلى واحِدةٍ مِنْ زَوْجاتِهِ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِها ، مَنْ هِيَ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ اكْتُبْ تَقْريراً في مَوْضوعِ التَّعدُّدِ ، تُبيِّنُ الحِكْمَةَ مِنْهُ ، وضَعْهُ في مَجلَّةِ المَدْرَسةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثّاني

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّاني

وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا
وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ
أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ
نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ
ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٨﴾
وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا
سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ
وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- ابتَلوا : امْتَحِنوا واخْتَبِروا .
- بَلَغوا النِّكاحَ : بَلَغوا الحُلُمَ ، وَهُوَ سِنُّ الرُّشْدِ .
- آنَسْتُمْ : تَبيَّنْتُمْ وشاهَدْتُمْ .
- رُشْداً : حُسْنَ التَّصُّرفِ .
- إسْرافاً : مُجاوزَةً للحدِّ في التَّصرُّفِ في المالِ .
- بداراً : مُبادَرةً ومُسارَعةً إلى الشّيءِ .
- يَسْتَعْفِفْ : يَتْرُكْ ما لا يَنْبَغي مِنَ الشَّهواتِ .
- حَسيباً : رقيباً .
- قَوْلاً سَديداً : قَوْلاً جَميلاً فيهِ جَبْرٌ لِخَواطِرِهِمْ .



﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾

ذكرت الآياتُ مِنْ قبْلُ أنَّ السَّفيه لا يُعْطى مالهُ ، ولكنْ يُنْفقُ عليْه مِن الأرْباحِ النّاتجةِ مِن اسْتِثْمار ماله ، وجاءت الآياتُ هُنا لتُوجِّه الأوْلِياء والأوْصِياءَ إلى اخْتبار اليَتامى ، وذلِكَ بإعْطائِهِمْ شيْئاً مِن المالِ يتصرَّفون فيه ، فإنْ أحْسنوا التَّصرُّف كانوا راشدين ، فالرُّشْدُ هُوَ حُسْنُ التَّصرُّفِ ، وهْو ناتِجٌ عنْ صحَّة العقْلِ وجوْدَةِ الرَّأْي .

إنَّ هؤلاءِ الأوْلياءَ مُؤْتمنون على مالِ اليتيم ، ولِذا عليْهمْ أنْ يَخْتَبروهُ إذا وصل سِنَّ البُلوغ ، فإنْ تبيَّنوا أنَّهُمْ قدْ رشدوا وصاروا يُحْسنون التَّصرُّف بَعْدَ البُلوغِ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يُعْطوهُمْ أمْوالَهُمْ مِنْ غيْرِ تأْخيرٍ ولا مُماطلةٍ ، أمّا إنْ وجدوا أنَّهُمْ ما زالوا لا يُحْسنونَ التَّصرُّفَ في تِلْكَ الأموالِ ، فلا يَنْبغي عليْهِمْ أنْ يدْفعوا إليْهمْ أمْوالَهُمْ .

وعلى الأوْلياءِ كذلك أنْ لا يأْكُلوا أموالَ اليَتامى مُسْرفين في الإنْفاقِ منْها ، ولوْ كان الإنْفاقُ على اليتيم نفْسه ، وأنْ لا يتصرَّفوا بالمالِ لِصالِحِهِمْ قَبْلَ أنْ يَكْبُر هؤلاءِ اليَتامى ، ويدْفعوا إليْهِمُ الأمْوال ، فنجدُ بعْض الأوْصياءِ يسْتَغلُّون صِغر سِنِّ اليَتيمِ ، ويقومون بعَملِ مشاريع لِصالِحِهِمْ مِنْ مالِه ، بحيْثُ لا ينْتفعُ اليَتيمُ منْها .

ولكنْ هَلْ يجوزُ للوليِّ أنْ يأْخُذَ شيْئاً مِنْ مالِ اليَتيم ، عِوَضا عَنِ انْشغالِهِ باسْتِثْمار هذا المالِ ؟ بيَّنتِ الآيَةُ الكريمةُ هذا الحُكْم ، فقال سُبْحانَهُ : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ أيْ : منْ كانَ مِنَ الأوْلِياءِ غنِيّاً غيْرَ مُحْتاجٍ إلى شيْءٍ منَ المالِ ، فعليْهِ أنْ يُعِفَّ نفْسَهُ بأنْ لا يأْخذَ مِنْ مالِ اليَتيم شيْئاً ، أمّا إنْ كان الوليُّ فقيراً وهُو يُشْغِلُ وَقْتَهُ في تثمير مالِ اليَتيم وحِفْظِه ، فيُباحُ لهُ أنْ يأْخُذَ مِنْ مالِه بالمعروفِ أيْ : على قَدْر حاجتِه الضَّروريّةِ ، وأُجْرةِ خِدْمَتِه وحفظه لمالِ اليَتيم .

وإذا أراد الأوْلياءُ أنْ يُعْطوا اليَتامى أمْوالَهُمْ بعْد البُلوغِ والرُّشْدِ ، فعليْهِمْ أنْ يُشْهِدوا عِنْد دفْعِ المالِ إليْهِمْ ليبرِّئوا ذِمَّتَهُمْ ، لأنَّ الإشْهاد يُبْعِدُ التُّهمةَ عنِ الوليِّ ، ولا يَتْرُكُ للنِّزاعِ والخُصومَةِ بيْنَ الولِيِّ واليَتيمِ صاحِب المالِ أيَّ مجال . وقدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بقولِهِ تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ أيْ : كفى

بِهِ سُبْحانَهُ رَقيبا عليْكُمْ يُحاسِبُكُم على أعمالِكُم ، ويُجازيكُمْ عليْها بما تَسْتَحِقّون .

انْتَقَلتِ الآياتُ لتتحدَث عنْ بعْضِ أحكام المواريث ، وبيّنتْ قاعدة عظيمة أساسيّة ، وهي أنّ الميراث لا يخْتصّ بالرّجال وحدهم ، بل لِلنّساء نصيبٌ منهُ ، وليْس كما كان الحالُ مع الأُمم السّابقة ، ومع العرب في الجاهليّة ، حيثُ كانوا يحْرمون المرْأة من الميراث . قال تعالى :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ ﴾

إنّ المال الّذي يتْرُكهُ الوالدان والأقربون بعْد موْتِهمْ ، يصيرُ حقّا للذّكور والإناثِ ، فهُمْ فيه شُركاءُ ، لا فرْق بيْن الرّجال النّساء ، ولا فرْق بيْن كونِ المالِ كثيراً أو قليلاً ، فحقُّ النّساءِ ثابتٌ فيما تركهُ المتوفّى منْ مال ، سواءٌ أكان هذا المالُ قليلا أمْ كثيرا كثُبوتِ حقّ الرّجال ، وقدْ أكّد اللهُ تعالى هذا الحقّ بقوْلِه ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أيْ : أنّ هذا النّصيب قدْ فرضهُ اللهُ تعالى ، فلا سبيل إلى التّهاونِ فيهِ ، بلْ لابُدّ منْ إعْطائه لمنْ يسْتحِقّهُ كاملا غيْر منْقوصٍ ، فهُو تشْريعُ الله تعالى ، ومنْ خالف شرْعهُ كان أهْلا للعُقوبة ، وكلِمةُ : (نصيبا) جاءتْ منْصوبة على الاخْتِصاص . والمعْنى : أعني نصيبا مفْروضا مقْطوعا واجبا لابُدّ لهُمْ أنْ يحوزوهُ ولا يستأْثِرْ به بعْضُهمْ دون بعْضٍ .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ ﴾

وإذا حضر قسْمة التّركة ذوو القرْبى ممّنْ لا نصيب لهُمْ في الميراثِ ، واليتامى الّذين فقدوا العائِلَ ، والمساكينُ الّذين أعْوزتْهُمْ الحاجةُ ، فأعْطوهُمْ مِن الميراثِ ، وهُو رِزْقٌ أنْعمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ دونَ كدّ ولا تعَبٍ ولا نصبٍ ، ولذا ينبغي أنْ لا تبْخلوا على المُحْتاجين منْ ذوي القُرْبى واليَتامى والمَساكينِ ، بلْ عليْكُمْ أنْ تُعطوهُمْ ما يُعينُهُمْ على سدّ حاجتِهمْ وتفريج كُروبِهمْ ، وأنْ تقولوا لَهُمْ قوْلاً جَميلاً تطيبُ بِهِ نُفوسُهُمْ عندما تُعطونَهُم من هذا المال .

والحِكْمةُ مِنْ إعطائِهِمْ شيْئا من التّركة ، هُو أنّهُ رُبّما تحرّك الحَسدُ في نُفوسِهِمْ ، فينبَغي التّودُّدُ إليْهِمْ واسْتمالَتُهُمْ بإعْطائهِمْ قدْرا من المال هبةً لهُمْ .

والأَمْرُ هُنا بإعْطائِهِمْ من المال للنّدْبِ والاسْتحبابِ لا للوجوبِ .

إنّ قضيةَ تقْسيم التّركةِ قدْ حدث فيها الكثيرُ من المُغالطاتِ والمُخالفات الشّرْعيّةِ ، ولِذا كان لابُدّ أنْ تَحُثّ الآياتُ على تقْوى الله تعالى وخشْيتِه ، فقال سُبْحانهُ :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ .

تحثُّ الآيةُ الأولياء والأوصياء على المحافظة على أموال اليتامى ، فهو سُبحانهُ يُذكِّرُهُمْ بِحالِهِمْ وحالِ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ بعْدِهِمْ ، فهُو سُبْحانهُ يقولُ لهُمْ : افعلوا مع اليتامى الّذين هُمْ تحْتَ وِصايَتِكُمْ ، كما تحِبُّون أنْ يُفعل مع ذُرِّيَّاتكُمْ الضِّعافِ مِنْ بعدِكُمْ ، ولْتتّقوا الله فيهِمْ بالمُحافظةِ على أمْوالِهِمْ وإعْطائِهِمْ حُقوقَهُمْ كاملةً غيْر منْقوصة ، وقدْ وصفَ اللهُ الذُّرِّيَّة بالضَّعْفِ ، ليكونَ ذلكَ باعِثاً على التَّراحُمِ وحاثّاً على امْتِثالِ أوامِرِ الله تعالى . والقوْلُ السّديدُ أنْ يُكلِّموهُمْ كما يُكلِّمونَ أولادهُمْ بالأدب والحُسْنِ والتَّرْحيبِ .

وقدْ توعّدتِ الآياتُ أولئك الّذين يعْتدون على حُقوقِ اليتامى ، فقال سُبْحانهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ اليتامى لِضعْفِهِم وعجْزِهِمْ اسْتحقُّوا العناية والكرامة مِن الله تعالى ، فمَنْ تعدَّى على أموالِهِمْ ظُلْماً ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وقدْ يكونُ أكْلُهُمْ للنَّارِ على الحقيقة ، فهُمْ لأكْلِهِمْ مال اليتيم ظُلْماً في الدُّنْيا ، سيأْكُلون النّار يوْم القيامةِ حقيقةً ، وسيكونُ مصيرُهُم نارَ جهنّمَ يُقاسون حرّها ، ويصْطلون بنارِها الشّديدة المُسْتعِرة .

دُروسٌ وعِبرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منها :

١ـ على الأوْصياء أنْ يخْتبِروا اليتامى ، حتى يتبيّنوا مِقدار ضبْطِهِمْ للأمْوالِ وحُسْنَ تصرُّفِهِمْ فيها .

٢ـ على الأوْصياءِ أنْ لا يُسلِّموا المال إلى اليتامى إلاّ بعْد بُلوغِهِمْ سِنَّ الرُّشْدِ ، والتَّثبُّتِ مِنْ حُسْنِ التّصرُّف .

٣ـ الرِّجالُ والنِّساءُ كُلٌّ مِنْهُمْ لهُ حقٌّ في الميراث .

٤ـ امْتِثالُ أوامِرِ الله تعالى بإعْطاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقّهُ مِن الأمْوالِ المتْروكةِ .

التقويم :

أجبْ عن الأسئلة التالية

١ـ ما معنى المفردات التالية

ابتلوا ، آنستم

٢ـ ذكرت الآياتُ الأحكامَ المتعلقة بالوليّ الذي يتصرف بمال اليتيم من حيثُ أخذهُ أجرًا لانشغاله باستثمار مال اليتيم . اذكرها

٣ـ قارنْ بين العصر الجاهليّ والإسلام من حيث ميراث المرأة

٤ـ اشرح قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

٥ـ لماذا وصف اللهُ الذرية بالضعف في قوله ﴿ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا ﴾ ؟

٦ـ ما عقوبةُ أكل مال اليتيم ؟ وما دليل ذلك ؟

٧ـ ما القولُ السديدُ الذي أمر به الأولياء ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١)

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُوصيكُم	يَأْمُرُكُمْ .
حَظّ	نصيب .
فوْق اثنتيْن	أكْثَرَ من اثْنَتَيْن .

التَّفسيرُ :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١) ﴾

هَذِهِ الآيَةُ والّتي تليها تَتَحدَّثُ عَنْ أَحْكامِ المَواريثِ ، وهُو ما يُسمّى بِعِلْمِ الفَرائِضِ ، وقَدْ حَثَّ النَّبيُّ ﷺ عَلى تعلُّمِ هذا العِلْمِ ، فعَنْ أبي هُرَيْرَة رضِيَ اللهُ عنْهُ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : (تعلَّموا

الفرائضَ وعلِّموهُ النّاس ، فإنّهُ نصفُ العلمِ ، وهو أوّلُ شيءٍ يُنسى)[1] .

سببُ النزولِ :

أخْرجَ البُخاريُّ عنْ جابرٍ ـ رضي اللهُ عنْهُ ـ قال : عادني النّبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ في بني سلمة ماشيين فوجدَني النّبيُّ ﷺ لا أَعْقِلُ ، فدعا بماءٍ فتوضّأَ منْهُ ثمّ رشّ عليّ فأفقْتُ ، فقلْتُ : ما تأمرُني أنْ أصْنعَ في مالي يا رسولَ الله ؟ فنزلتْ : (يُوصيكُم اللهُ في أولادِكُم)[2] .

يقولُ سُبْحانَهُ وتعالى مُخاطبًا المُؤْمنين ويأمُرُهُم أمْرًا مُؤكّدًا ، ويفْرِضُ عليهِمْ تلكَ الأحْكامَ في شأْنِ أوْلادِهِمْ ووالِديهِمْ بعْدَ موْتِهم ممّا تركوهُ منْ أمْوالِهِمْ ، سواءٌ أكانَ الأوْلادُ ذُكورًا أمْ إناثًا ، وسواءٌ كانوا صِغارًا أمْ كِبارًا .

وقدْ بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بيانَ حُقوقِ الأوْلادِ من الميراثِ على النّحوِ الآتي :

أولاً : الأوْلادُ إذا كانوا ذُكوراً وإناثاً

بدأتِ الآيةُ ببيانِ ميراثِ الأوْلادِ ، لأنّهُمْ أقربُ النّاسِ إلى الإنْسانِ ، لأنّهُ يتعلّقُ بأوْلادِه أكْثرَ منْ غيْرِهِمْ ، ويتْعبُ ويشْقى في الدّنيا لأجلِ توْفيرِ الحياةِ الكريمةِ لهُمْ . وقدْ جعلَ سُبْحانَهُ وتعالى نَصيبَ الذّكرِ ضِعْفَ نَصيبِ الأُنْثى .

وقَدْ جاءَ التّعبيرُ بالذّكرِ والأنْثى ، ولمْ يقُلْ سُبْحانَهُ للرجالِ والنّساءِ ليُبيّنَ أنّ الصّغارَ والكِبارَ منْ كِلا الجِنْسيْنِ سَواءٌ في الميراثِ ، ولعلّ البدْءَ بالأوْلادِ ليُلْغيَ ما كانَ مألوفًا منْ حرمانِ البناتِ منَ الميراثِ .

ثانياً : ميراثُ الأَوْلادِ إذا كانوا إناثاً فقط

قدْ يكونُ الأبُ لمْ يُنْجبْ إلاّ إناثًا ، فكيْفَ يكونُ ميراثُهنّ منْ أبيهِنّ ؟ ، يقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ أيْ : إنْ تركَ ثلاثَ بناتٍ أوْ أرْبعٍ أوْ أكْثرَ منْ ذلكَ فلَهُنّ ثُلُثا التّرِكَةِ . ولمْ تُبيّنِ الآيةُ نصيبَ الثّنتينِ من البناتِ ، وقدْ ذهبَ جُمهورُ العُلماءِ إلى أنّ نصيبَ الثّنتينِ كذلكَ الثُّلُثانِ ، فيكونُ نصيبُ الثّنتينِ والثّلاثِ والأرْبعِ فما فوْقهنّ الثُّلُثيْنِ . أمّا إنْ تركَ الميّتُ بنْتًا واحدةً ، وليْسَ معَها أخٌ أو أُخْتٌ فلها نِصْفُ ما تركَ .

ولابدّ منْ أنْ نُبيّنَ أنّ الأوْلادَ يأْخذون أنْصبتَهُمْ ، بعْدَ أنْ يأْخذَ أبوا المتوفّى والزّوْجُ أنْصبتَهُمْ ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، حديث ٢٧١٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ، حديث رقم ٤٣٠١ .

فإذا تركَ المَيّتُ أبا أوْ أمّا لهُ ، وزوجة وأوْلادا ، يُعطى كلٌّ من الأب والأمّ والزّوجة أولا أنصبتهُمْ ، ثُمّ يُوزَّعُ الباقي على الأوْلاد الذُّكور والإناث حسبما جاء في الآية الكريمة

ثمّ إنَّ الوَلد يُطْلقُ على الابْن وابنه ، ولكنّ أبناء الشّخص المُتوفّى إن وُجدوا يُقدّمُون على أبنائهمْ .

ثالثا ميراث الآباء

بعْد أنْ بيّنت الآيةُ ميراث الأوْلاد ، بيّنتْ ميراث الأبوين ، وللوالديْن ثلاثُ حالات :

إنْ كان للميّتِ ولدٌ ، فإنّ نصيب أبيه يكونُ سُدُس التركة ، وكذلك أمُّهُ تأخذُ سُدُس التّركة .

إذا لمْ يكُنْ للميّتِ أولادٌ ، وورثهُ أبواهُ ، فإنّ نصيب الأمّ يكونُ الثُّلث ، ونصيبُ الأب يكونُ الثُّلثيْن ، فإنْ كان للْميّت مع الأبويْن زوْجٌ ، فيأْخُذُ الزّوْجُ نصيبهُ أوّلا ، ثُمّ يوزّعُ الباقي على الأمّ والأب ، فيكونُ للأمّ ثُلُثُ الباقي ، وللأب الثّلثان .

إذا مات شخْصٌ وترك أبويْه ومعهما إخوةٌ لهُ أوْ أخواتٌ ، ففي هذه الحالة يكونُ لأمّه سُدُسُ التّركة ، والبّاقي للأب ، ولا ميراث للإخوة لوُجود الأب .

ولقدْ بيّنتِ الآيةُ أنّ هذه التّركة تُوزّعُ على مُستحقّيها بعد تنفيذ وصيّة الميّتِ إنْ كان قدْ أوْصى بشيْءٍ ، وبعْد قضاءِ ديونه منْ تركته ، فقسْمةُ الأنْصبة المذكورة للأبْناء والآباء إنّما يكونُ بعْد تنفيذ الوصيّة وقضاء الدُّيون الّتي كانتْ عليْه في حياته .

وبيّنتِ الآياتُ بعْد ذلك تلْك الحكْمة منْ إعْطاء الآباء والأبْناء من التّركة ، حسب هذا التّقْسيم ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعًا ﴾ لقدْ فرض اللهُ عليْكُمْ هذه الفرائض ، فعليْكُمْ أيُّها المُؤْمنونَ أنْ تلْتزموا بتنْفيذها ولا تتّبعوا أهْواءكُمْ وما كان يفعلُهُ أهْلُ الجاهليّة منْ إعْطائها للأقْوياء الّذينَ يُحاربون الأعْداء ، وحرْمانِ الصّغار والنّساء لأنّهُمْ من الضّعفاء ، إنّكُمْ أيّها المُؤْمنون لا تدْرون أيُّهُمْ أكْثرُ نفْعا لكُمْ آباؤكُمْ أوْ أبناؤكُمْ ، فعليْكُم أن لا تحْرموا أحدا منْ حقّه ، ولقدْ تكفّلَ اللهُ تعالى بهذا التّوْزيع العادلِ ليُذْهب عنْكُمْ الحرج .

لَقدْ أكّدتِ الآياتُ ضرورة الالْتزام بشرعه ، فقال أولا : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : فرض اللهُ هذا التّقْسيمَ للميراث وأوْجبهُ عليْكُمْ ، فلا يجوزُ لكُمْ أبدا أنْ تخالفوهُ .

وأكّدهُ سُبْحانهُ ثانياً بقوْله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ إنّهُ سُبْحانهُ عليمٌ بشُئونكُمْ ، وما يصْلُحُ لكُمْ ، فهْو لا يُشرّعُ لكُمْ إلاّ ما فيه المنْفعةُ والمصْلحةُ ، ولذا عليْكُمْ أنْ تلْتزموا بما شرعهُ اللهُ لكُمْ .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعبرٍ كثيرة ، منها :

١ـ اللهُ سُبْحانهُ وتعالى خالقُ البشريّة والمُشرِّعُ لها ، وهُو لا يُشرِّعُ إلاّ ما هُو أنفعُ وأصلحُ لها .

٢ـ لمْ تحْرِم الشّريعةُ الإسلاميّةُ النّساء سواء كُنّ صغاراً أمْ كِبارا منْ حقّهنّ من الميراثِ .

٣ـ منْ حِكْمةِ اللهِ أنْ ورّث الفُروع وهُمْ الأبْناءُ ، والأُصول وهُمْ الآباءُ ، وأعْطى كُلاً منْهُمْ حقّهُ ، ولمْ يحْرِم الآباءَ بحُجّةِ أنّهُمْ كِبارٌ في السّنّ .

٤ـ على المُسْلمين الالتزامُ بشرْعِ اللهِ تعالى في تقْسيمِ الميراثِ على مُسْتحقّيه وعدم التّهاوُنِ فيه .

التّقويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما سبَبُ نُزولِ قوْلِه تعالى : ﴿يُوصيكُمُ اللهُ في أوْلادكُمْ لِلذّكرِ مثْلُ حظّ الأُنْثيين﴾ ؟

٢ـ منْ خلالِ دراستِك لعِلْمِ الميراثِ ، صلْ بيْنَ الحالةِ وحِصّتِها مِن الميراثِ :

الحالةُ	الحصةُ مِن الميراثِ
ـ بنتٌ واحدةٌ .	١ـ السُّدسُ .
ـ الأبُ والأمُّ مع وُجودِ الولدِ .	٢ـ السُّدسُ .
ـ الأمُّ عند وجودِ إخوةٍ للميّتِ .	٣ـ النِّصفُ .
ـ ثلاثُ بناتٍ .	٤ـ الثُّلُثُ .
ـ بنتانِ .	٥ـ الرُّبعُ .

٣ـ ما الحِكْمةُ منْ إعْطاءِ الآباءِ والأبْناءِ منَ التّركةِ وِفْقَ هذا التّقسيم ؟

٤ـ ما حُكْمُ منْ كتَبَ الميراثَ كُلَّهُ باسْمِ ولدِهِ الأكْبرِ وحرم أبناءَهُ الباقين منْهُ ؟



١ـ ما الحكمةُ مِنْ جَعْلِ نصيبِ الذَّكرِ ضِعْفَ نصيبِ الأُنْثى ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دفْترِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ حديثا شريفا يحثُّ على سدادِ دَيْنِ الميِّتِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بَعْضَ المُمارساتِ غَيْرِ الصَّحيحةِ التي تَصْدُرُ عَنْ بعضِ النَّاسِ عنْدَ تَقْسيمِ الميراثِ .

٤ـ اكْتُبْ تقريراً عَنْ موْقفِ التَّشريعاتِ الَّتي كانتْ قَبْلَ الإسْلامِ مِنْ ميراثِ المرأةِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ
فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ
مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم
مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ
وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ
فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كَلالَةً : مَنْ لا ولدَ ولا والدَ لَهُ .

مُضارٍّ : يُسبِّبُ ضَرراً بالوَرثَةِ .

حُدودُ اللهِ : شَرائِعُهُ سُبْحانَهُ ، وَأَحْكامُ دينِهِ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

بَيَّنتِ الآياتُ السَّابِقَةُ ميراثَ الآباءِ والأبْناءِ ، وجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبيِّنَ نَصيبَ الأَزْواجِ عَلى النَّحْوِ الآتي :

أولاً نَصيبُ الأَزْواجِ الرِّجالِ :

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

فإنْ ماتَتِ المَرْأَةُ وكانَ لَها زَوْجٌ ، فإنَّ نَصيبَ هذا الزَّوْجِ يَكونُ وِفْقَ ما يلي :

١ـ إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَرأَةِ أولادٌ ، سَواءٌ أكانوا ذُكوراً أمْ إناثاً ، وسواءٌ أكانوا أولاداً مِنْ زَوْجِها الّذي يَرِثُها ، أمْ أوْلاداً لَها مِنْ زَوْجٍ غَيْرِهِ ، فإنَّ نَصيبَ الزَّوْجِ يَكونُ نِصْفَ ما تَرَكَتْ مِنْ مالٍ .

٢ـ إنْ كانَ لِلْمَرْأَةِ الّتي تُوفِّيَتْ أَوْلادٌ ، فإنّ نَصيبَ هذا الزَّوْجِ رُبْعُ التَّرِكَةِ .

ثانياً نَصيبُ الزَّوْجاتِ :

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

أمّا إذا ماتَ الرَّجُلُ وتَرَكَ زَوْجَتَه ، فإنَّ نَصيبَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ يَكونُ وِفْقَ ما يلي :

١ـ إنْ لَمْ يَكُنْ للرَّجُلِ أَوْلادٌ مِنْ زَوْجَتِهِ هذِهِ أوْ مِنْ غَيْرِها ، فَلَها رُبْعُ ما تَرَكَ زَوْجُها .

٢ـ إنْ كانَ للزَّوْجِ أَوْلادٌ سواءٌ أَكانوا مِنْها أَمْ مِنْ غَيْرِها ، فَلَها ثُمْنُ ما تَرَكَ الزَّوْجُ .

وهذا التَّقْسيمُ للتَّرِكَةِ حَسَبَ ما ذَكَرَتِ الآيَةُ ، إنَّما يَكونُ بَعْدَ تَنْفيذِ وَصِيَّةِ الميِّتِ ، أوْ قَضاءِ دُيونِهِ ، فإنَّ هذِهِ حُقوقٌ تَتعلَّقُ بالتَّرِكَةِ ، ولا يَجوزُ تَقْسيمُها إلاّ بَعْدَ تَأْدِيَةِ هَذِهِ الحُقوقِ ، فإنْ أَوْصَى بِجُزْءٍ مِنْ مالِهِ لِشَخْصٍ ما ، يُعْطي هذا الشَّخْصَ حَقَّهُ ، ثُمَّ يُقَسَّمُ باقي التَّرِكَةِ عَلى المُسْتَحقِّينَ ، وإنْ كانَ عَلى الميِّتِ دَيْنٌ قُضِيَ عنهُ دَيْنُهُ مِنْ تَرِكَتِهِ ، ثُمَّ إنْ بَقِيَ مِنْها شَيْءٌ ، قُسِمَ عَلى الوَرَثَةِ حَسَبَ أَنْصِبَتِهِم .

ثالثاً ميراث الكَلالَة

يَقولُ سُبْحانَهُ ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ الكلالَةُ لُغة : الإحاطةُ ، وقدْ سُمِّيَ أقاربُ الإنْسانِ عدا أبويْهِ وأوْلادِهِ بالكَلالة ، لأنَّهُمْ يحيطونَ بالإنسانِ .

لَقَدْ جاءت الآيَةُ لِتُبيِّنَ تِلْكَ الحالَةَ ، التي يَموتُ فيها إنْسانٌ ولا يَتْرُكُ أبْناء ولا أبا ولا أمّا أوْ أجْدادا وجدّات أوْ أحْفادا ، فإلى مَنْ تؤولُ تركَتُهُ ؟ إنَّ هذا الميّتَ قدْ يكونُ لهُ إخْوةٌ منْ أمّه ، أيْ : لَيْسوا إخوةَ لَهُ مِنْ أبيه ، أوْ منْ أُمّه وأبيه معا ، ففي هذهِ الحالةِ :

١ـ إنْ كان لَهُ أخٌ واحدٌ أوْ أُختٌ واحدةٌ ، فالأَخُ أوِ الأُخْتُ يرثُ كُلٌّ منْهُما السُّدْسَ فقط .

٢ـ إنْ كانَ لَهُ أكْثرُ منْ أخٍ واحد ، فإنْ كانوا مثلا ثَلاثةً ذُكورا وإناثاً ، أو أكثر منْ ذلك ، فإنّهُمْ جميعاً مُشْتَرِكونَ في الثُّلثِ ، ولا فرْقَ هنا بينَ الذَّكرِ والأُنْثى ، فنصيبُ الذَّكرِ نفْسَ نصيبِ الأنْثى ، فهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلثِ .

وَقدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقوْلِه تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ فيكونُ تقْسيمُ التَرِكةِ على المُسْتحقِّينَ كَما قُلْنا مِنْ قَبْلُ ، بعْدَ تنْفيذِ الوصيّةِ ، أوْ قضاءِ دُيونِ الميِّتِ صاحبِ المال . ﴿ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ أيْ : بحيْثُ لا يُوقِعُ المُورِّثُ الضَّرر على الوَرَثةِ بِأكْثرِ مالِهِ لِغَيْرِ الورثة . رُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنْهُ أنّهُ قالَ : (لأنْ أُوصي بالخُمْسِ أحبُّ إليَّ منْ أنْ أُوصي بالرُّبْعِ ، ولأنْ أُوصي بالرُّبْعِ أحبُّ إليَّ منْ أنْ أوصي بالثُّلْثِ) . ومِنْ صُورِ الإضْرارِ بالوَصيّةِ والدَّيْنِ :

١ـ أنْ يُوصيَ المورِّثُ بأكْثرِ مِنْ ثُلْثِ مالِهِ ولَهُ وَرَثةٌ .

٢ـ أنْ يُوصيَ بالثُّلثِ أوْ أقلَ منْهُ ، منْ أجْلِ أنْ يَنْقُصَ حُقوقَ الورثة .

٣ـ أنْ يَذْكُرَ ويُقِرَّ بأنَّ عليْهِ دَيْناً لِشَخْصٍ ما يَسْتَغْرِقُ جميعَ مالِه ، ويَهْدِفُ مِنْ ذلك حرْمانَ الورثة منَ الميراث .

﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : يوصيكُمْ اللهُ بذلك وَصيَّةً ، وقدْ جاءتِ الكلمةُ هكذا : ﴿وصيّة﴾ مُنكّرةً لِتفْخيمِها والعنايةِ بشأنِها ، لِحثِّ النّاسِ على العَمَلِ بموجبِها .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ اللهُ سُبْحانَهُ عليمٌ بما تُسرُّونَ وما تُعْلِنونَ ، عليمٌ بما يَنْفعُكُم ، وعليمٌ بنِيَاتِكُمْ ، حليمٌ بِكُمْ فلا يعاجِلُكُمْ بالعُقوبَة عَسَى أنْ تَتوبوا إلى الله تعالى تَوْبَةً نصوحا .

وَلَقَدْ أكّدتِ الآياتُ وُجوبَ الانْقيادِ لأحْكام اللهِ تعالى وشرائِعِه ، فقال سُبْحانَهُ :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ وحُدودُ اللهِ هيَ شرائعُهُ الّتي أمرَ باتّباعِها ونهى عنْ تركِها، فمنْ أطاعَ الله

تعالى وكان عملُه ضمنَ ما شرعهُ اللهُ ، وأطاع رسولَهُ ﷺ ، فاتّبع كُلَّ ما جاء به عنْ ربّهِ سُبْحانهُ ، فإنّ الله تعالى يُثيبُهُ بأنْ يُدخلَهُ جنّاتٍ تجْري منْ تحْتِها الأنْهارُ ، خالدين فيها لا يموتون ولا يفْنوْن ولا يخْرجون منها ، وذلك هُو الفوْزُ العظيمُ الّذي ليْس بعْدهُ فوْزٌ .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

أمّا منْ كان يعصي الله تعالى ورسولهُ ﷺ فيما أمر بهِ سُبْحانهُ ونهى عنْهُ ، ويتعدّى على شرائع الله تعالى ، فإنّ مصيرهُ أنْ يُدخلهُ اللهُ ناراً يُعذّبُ فيها ، ويكونُ خالداً مُخلّدا في تلْك النّار ، ولهُ إضافة لذلك عذابٌ مُهينٌ ، حيْثُ سيُذلُّ ويخزى يوْم القيامةِ ، بسبب اسْتهانتهِ في الدُّنيا بحُدود الله تعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعبرٍ كثيرة ، منْها :

١ـ وُجوبُ الالْتزام بشريعة الله تعالى والمُحافظةِ عليْها .

٢ـ كُلٌّ من الزّوْجيْن يرثُ أحدُهما الآخر ، فلا تُحْرمُ المرأةُ منْ مالِ زوْجِها كما كانتْ في التشريعات السّابقة .

٣ـ المُحافظةُ على تنْفيذِ وصيّةِ الميّتِ ، وعدمُ إهْمالها .

٤ـ على المُسْلم أنْ يتجنّب إيقاع الضّررِ بِمنْ سيرِثُهُ ، نكايةً به ، أوْ بُغضا لهُ .

التّقْويمُ :

أجبْ عن الأسئلة التّاليةِ :

١ـ منْ خلال دراستِك لأحْكام الميراثِ للزّوْجيْنِ ، بيّنْ نصيب كُلٍّ مِن الرّجُلِ والأُنْثى .

٢ـ لماذا تُقْسمُ التّركةُ بعْد سدادِ دُيونِ الميّتِ وتنْفيذِ وصيّته ؟

٣ـ عرّف الكلالةَ ، وبيّنْ نصيبَ كُلٍّ مِن الأخِ والأُخْتِ منْ ميراث الكلالةِ .

٤ـ ضعْ إشارة (✓) أمامَ العبارةِ الصّحيحةِ وإشارة (×) أمامَ العبارةِ غيرِ الصّحيحةِ فيما يلي :

أ ـ ماتتِ امْرأةٌ ولمْ يكُنْ لها أولادٌ فإنّ نصيب الزّوْجِ ثُلُثُ ما تركتْ .

ب ـ مات شخْصٌ ولهُ إخوةٌ منْ أمّه فقط ، فإنْ كانوا أكْثر منْ أخٍ فلهُمْ النّصفُ .

ج ـ الزّوْجةُ الّتي ليْس لزوْجِها أوْلادٌ ترِثُ منْ زوْجِها الرُّبْعَ .



١ـ إنْ ماتَ رَجُلٌ وتَرَكَ زَوْجتَيْنِ وأَوْلاداً لَهُ ، فَكَمْ يَكونُ نَصيبُ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَتَيْنِ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ خُطورَةَ الإضْرارِ بالوَصِيَّةِ .

٣ـ صَمِّمْ جَدْولاً لِلْوَرَثَهِ المَذْكورينَ في آيةِ الدَّرْسِ والَّذي قَبْلَهُ ، واكْتُبْ أَمامَ كُلِّ وارثٍ نَصيبَهُ كَما جاءَ في القرآنِ الكَريمِ :

	الوارثُ	نَصيبُهُ مِنَ الميراثِ
١ـ	البِنْتُ الواحِدَةُ	لَها النِّصفُ .
٢ـ	البِنتانِ فَأَكْثَرَ	لَهنَّ الثُّلثانِ .
٣ـ	....	....
٤ـ	....	....
٥ـ	....	....

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسُ

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ
يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا
رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ
يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الفاحِشَةَ : الزِّنى .

تابا : رَجَعا إلى اللهِ وأَقْلَعا عَنِ الذُّنوبِ .

السُّوءَ : العَمَلَ القَبيحَ الّذي يَسوءُ فاعِلَهُ .

حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ : أَصْبَحَ في حالةِ نِزاعٍ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ جاءَتِ الشَّريعَةُ الإسْلاميَّةُ لِتَبْنِيَ المُجْتَمَعَ النَّظيفَ ، الخالي مِنْ كُلِّ مُنْكَرٍ وفاحِشَةٍ ، ولِذا فإنَّنا نَجِدُ القُرْآنَ الكريمَ يُشَدِّدُ النَّكيرَ عَلى فِعْلِ الفَواحِشِ ، وَيَضعُ عُقوباتٍ صارِمةً شَديدةً لِمَنْ يَرْتَكِبُ فاحِشَةً ما . ومِنْ أعْظَمِ تلْكَ الفَواحِشِ وأَشدِّها فاحِشَةُ الزِّنى ، حَيْثُ جَعَلَها الإسْلامُ مِنَ المحرَّماتِ الّتي لا يَنْبَغي لأَحَدٍ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْها وجَعَلَ لها حَدّاً وعُقوبةً ثابِتةً ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ .

يُخْبِرُ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى المُؤْمنين بأنَّ اللاتي يقَعْنَ في فاحشَةِ الزِّنى منْ نسائكُمْ سواءٌ كُنَّ مُتزوِّجاتٍ أمْ لا ، هؤلاءِ إن اقْتَرفْنَ هذه الفاحشَةَ ، فاطْلُبوا أنْ يَشْهَدَ عليْهِنَّ أربعةُ شُهداء مِنَ الرِّجالِ الأحْرارِ . ولابُدَّ مِنْ أنْ يَكونَ الشُّهداءُ مِنَ الرِّجالِ ، فلا تُقْبَلُ شَهادةُ النِّساءِ في الحُدودِ .

وَقَدِ اشْتَرَطَ سُبْحانَهُ وتَعالى أرْبَعَةً مِنَ الشُّهودِ ، لأنَّ فاحِشَةَ الزِّنى مِنْ أشَدِّ الأُمورِ الَّتي يُرْمى بها الإنْسانُ رجُلاً كانَ أوِ امْرأةً ؛ ولِذا فَقَدْ شَدَّدَ سُبْحانَهُ في إثْباتِ هذِهِ الفاحِشَةِ . وهؤلاءِ الشُّهودُ لابُدَّ مِنْ أنْ يَكونوا قَدْ رأوْا عَمليةَ الزِّنى وشاهَدوها بأُمِّ أعْيُنِهِمْ ولَمْ يَسْمعوا عَنْها سَماعاً .

فإنْ شهِدَ هؤلاءِ الشُّهودُ الأَرْبَعَةُ على امْرأةٍ ما بالزِّنى ، فعَليْكُمْ أنْ تحبِسُوها في البَيْتِ ، ولا تُمكِّنوها مِنَ الخُروجِ مِنْهُ عُقوبةً لها ، ولِكُلِّ واحِدَةٍ اقْتَرفَتْ هذِهِ الفاحِشَةَ ، وصِيانةً لها حتّى لا تَتمكَّنَ مِنَ الوُقوعِ في الفاحِشَةِ مَرَّةً أُخرى ، وحِفْظاً لأعْراضِ المُسْلِمينَ وأنْسابِهِمْ . ولابدَّ مِنْ أنْ تبقى هَؤلاءِ النِّسْوَةُ في البُيوتِ حتى يَتوفّاهُنَّ اللهُ بالموتِ ، ويَقْبِضَ اللهُ أرْواحَهُنَّ ، أوْ يَجْعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً وَمَخْرَجاً ، وذلِكَ بأنْ يُشرِّعَ لَهُنَّ حُكْماً آخرَ ، وهذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزولِ سورةِ النُّورِ الَّتي بيّنتْ حدَّ الزِّنى .

وقَدْ جعَلَ اللهُ لهذِهِ النِّسوةِ مَخْرجاً . عَنْ عُبادةَ بنِ الصّامِتِ قالَ : كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا نَزَلَ عليْهِ الوَحْيُ أثَّرَ عليْهِ ، وكرُبَ لذلِكَ وتغيّرَ وَجْهُهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَليْهِ ذاتَ يوم ، فلمّا سُرّيَ عنْهُ قالَ : (خُذوا عَنّي ، خُذوا عنّي ، قَدْ جَعلَ اللهُ لهنَّ سَبيلاً ، الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ ، والبِكْرُ بالبِكْرِ ، الثَّيِّبُ جلْدُ مائةٍ ورَجْمٌ بالحِجارةِ ، والبِكْرُ مائةٌ ونَفْيُ سَنَةٍ)[1] .

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ .

وَبيّنَتِ الآياتُ حُكْماً آخرَ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ أيْ : اللَّذانِ يرتكِبانِ فاحِشَةَ الزِّنى مِنْ رِجالِكُمْ ونسائكُمْ فآذوهُما بالتَّوْبيخِ والتأْنيبِ والشَّتْمِ ، بَعْدَ أنْ تَثْبُتَ فاحِشَةُ الزِّنى بشَهادَةِ أرْبَعَةِ شُهود ، حتى يَنْدَما على ما فَعَلا ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ .

أيْ : إنْ تابا عمّا فَعلا مِنَ الفاحِشَةِ ، ونَدما على ما فاتَ وأصْلَحا عَمَلَهُما ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهما ، فَهُوَ سُبْحانَهُ توّابٌ واسعُ الرَّحْمَةِ بِعِبادِهِ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير / سورة النساء ـ حديث رقم ٤٣٠١ .

وقدْ ذكرَ العُلماءُ أنَّ هذهِ الآياتِ نُسختْ بآياتِ سورةِ النُّورِ ، حيثُ بيَّنتْ سورةُ النُّورِ عُقوبةَ الزَّاني والزَّانيةِ ، قال تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] وهذا بالنِّسْبةِ للزَّاني والزَّانيةِ البكْرِ ، أيْ : منْ لمْ يسْبقْ لهُ الزَّواجُ ، وأمَّا عُقوبةُ الزُّناةِ المُحْصنينَ فبيَّنتها السُّنَّةُ النبويَّةُ .

منِ الذينَ تُقْبلُ توْبتُهمْ ؟

يَقولُ سُبْحانهُ :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أيْ : إنَّ الله تعالى يَقْبلُ التَّوْبةَ منْ عبادِهِ الَّذين يَعْملون السُّوءَ ويقعونَ في المعاصي بجهالةٍ ؛ أي : يفْعلونَ هذهِ المَعاصي جاهلينَ غيْرَ مُصرِّينَ على فعْلِها ، ثُمَّ يَتوبونَ بعْدَ الوُقوعِ فيها بوقْتٍ قريبٍ ، ولا يَسْتمرُّون في تلْكَ المعاصي .

ولا شكَّ في أنَّ كُلَّ مَنْ عَصى الله تَعالى يكونُ جاهلاً ، سواءٌ عَصاهُ عنْ عَمْدٍ أمْ خطأً ، إذْ إنَّ العاصي عنْدَما يَعْصي الله تَعالى يَكونُ جاهلاً لِثوابِ اللهِ وعقابهِ ، وجاهلاً لاطِّلاعِ اللهِ تعالى عليْهِ .

إنَّ الله تعالى يَقْبلُ توْبةَ العبْدِ ما لمْ يُغرْغِرْ ، أيْ : ما لمْ تَصِلْ روحُهُ إلى الحلْقِ ، والإنْسانُ العاقِلُ هُوَ الّذي يُسارعُ إلى التَّوْبةِ ، لِتوقُّعِهِ المَوْتَ في كُلِّ لَحْظةٍ . إنَّ هؤلاءِ هُمْ الّذينَ يتوبُ اللهُ عليْهِمْ ويَقْبلُ توْبَتَهُمْ ، ويُطهِّرُ نُفوسَهُمْ ، ويَهديهِمْ إلى الحَقِّ ، ويُوفِّقُهُمْ لِفعْلِ الطّاعاتِ .

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

أمّا الّذين لا يَقْبلُ اللهُ توْبَتَهُمْ فهُمْ الّذينَ يَعْملونَ السَّيئاتِ ويقْترفونَ المعاصي ، ويَسْتمرُّون على معاصِيهِمْ ويُصرُّونَ عليْها حتّى يُداهِمَهُمْ المَوْتُ ، ويَعْرِفونَ أنَّ اللهَ حَقٌّ فَعِنْدئذٍ يَقولُ أَحَدُهُمْ : ﴿إنّي تُبْتُ الآنَ﴾ فإنَّ هذا الوَقْتَ لا فائدَةَ فيهِ منَ التَّوْبةِ .

وممَّنْ لا تُقْبلُ توْبَتُهُمْ كذلِكَ الّذينَ يموتونَ وهُمْ كُفّارٌ على غيْرِ دينِ الإسْلامِ .

بيّنتِ الآيةُ أنَّ الّذينَ لا تُقْبلُ توْبَتُهُمْ فريقانِ :

١ـ الّذين يَرْتكِبونَ المعاصي والسَّيئاتِ ، ويُصِرُّونَ عليْها ويَسْتمِرُّون حتّى يُداهِمَهُمْ المَوْتُ .

٢ـ الّذينَ يموتون على غيْرِ دينِ الإسْلام .

وخُتِمَت الآيةُ بقوْله : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أُولئك الّذين لمْ يقْبلِ اللهُ توْبتَهُمْ أعدَّ اللهُ تعالى لهُمْ يوْم القيامةِ عذابا أليما موجعا ، جزاء لما اكْتسبتْهُ أيْديهمْ من السّيئات في الدُّنيا ، نسْألُ اللهُ تعالى أنْ يَجْعلنا ممّنْ تُقْبلُ توْبتُهُمْ ويُغْفرُ لهُمْ ، آمين .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منها :

١ـ حرص الإسلامُ على بناء المُجتمع النّظيف الخالي من الفواحش .

٢ـ جعل الإسلامُ ثُبوت فاحشة الزّنى بأرْبعة شُهود ، حرْصا منْهُ على أعْراض النّاس .

٣ـ الإنْسانُ العاقلُ هُو الّذي يُسارعُ بالتّوْبة من السّيّئات والمعاصي الّتي يقْترفُها ، لأنّ خير الخطّائين التّوابون .

٤ـ تُقْبلُ توْبةُ العبْد ما لم يغرغر ، أمّا إذا وصلت الرُّوحُ إلى الحُلْقوم فذلك حين لا ينْفعُ نفْسا إيمانُها لمْ تكنْ آمنتْ منْ قبْلُ .

التّقْويمُ :

أجبْ عن الأسئلة التّالية :

١ـ بيّنْ معاني الكلمات التّالية

الفاحشة ، تابا ، السّوء .

٢ـ ما شُروطُ التّوْبة ؟ ومن هُمُ الذين لا تُقْبلُ توْبتُهُمْ ؟

٣ـ لماذا اشْترط الإسلامُ أرْبعة شُهداء لجريمة الزّنى ؟

٤ـ أـ ما عُقوبةُ الزّنى الّتي بيّنتْها آيةُ الدّرْس ؟

ب ـ ما السّبيلُ الّذي جعلهُ اللهُ تعالى لمنْ تقعُ في الزّنى ؟

ج ـ ما عُقوبةُ الزّنى الّتي بيّنتْها سورةُ النُّور ؟

٥ـ ما معنى ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ ؟ وكيْف يكونُ الإيذاءُ ؟

٦ـ ما معنى كلٍّ منَ :

أ ـ ﴿يعْمَلُون السُّوءَ بجهالةٍ﴾ .

ب ـ ﴿يتُوبُون مِن قرِيبٍ﴾ .

ج ـ ﴿حضرَ أحدهُمُ الْموْتُ﴾ .

٧ـ وصفَ اللهُ تعالى عُقوبةَ العُصاة والكافِرين بأنّها ﴿عذابا أليما﴾ ، وضّح كيْف يكونُ العذابُ أليماً .

نَشاطٌ :

١ـ ما الجرائمُ الّتي يُعاقبُ مُرْتكِبُها بحدٍّ منَ الحدود في الشّريعة الإسْلاميّة ؟ اكْتُبْ في دفْترِكَ الجريمة وعُقوبتها .

٢ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ آية سورة النُّور التي تُبيّنُ حدَّ الزِّنى .

٣ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ عُقوبة الزّاني المُحصن ، ودليلها من السُّنّة .

٤ـ اكْتُبْ شروط التّوْبة الصّحيحةِ في دفْترِكَ .

٥ـ ورد في سورة يُونس الحديثُ عنْ إيمان فرْعوْن وقْت الغرَق ، اكْتُب الآياتِ في دفْترِكَ ، وهلْ نَفعهُ إيمانُهُ ؟

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ

سورةُ النِّساءِ القِسْمُ السّادِسُ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن
تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ
زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا
مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَعْضُلُوهنَّ	تُضيِّقوا وتُشدِّدوا عليْهنَّ
مُبيِّنة	ظاهِرة فاضحة
أَفْضى	وصل واسْتمْتع
ميثاقاً غليظاً	عهْدا مُؤكَّدا

التَّفسيرُ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ـ رضِيَ اللهُ عنْهُما ـ قال : قال اللهُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ قال : كانُوا إذا مات الرَّجُلُ كانَ أَوْلِياؤُهُ

أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحقُّ بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية في ذلك[1]

لقد جاءت هذه الآيات والتي قبلها لتغيّر تلك العادات التي كانت معروفة في الجاهليّة من أكل أموال اليتامى ، وهضم لحقوق النساء ، وقد كانت المرأة تورث كما يورث المتاعُ .

جاءت هذه الآية تخاطب المؤمنين وتناديهم بهذه الصفة المحبّبة إليهم ، التي تحثُّهم على الالتزام بما يأمرُهم به سبحانه وتعالى ، وتقول لهم يا أيّها الذين آمنوا لا يحلُّ لكم أنْ تجعلوا النساء كالأموال تتصرّفون بهنّ كما شئتمْ وهنّ كارهاتٌ لذلك ، ولا يحلُّ لكمْ أنْ تضيّقوا عليْهنّ وتضارّوهنّ ، حتى تضطرَّ المرأةُ - لشدّة كراهيتها لكمْ ، ولما تجدهُ منكم من تضييقٍ - افتداء نفْسها بالمال الّذي أعطيتموها إيّاه مهرًا لها .

والتّضييقُ على المرأة لا يجوزُ بأيّ حال إلاّ في الحال التي تأتي فيها المرأةُ بالفاحشةِ المُبيّنة وذلك لسوء أخلاقهنّ ، وذلك كأنْ تخرج عنْ طاعة زوجها ، أو ترتكب فاحشة الزّنى أوْ غيْر ذلكَ فللزّوج حينئذ أنْ يعْضل المرأة ، حتى تطلب بنفْسها الطّلاق من زوجها مقابل أنْ تُعْطِيَهُ المرْأةُ بعْض ما أعطاها من مهر ، وهذا الحُكْمُ كان بسبب إتيان المرأة تلك الفاحشة ، ولابُدّ منْ أنْ نُبيّنَ أنّ تلْكَ الفاحشة الّتي ترتكبُها المرأةُ لابدَ وأنْ تكون مبيّنة ، أي : ظاهرة وفاضحة لصاحبها ، فالهفَواتُ الصّغيرةُ لا تُعطي الحقّ للزّوج بأنْ يعْضل المرأة ، ومُجرّدُ الظُّنون السّيئة بالمرأة منْ قِبَلِ زوْجها كذلك لا يُعطيه الحقّ بعضلها .

وتأمُرُ الآياتُ الرّجال وبخاصّة الأزواجَ بحُسْن معاشرة النّساء ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أيْ : عليْكُمْ أنْ تحْسنوا مُعاشرة النّساء ، ولا تؤْذوهنّ بقول ، بلْ خاطبوهُنّ بالكلام الطّيِّب ، قالَ رسولُ الله ﷺ (خيْرُكمْ خيْرُكمْ لأهْله وأنا خيْرُكمْ لأهْلي)[2] .

وإنّ منْ حُسْن مُعاشرة المرأة أنّ الرّجل إذا رأى منها خُلقًا يكرهُهُ ، لا يكْرهُها لأجْلِ هذا الخُلقِ ، ويستمرُّ في كُرْهه لها ، ولكنْ عليه أنْ يغضّ الطّرْف عن هذا الخُلُق ، فلعَلّ فيها أخْلاقاً أُخْرى يُحبُّها الزّوْجُ ؛ ولذا قال سُبْحانهُ : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أيْ : إنْ كرهْتموهنّ لعيْب فيهنّ ، فلا تتعجّلوا مُفارقتهُنّ ، فعسى أنْ تكْرهوا شيْئاً ولكنّ الله يجعلُ لكُمْ فيه خيْرًا نتيجة صبْركُمْ عليْهنّ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ـ حديث رقم ٤٣٠٣

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٣٨٩٥ ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه حديث رقم ٤١٨٦ ، والحاكم في المستدرك برقم ٥٣٥٩

عنْ أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنْهُ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : (لا يفْرَكْ مُؤْمنٌ مُؤْمنة ، إنْ كره منها خُلقاً رَضيَ منْها آخر)[1] .

وانتَقلتِ الآياتُ لتُبيِّن حقّاً آخر منْ حُقوقِ المرْأة ، فقال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

إذا رَغِبْتُمْ أيها الأزْواجُ اسْتِبدال امْرأة مكانَ أُخرى ، بأنْ كُنْتُمْ مُتزوجين من امرأة وقدْ كرِهْتُموها وأرَدْتُمْ طلاقَها دونَ أنْ تأتِيَ بأيَّةِ فاحشة ، لتتزوّجوا من امْرأة أُخْرى ، وإذا كُنْتُمْ قدْ أعْطيْتُمُ المرْأةَ الّتي ترْغَبونَ في طَلاقِها مالاً كثيراً مهْراً لها ، فلا يحلُّ لكُمْ أنْ تأْخُذوا منْهُ شيْئاً ، لأنَّ الفراقَ كان منْ جانِبِكُمْ أنتُمْ .

وتُشدِّدُ الآيَةُ النَّكيرَ على منْ يأْخُذُ من المَرْأةِ حقَّها . والاسْتِفهامُ للإنْكار والتَّوبيخ ، وقدْ كانوا منْ قَبْلُ إذا أرادوا تَطْليقَ الزَّوْجة رمَوْها بفاحشة وتقوَّلوا عليْها الأقاويل ، فتَضْطَرُّ لافْتداء نفْسها بالمالِ ، وهذا هُوَ البُهتانُ ، أيْ : الكَذِبُ الّذي يُحيِّرُ لِفظاعته ، وهُو لاشكَّ ذَنْبٌ عظيمٌ يُبْعِدُ صاحِبَهُ عَنْ ربِّهِ سُبْحانهُ وتعالى .

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

وكَيْفَ تَسْتَحِلُّونَ يا مَعْشرَ الرِّجالِ أنْ تأْخذوا شيْئا من المهْرِ الّذي أعْطيْتُموهُ لِنسائِكُمْ عنْد مُفارَقَتِهِنَّ ، والحالُ أنّكم قدْ وَصلَ بَعْضُكُمْ إلى بعْضٍ واسْتَمْتع بعْضُكُمْ ببعْضٍ ، وصار كُلُّ واحدٍ منْكُم لِباساً لِصاحِبِه ، وأَخَذْنَ منْكُمْ ميثاقا غليظا لا يحِلُّ لكُمْ أنْ تنْقُضوهُ أو تُخالِفوهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروس وعِبَرٍ كثيرة ، منْها :

١ـ تَكريمُ المَرْأةِ بإعْطائِها كامِلَ حُقوقِها ، وذلك بتَحْريم توْريثِها والتَّضييقِ عليْها .

٢ـ المَهْرُ حَقٌّ لِلْمرْأة ، قليلا كانَ أمْ كثيراً .

٣ـ إذا فارَقَ الرَّجلُ امْرَأتَهُ فَلا يَجوزُ لهُ أنْ يأْخُذ شيْئاً منْ مَهْرِها .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، حديث رقم ١٤٦٩ .



أجبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ سببَ نُزولِ قولِه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .

٢ـ ما حكْمةُ مُخاطبَةِ اللهِ المُؤْمنينَ بقولِهِ : ﴿ياأيُّها الّذين آمنوا﴾ ؟

٣ـ اذْكُرْ صورتيْنِ منْ صُورِ حُسْنِ مُعاشرةِ المرأةِ .

٤ـ اشْرحْ قوْلَهُ تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ .

٥ـ ما معْنى كلٍّ منْ :

أـ ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ .

ب ـ ﴿أفْضى بَعْضُكُمْ إلىٰ بعْضٍ﴾ .

ج ـ ﴿وآتيْتُمْ إحْداهُنَّ قنطاراً﴾ .

دـ ﴿بُهْتاناً وإثْماً مُبيناً﴾ .

٦ـ قالَ تعالى : ﴿فعَسىٰ أن تكْرهوا شيئا ويجْعلَ اللهُ فيه خيْرا كثيرا﴾ ؛ وضِّحْ هذه الآيةَ مُبيِّنا كيْفَ يكونُ الخيْرُ فيما نكْرهُ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ الميثاقَ الغليظَ الّذي أخذَتْهُ النِّساءُ منْ أزْواجهنَّ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّابِعُ

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ
وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم
مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ
ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

سَلَفَ : مَضى .

فاحِشَةً : شَديدَ القُبْحِ .

مَقْتاً : مَبْغوضاً .

ساءَ سَبيلاً : بِئْسَ هذا الطّريقُ الّذي سَلَكوهُ .

ورَبائِبُكُمُ اللّاتي في حُجورِكُمْ : بَناتُ زَوْجاتِكُمُ اللّاتي رَبَّيْتُموهُنَّ .

جُناحَ : إثْمَ .

التفسير :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أباحَ اللهُ تعالى للرِّجالِ أنْ يَتزوَّجوا منْ شاؤوا مِن النِّساءِ ، إلاّ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حرَّمَ عَلَيْهِمُ الزِواجَ ببَعْضِ النِّساءِ ، ولقَدْ تكفَّلَ اللهُ تَعالى بِبَيانِ هذِهِ الشَّريحَةِ مِنَ النِّساءِ اللّاتي يَحْرُمُ الزَّواجُ منْهُنَّ .

وَقدْ بدأتِ الآياتُ بتحْريمِ نِكاحِ امْرأةِ الأبِ ، وأفْردتْ لها نصّاً خاصّاً ،ولَمْ تَذْكُرْ مَعَها المُحرَّماتِ الأُخْرى ؛ مُبالغَةً في الزَّجْرِ ، ولَقَدْ كانَ هذا الزَّواجُ مُتفشِّياً في الجاهِليَّةِ ، فإذا تُوفِّيَ الرَّجلُ كانَ ابْنُهُ أحقَّ بِها أنْ يَنْكِحَها إنْ شاءَ ، فجاءَتِ الآيةُ تُحرِّمُ عَلى الأبْناءِ أنْ يتزوَّجوا مِمَّنْ كانَ آباؤُهُمْ قدْ تزوَّجوهُنَّ ، والمَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿آباؤُكُم﴾ كُلُّ الأُصولِ مِنَ الرِّجالِ ، فَتشْمَلُ الآباءَ ، والأجْدادَ سَواءٌ أكانوا مِنْ جِهَةِ الأَبِ ، أمْ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ .

﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يَسْتَثْني سُبْحانَهُ مِنَ التَّحْريمِ ما مَضى قَبْلَ نُزولِ الآياتِ ، أيْ : مَنْ كانَ تَزوَّجَ قَبْلَ نُزولِ هذِهِ الآياتِ بامْرأةِ أبيهِ فلا مُؤاخَذَةَ عَلَيْهِ .

وَيَصِفُ سُبْحانَهُ الزوّاجَ مِن امْرأةِ الأبِ أوْ الجدِّ بأنَّهُ ﴿ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ فهذا النَّوْعُ من الزَّواجِ قَبيحٌ شَديدُ القُبْحِ ، وهُوَ مَبْغوضٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى وعِنْدَ أصْحابِ العُقولِ السَّليمَةِ ، وبِئْسَ هذا النِّكاحُ الخَبيثُ طَريقاً .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

وانْتَقلتِ الآياتُ لِبَيانِ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ وِفْقَ تَرتيبٍ دَقيقٍ وبَيانٍ بَيِّنٍ واضِحٍ .

أولاً . المُحرَّماتُ مِنَ النِّساءِ بِسَبَبِ القَرابة

١ـ الأُصولُ : وهُنَّ الأُمَّهاتُ ، فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ تَعالى نِكاحَ الأُمَّهاتِ ، ويَدْخُلُ فيهِنَّ الجدّاتُ ، سَواءٌ أكُنَّ مِنْ جِهَةِ الأَبِ أمْ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ . قالَ تَعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ .

٢ـ الفُروعُ : وتَشْمَلُ البَناتِ ، وبَناتِ الابْنِ وبَناتِ البِنْتِ ، وبَناتِ ابنِ الابْنِ ، وهَكذا .

٣ـ الحواشي : وهُنَّ فُروعُ الأَبَوَيْنِ ، وَهُوَ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ أيْ : الشَّقيقاتُ ، أوْ الأخواتُ لأبٍ ، أو الأَخواتُ لأمٍّ .

٤ـ العَمّاتُ والخالاتُ : فقدْ حرَّمَ سُبْحانَهُ نِكاحَ العَمّاتِ والخالاتِ ، ويَشْمَلُ ، عمّاتِ الأَبِ والأُمِّ ، وخَالاتِ الأَبِ والأُمِّ كَذلكَ .

٥ـ نِكاحُ الحَواشي البَعيدةِ منْ جهةِ الإِخْوَةِ : قالَ تَعالى : ﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ فقدْ حَرَّمَ اللهُ نِكاحَ بَناتِ أخِ الرَّجُلِ ، إذْ يَكونُ عَمَّهنَّ ، ونِكاحَ بَناتِ أُختِهِ ، إذْ يكونُ خالَهنَّ ويَتْبَعُهُ تحريمُ بَناتِ بناتِهِمْ .

ثانياً المُحرَّماتُ مِنْ جِهَةِ الرَّضاعِ

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ وبَناتُهُنَّ وهكذا مَهْما نَزَلَ .

والرَّضاعةُ في مَنْزِلَةِ النَّسَبِ ، فالرَّجلُ لا يَجوزُ لَهُ أنْ يَتزوَّجَ أُمَّه الّتي أَرْضَعَتْهُ ، أوْ أُخْتَه منَ الرَّضاعِ ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ عائشَةَ أنَّ رسولَ اللهِ قالَ : (إنَّ الرَّضاعةَ تُحرِّمُ ما تُحرِّمُ الولادةُ)[١] .

ثالثاً المُحرَّماتُ مِنْ جِهَةِ المُصاهَرَةِ

أيْ بِسَبَبِ الزَواجِ ، والمُحرَّماتُ هُنَّ :

١ـ ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ فَيَحْرُمُ عَلَيْكُمْ نِكاحُ أُمَّهاتِ زَوْجاتِكُمْ ، وهذِهِ تَشْمَلُ كذلِكَ جَدّاتِ الزَّوْجاتِ ، فهُنَّ أُمَّهاتٌ كَذلِك . والمَقْصودُ بالنِّساءِ هُنا المَعْقودُ عَلَيْهِنَّ سَواءٌ كُنَّ مَدْخولاً بهِنَّ أَمْ لا .

٢ـ ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ﴾ والرَّبيبةُ بِنْتُ امْرأةِ الرَّجلِ مِنْ غَيْرِه ، وسُمِّيَتْ كذلِكَ لأنَّ الرَّجُلَ يَرُبُّها ، أيْ : يُرَبِّيها ويُؤدِّبُها . والظّاهِرُ مِنَ الآيةِ أنّ بِنْتَ امْرأتِهِ تَحْرُمُ عَلَيْهِ إذا كانَتْ في حِجْرِهِ أوْ لم تَكُنْ في حِجْرِهِ ، أيْ : تَعيشُ مَعَهُ في بَيْتِه أوْ لم تَكُنْ . وذكَرَ هذا الأَمْرَ ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ﴾ لأنّ هذا هُوَ الغالِبُ أنَّ الابْنَةَ مَعَ أُمِّها ، والصَّحيحُ أنَّ كُلَّ بِنْتٍ أو بِنْتِ بِنْتٍ أو بِنْتِ ابْنٍ لامْرأةِ الرَّجُلِ تَحْرُمُ عليهْ ، شَرْطَ الدُّخولِ بها سَواءٌ عاشَتْ في كَنَفِهِ أَمْ لا ؛ ولِذا يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيْ : إذا عَقَدَ الرَّجُلُ عَلى المَرْأةِ ولَمْ يَدْخُلْ بها لا يَحْرُمُ عَلَيْهِ بناتُها ، فَلوَ عَقَدَ عَلى الأُمِّ مثلاً ولَمْ يَدْخُلْ بِها ، ثُمَّ ماتَتْ ، حَلَّ لَهُ أنْ يَتزوجَ ابْنَتَها .

والقاعِدةُ الشَّرْعِيَّةُ : العَقْدُ عَلى البَناتِ يُحَرِّمُ الأُمَّهاتِ ، والدُّخولُ بالأُمَّهاتِ يُحرِّمُ البَناتِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٢٥٠٣ .

٣ـ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ والحلائلُ : جَمْعُ حليلةٍ وهيَ الزَّوْجَةُ ، وسُميَتْ كذلك لأنَّ الزَّوْجَيْنِ يَحِلاَّنِ في مَكانٍ واحِدٍ ، ويحِلُّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، والمَقْصودُ أنَّ الرَّجلَ لا يحلُّ لَهُ أنْ يَتزوَّجَ زَوْجةَ ابْنِهِ ، أوْ زَوْجَةَ ابنِ ابنِهِ ، أوْ زَوْجَةَ ابنِ ابْنَتِه وهكذا ، ويَدْخُلُ فيه زَوْجَةُ ابنِهِ مِنَ الرَّضاعَةِ ، لأنَّهُ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضاعِ ما يَحْرُمُ مِن النَّسبِ . وقيَّدتِ الآيةُ كَوْنَ الابْنِ مِنْ صُلْبِ الرَّجلِ ، أي : مِنْ نَسْلِهِ ، ليُخْرِجَ بهذا القَيْدِ ما كانَ شائعاً في الجاهِليَّةِ مِنْ أمْرِ التَّبنِّي .

رابعاً : المُحرَّماتُ بسَبَبِ الجَمْعِ

يقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ ﴾ .

أيْ : يَحْرُمُ عَلى الرَّجُلِ أنْ يَتزوَّجَ المَرْأةَ وأُخْتَها في آنٍ واحِدٍ ، أمّا إذا طلَّقَ زَوْجَتَه ، أوْ ماتَتْ فيحِلُّ لَهُ عِنْدئِذٍ أنْ يَتزوَّجَ أُخْتَها . وتَخْتِمُ الآيَةُ الكَريمةُ بِبيانِ أنَّ اللهَ تعالى عَفا عَمّا سَلَفَ وَمَضى ، فَمَنْ تَزوَّجَ أُخْتَيْنِ قَبْلَ نُزولِ هذِهِ الآياتِ ، فَقَدْ عفا اللهُ عَنْهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى غَفورٌ رَحيمٌ .

وقَدْ وَرَدَ أنَّه بَعْدَ نُزولِ هذهِ الآيةِ ، مَنْ كانَ عِنْدَه أُخْتانِ قَدْ تَزَوَّجَهُما ، خُيِّرَ في إحْداهُما ، فأَمْسَكَ واحِدةً عِنْدَهُ وطَلَّقَ الأُخْرى .

ويَلْحَقُ بذلِكَ الجَمْعُ بيْنَ المرأةِ وعَمَّتِها ، والمَرْأَةُ وخالَتِها ، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (لا تُنْكَحُ المَرْأَةُ على عَمَّتِها ، ولا عَلى خالَتِها ، ولا على ابنةِ أخيها ، ولا على إبنةِ أُخْتِها)(١) .

وقدْ خُتِمَتِ الآيةُ بقَوْلِهِ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ وتعالى لا يُؤاخِذُهُمْ بما كانَ مِنْهُمْ زَمَنَ الجاهِليَّةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَمحو آثارَ تِلْكَ الأعْمالِ وقَدْ غَفَرَ لَهُمْ ذُنوبَهُمْ ، فالإسْلامُ يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ ، ومِنْ رَحْمتِهِ أنَّهُ سُبْحانَهُ حرَّمَ كَثيراً مِنَ الأنْكِحَةِ الّتي كانَتْ تُمارَسُ في الجاهليَّةِ صِيانةً للأُسْرَةِ مِنَ التَّمزُّقِ وحِمايةً لها مِنَ الضَّعْفِ ، ولِذا فَقَدْ شرَّعَ مِنَ الأحْكامِ ما فيهِ المَصْلَحَةُ وتَوثيقُ الصِّلاتِ وحِفْظُ الأنْسابِ والمُجْتَمَعِ مِنْ كُلِّ سوءٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شَرَعَ القُرْآنُ مِنْ أَحْكامِ النِّكاحِ ما فيهِ المَصْلَحَةُ ، وتَوثيقُ الصِّلاتِ ، وما فيهِ حِفْظٌ للأُسْرَةِ مِنَ التَّمزُّقِ والضَّعْفِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤٨١٨ وأخرجه الإمام مسلم ، كتاب النكاح ، باب تحريم الجمع بين المرأة وأختها أو خالتها في النكاح برقم ١٤٠٨ .

٢ـ تَكفَّلَ اللهُ تَعالى بِبَيانِ ما يَحْرُمُ عَلى الرِّجالِ الزَّواجُ مِنْهُنَّ لِدَرْءِ المفاسِدِ ، وحِمايةِ الأَنْساب .
٣ـ جاءَ الإِسْلامُ لِيَهْدِمَ ما كانَ شائِعاً في الجاهِلِيَّةِ ، فالإِسْلامُ يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَدِّدِ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ الآتيةِ :

أ ـ القرابةِ والنَّسَبِ .
ب ـ المُصاهَرَةِ .
ج ـ الرَّضاعةِ .
د ـ الجَمْعِ .

٢ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّاليةِ :

سَلَفَ ، مَقْتاً ، ساءَ سَبيلاً .

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾. وما حِكْمَةُ ذِكْرِ ﴿مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾ ؟

٤ـ مَتى يَحِقُّ للرَّجُلِ أَنْ يَتزوَّجَ أُخْتَ زَوْجَتِهِ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٥ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَّحيماً﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هَلْ كانَ الجاهِلِيُّ يَتزوَّجُ زَوْجَةَ أَبيهِ بَعْدَ مَوْتِ أَبيهِ أَمْ لا ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .
٢ـ اكْتُبْ في دَفتَرِكَ مَتى تَكونُ الرَّضاعةُ مُحَرِّمَةً ؟
٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ زَوْجةِ الرَّسولِ ﷺ الّتي تَزَوَّجَها لِيُبْطِلَ عادةَ التَّحْريمِ بالتَّبَنّي .
٤ـ ما الحِكْمَةُ في رأْيِكَ مِنْ عَدَمِ الجَمْعِ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّامِنُ

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ
ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ
فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا
مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ
مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُحْصَناتُ	: العَفيفاتُ المُتزَوِّجاتُ .
مُسافِحينَ	: مِنَ السِّفاحِ وهُوَ الزِّنى .
فَريضَةً	: مَحْدودةً ومُقَدَّرةً .
لا جُناحَ	: لا حَرَجَ .
طَوْلاً	: غِنىً وفَضْلاً .
المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ	: الحَرائِرِ مِنَ النِّساءِ .
فَتياتِكُمْ	: الإماءِ ، مِلْكِ اليَمينِ مِنَ النِّساءِ .
مُحصَناتٍ	: عَفيفاتٍ .

مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ	يَتَّخِذْنَ أَصْدِقاءَ لارْتِكابِ الزِّنى .
نِصْفُ ما عَلى المُحْصَناتِ	أيْ خَمْسونَ جَلْدَةً .
العَنَتَ	الجُهْدَ والمَشَقَّةَ .

التَّفْسيرُ :

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنِ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ ، فَتَذْكُرُ نَوْعاً سادِساً مِنَ المُحرَّماتِ وهُنَّ النِّساءُ المُتَزَوِّجاتُ ، فَيقولُ سُبْحانَهُ كمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ نِكاحَ أُمَّهاتِكُمْ وبَناتِكُمْ ، فَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أيْضاً نِكاحَ النِّساءِ ذَواتِ الأَزْواجِ ، المُتَزوِّجاتِ وهُنَّ يَعِشْنَ مَعَ أَزْواجِهِنَّ وفي عِصْمَتِهِمْ .

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ هذا اسْتِثْناءٌ مِنْ تحريمِ نِكاحِ ذَواتِ الأَزْواجِ ، والمُرادُ بِهِنَّ النِّساءُ اللَّواتِي حَصَلَ عَلَيْهِنَّ المُسْلِمونَ مِنْ حُروبِهِمْ مَعَ الكافِرينَ ، وهُنَّ السَّبايا ، وقَدْ رأى المُسْلِمونَ أنَّ المَصْلَحَةَ أنْ لا تُعادَ السَّبايا إلى أَزْواجِهِنَّ الكُفَّارِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْحَلُّ عَقْدُ الزَّوْجِيَّةِ ، ويَحِلُّ للرَّجُلِ الَّذي مَلَكَهُنَّ أنْ يَسْتَمْتِعَ بِهِنَّ .

عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشاً يَوْمَ حُنَيْنٍ إلى أَوْطاسَ فَلَقوا العَدُوَّ فَقاتَلوهُمْ وظَهَروا عَلَيْهِم وأَصابوا لَهُم سَبايا ، فَكانَ ناسٌ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ قَدْ تَحرَّجوا مِنْ غِشْيانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْواجِهِنَّ مِنَ المُشْرِكينَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ في ذَلِكَ ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أيْ : كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ تَحريمَ هَذِهِ الأَنْواعِ كِتاباً مُؤَكَّداً وَفَرَضَهُ فَرْضاً ثابِتاً ، لا يَجوزُ لَكُمْ أنْ تَتلاعَبوا فيهِ ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ أيْ : كُلُّ ما لَمْ يُحرَّمْ في كِتابِ اللهِ تَعالى أوْ عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ لَكُمْ حَلالٌ ، ولَقَدْ ذَكَرَ الرَّسولُ إضافَةً إلى ما مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ المُحرَّماتِ الجَمْعَ بَيْنَ المرأةِ وعَمَّتِها أو خالَتِها ، وَوَرَدَ في القُرْآنِ الكَريمِ في مَوْضِعٍ آخَرَ تَحريمُ الزَّواجِ مِنَ المُشْرِكَةِ ومَنْ لاعَنَتْ زَوْجَها ولاعَنَها .

وقَدْ رَفَعَ الإسْلامُ مِنْ شَأْنِ المَرْأَةِ ، فَبَيَّنَ أنَّ لَها مَهْراً يُدْفَعُ إذا أرادَ الرَّجُلُ أنْ يَتزَوَّجَها ، ولَقَدْ أباحَ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٤٥٦ .

الإسْلامُ وأحَلَّ لِلْمُسْلِمينَ التَّزوُّجَ مِمَّنْ شاءُوا مِنْ غَيْرِ المُحرَّماتِ ، شَريطَةَ أنْ يَدْفعوا لِلْمَرأةِ مَهْراً ، وبالزَّواجِ الحلالِ تَكونونَ قَدْ أحْصَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ومَنَعتُموها مِنَ التَّمتعِ بالحَرامِ وهُوَ السِّفاحُ ، أيْ : الزِّنى ، والإحْصانُ هُنا بِمعنَى العِفَّةِ ، فَكُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يَعِفُّ نَفْسَهُ عَنِ الحَرامِ ، ويَتَمتَّعُ بِما أَحلّهُ اللهُ تَعالى لَهُ .

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أيْ : أيُّ امرأةٍ مِنَ النِّساءِ اللَّواتي أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ زواجَها ، إذا تَزوَّجْتُموها فَأَعْطوها الأَجْرَ ، وهُوَ المَهْرُ الّذي تَفْرِضونَهُ لَها عِنْدَ عَقْدِ النِّكاحِ .

وَبيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّه لا حَرَجَ في أنْ يَتنازلَ أحَدُ الزَّوْجَيْنِ للآخَرِ عَنْ حَقِّهِ ، فإذا تَنازلتِ المَرْأَةُ عَنْ جُزْءٍ مِنَ مَهْرِها عَنْ رِضاً مِنها فلا حَرَجَ عَلَيْها في ذَلِكَ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فَقَدْ وَضَعَ اللهُ تَعالى لِلنّاسِ الشَّرائِعَ الّتي تُحقِّقُ مَصالِحَهُمْ ، فَشَرَعَ لَهُمْ عَقْدَ النِّكاحِ الّذي يَحْفَظُ لَهُم أَمْوالَهُمْ وأنْسابَهُمْ ، وفَرَضَ لِلْمَرْأةِ حَقَّها مِنَ المَهْرِ .

ولكنْ إذا لَمْ يَسْتَطِعِ الرَّجُلُ أنْ يَتزوَّجَ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ ؛ فما الّذي يَفْعَلُهُ ؟

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ ﴾ ، أيْ : مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ أنْ يَنْكِحَ المُحْصَناتِ اللّواتي أُحِلَّ لَكُمْ نِكاحُهُنَّ بِأَمْوالِكُمْ ، والمَقْصودُ : بالمُحْصَنَةِ هُنا الحُرَّةُ ، فَعَلَيْهِ أنْ يَنْكِحَ أمَةً مِنَ الإماءِ المُؤْمِناتِ ، ويَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ الإيمانَ قَدْ رَفَعَ مِنْ شَأْنِ الفَتياتِ المُؤْمِناتِ ، وساوى بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ الأَحْرارِ والحرائِرِ في الدِّينِ ، ورُبَّما تَكونُ أَمَةٌ مِنَ الإماءِ فانْكِحوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، والأَهْلُ هُمُ الّذين يَمْلِكونَهُنَّ، وأَعْطوهُنَّ مُهورَهُنَّ الّتي تَفْرِضونَها لَهُنَّ دونَ أن تَبْخَسوا مِنْ أُجورِهِنَّ شَيْئاً ، فالمَهْرُ حَقٌّ للزَّوْجَةِ على الزَّوْجِ ، وعَلَيْكُمْ أنْ تُعطُوهنَّ هذا المَهْرَ لأنَّكُمْ تَزوجتُموهُنَّ ، فَهُنَّ زَوْجاتٌ عَفيفاتٌ مُحْصَناتٌ ، ولَسْنَ كاللَّواتي يُجاهِرنَ بالزِّنى والمَعْصِيَةِ ، أوْ يَتَّخِذْنَ الأَصْدِقاءَ للزِّنى بهِنَّ سِرّاً .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ عُقوبَةَ الإماءِ اللّاتي يَرْتَكِبْنَ فاحِشَةَ الزِّنى . يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ إنْ أُحصِنتْ هذه الأمةُ بالتَّزوُّجِ ، فزنَتْ بَعْدَ ذلكَ فعلَيْها منَ العقابِ نصفُ ما على المُحْصَناتِ أيْ : الحرائرِ منَ العذابِ في حالةِ زِناهنَّ . وعقابُ الحُرَّةِ بيَّنَهُ سُبْحانَهُ وتعالى في سورةِ النُّورِ ؛ قالَ تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور : ٢] فيكونُ عقابُ الأمةِ خمسينَ جلْدَةً .

وخُتِمَتِ الآيةُ بقوْلِهِ تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أيْ : ذلكَ الّذي شرَعَهُ اللهُ تعالى لَكُمْ مِنْ إباحةِ الزَّواجِ مِنَ الإماءِ لِمَنْ خشيَ على نفْسِهِ الوُقوعَ في الحرامِ ، ولكنَّ صَبْرَكُمْ عنْ نِكاحِ الإماءِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ نِكاحِهِنَّ ، لأنَّ في ذلكَ تَرْبيةً للإرادةِ ، وتغليباً للْعَقْلِ على عاطفةِ الهوى ، وعدمِ تَعْريضِ الوَلَدِ الّذي يَكونُ منْهُ ومنَ الأمَةِ للرِّقِّ ، وخوْفَ فسادِ أخلاقِهِ ، لأنَّ الأمَةَ تشْعُرُ دائماً بالمَهانةِ والذِّلَّةِ ، وقدْ تُوَرِّثُ هذا الشُّعورَ لِزَوْجِها ولأَوْلادِها ، وقدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ : إذا نَكَحَ العَبْدُ الحُرَّةَ فقدْ أُعتِقَ نِصْفُهُ ، وإذا نكَحَ الحُرُّ الأمةَ فقدْ أُرِقَّ نِصْفُهُ .

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فَمَنْ كانتْ لَهُ ذُنوبٌ فإنَّ اللهَ يَغْفِرُها لَهُ ، ويَمْحو أثَرَها فهُوَ غفورٌ رحيمٌ بعبادِهِ ، وفي هذهِ الخاتِمَةِ تَنْفيرٌ مِنَ الزَّواجِ بالإماءِ ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ غفورٌ واسعُ الرَّحْمةِ بعبادِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الالْتِزامُ بما شَرَعَهُ اللهُ تعالى في النِّكاحِ ، وعَدَمُ تعدِّي حُدودِ اللهِ تعالى .

٢ـ المَهْرُ حقٌّ لازِمٌ لِلْمَرْأةِ ، ولا يَجوزُ للرَّجُلِ أنْ يَمْتَنِعَ عَنْ إعْطائِها إيّاهُ .

٣ـ يَحِقُّ للرَّجلِ أنْ يأْخُذَ شَيْئاً مِنْ مَهْرِ المرأةِ إذا تنازَلَتْ عَنْ طيبِ خاطِرٍ .

٤ـ تَقْويةُ الإرادةِ لَدى المُؤْمِنِ عَنْ طريقِ خُلُقِ الصَّبْرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّاليةِ :

المُحْصَناتُ ، فَريضةً ، طَوْلاً ، فَتياتِكُمْ ، مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ ، العَنَتَ .

٢ـ ما حُكْمُ الزَّواجِ مِنَ السَّبايا ؟

٣ـ لماذا فرضَ اللهُ تعالى للنّساء مهْرا ؟

٤ـ ما الفرْقُ في العِقاب بيْنَ الأَمَة الزّانيةِ والحُرّة الزّانية ؟

٥ـ ماذا تسْتفيدُ مِنْ هذه الآيات ؟

٦ـ حرّم اللهُ تعالى في هاتين الآيتيْن وأباح ، اذْكُرْ ما حرّمهُ اللهُ تعالى وما أباحهَ ، مع ذكر الدّليل .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ حُكْمَ المُطلّقةِ ثلاثا ، ومتى يحلُّ لمنْ طلّقها الزّواجُ منْها ؟

٢ـ اكْتُبْ على لوْحةٍ كرْتونيّة المحرّماتِ مِن النّساء بترْتيب واضح ، وعلّقْها في غُرْفة الصّف .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا
عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟
أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الباطِل : أخْذ المال مِنْ دون عِوضٍ حقيقيٍّ .

عُدواناً : مُجاوزة الحَدِّ المشْروع

ظُلْماً : وَضْعُ الشَّيءِ في غيْرِ موْضعه .

التَّفسيرُ :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

قَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابقَةُ المُحرَّماتِ وبعْض أحْكام النِّكاح ، ومِنْ عادةِ القُرْآنِ أنْ يُبيِّنَ لَنا بَعْضَ الأَسْبابِ والعِلَلِ الّتي شُرِّعَتِ الأَحْكامُ لأَجْلِها ، حتّى تَطْمَئِنَّ قُلوبُنا ، ولِنَعْلَمَ عاقِبَةَ الأَعْمالِ الّتي نُقْدِمُ عَلَيْها ، فَنُقْبِلُ على العَمَلِ بشرْعِ الله تعالى ونَحْنُ مُوقِنونَ أنَّ هذا هُوَ الّذي يَصْلُحُ لنا ، عالمينَ أنَّ فيها سَعادَتنا في الدُّنْيا والآخِرَة .

إنّ اللهَ يعلمُ أنّ هُناكَ أسئلةً سوفَ تخطُرُ على أذهانِ البشرِ ، الّذينَ يقرؤُونَ هذا التّشريعَ ، فقدْ يسألونَ : ما الحكمةُ منْ هذهِ الأحكامِ ؟ وما فائدتُها ؟ وهلْ كُلِّفتِ الأُممُ السّابقةُ بمثلِها ؟ فيُبيّنُ لهُمْ سُبحانهُ وتعالى : أنّهُ يُريدُ بما شرعهُ لكُمْ منَ الأحكامِ أنْ يُبيّنَ ما فيهِ مصْلحتُكُمْ ومنفعتُكُمْ وخيرُكُمْ وسعادتُكُمْ ، ويهديكُمْ مناهجَ منْ تقدّمَ منَ الأنْبياءِ والصّالحينَ ، حتّى تسيروا على سُنّتِهِم وتسْلُكوا سُبُلَهُمْ . والشّرائعُ وإنْ كانتْ مُخْتلفةً منْ رسولٍ إلى رسولٍ ، ولكنّها جميعاً مُتّفقةٌ في أنّها تختارُ الأصْلحَ للعبادِ . ويُريدُ اللهُ تعالى أنْ يجْعلكُمْ بتلْكَ الأحْكامِ منَ التّائبينَ العائدينَ إلى اللهِ سُبْحانهُ بصدْقِ العملِ والإخْلاصِ .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فعلْمُهُ سُبْحانهُ شاملٌ ، وقدْ شرعَ لكُمْ ما فيهِ منْفعتُكُمْ ومصْلحتُكُمْ ، وهُوَ سُبْحانهُ لمْ يُكلّفْكُمْ ما لا تُطيقونَ ، أوْ ما فيهِ أذى وضررٌ .

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

إنّ اللهَ تعالى يُريدُ منْكُمْ أيّها البشرُ أنْ تفعلوا ما يجْعلُكُمْ أهلاً لتوْبةِ اللهِ تعالى ومغْفرتِهِ ورضْوانِهِ ، وذلكَ بتطْهيرِكُمْ وتزْكيةِ نفوسكُمْ . أمّا أُولئكَ الّذينَ يتّبعونَ الأهْواءَ والشّهواتِ منْ أهْلِ الكُفْرِ والفُسوقِ والعصْيانِ فهُمْ يُريدونَ منْكُمْ أنْ تبْتعدوا عنِ الحقِّ وتنْحرفوا عنْهُ وتسيروا في طريقِ الباطلِ الّذي يسيرونَ فيهِ ، وأهْلُ الباطلِ موجودونَ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ فلْيحْذرْ منْهُمُ الإنْسانُ .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

إنّ اللهَ تعالى يُريدُ بما شرعهُ لكُمْ منْ أحْكامٍ ، وبما كلّفكُمْ منْ تكاليفَ ، أنْ يُخفّفَ عنْكُمْ ، ولذا فقدْ شرعَ اللهُ لكُمْ نكاحَ الإماءِ إنْ لمْ تجدوا حُرّةً تخْفيفاً عنْكُمْ ، فهُوَ سُبْحانهُ وتعالى يعْلمُ ضعْفكُمْ ، وعدمَ صبْرِكُمْ على المشقّةِ فقدْ خُلقَ الإنْسانُ ضعيفاً .

وبعْدَ أنْ بيّنتِ الآياتُ ما حرّمهُ اللهُ منَ النّساءِ على الرّجالِ وما أحلّهُ لهُمْ ، انْتقلتْ لتُبيّنَ الكيْفيّةَ الّتي ينْبغي أنْ يتعاملَ فيها النّاسُ بالأمْوالِ فقالَ سُبْحانهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أيْ : لا يحلُّ لكُمْ أيّها المُؤْمنونَ أنْ يأْخذَ بعْضُكُمْ مالَ غيْرِهِ بالباطلِ ، أيْ : بطريقةٍ لا تُقرُّها الشّريعةُ الإسْلاميّةُ ، فكما أنّهُ سُبْحانهُ وتعالى لا يُحلُّ لكُمْ أنْ تتصرّفوا في أمْوالكُمُ الّتي تمْلكونها بطريقةٍ غيْرِ مشْروعةٍ ، كذلكَ لا يُحلُّ لكُمْ أنْ تتصرّفوا في أمْوالِ غيْرِكُمْ .

وعلينا أنْ نُدْرِكَ كيف يُربِّي القرآنُ الأمّةَ على التّكافل ، ولذلك قال ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ ولم يَقُلْ يأْكُلْ بعْضُكُمْ أمْوالَ بعْضٍ ، لأنّ مالَ كلِّ واحدٍ هُو مالٌ للأمّة جميعها ، فإذا استباح أحدٌ أن يأْكل مالَ أخيه بالباطل ، كان كأنّهُ أباح لغيره أن يأكل مالهُ بالحرام كذلك .

وإذا كان اللهُ تعالى نهى المُؤمنين أن يتصرّفوا في أموالهم بالباطل ، فقد أباح لهُمْ أن يتصرّفوا فيها بالتِّجارة ، الّتي لا تكونُ إلاّ عن تراضٍ بين المُسلمين ، وقد رغّب سُبحانهُ في التجارة لشدّة حاجة النّاس إليْها لتبادُلِ المنافع بيْنهُم ، ولكن ينبغي أن لا يدْخلها غشٌّ وخداعٌ .

وممّا نفّرتْ منهُ الآيةُ الكريمةُ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أيْ : لا يقْتُل بعْضُكُمْ بعْضا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لأنّ قتل غيره يُؤدّي إلى قتل نفسه قصاصا ، فكأنّهُ قتل نفسهُ ، وقد ورد في الحديث (المُؤمنون كالنّفس الواحدة)[1]

وقدْ يكونُ المقْصودُ النّهي عن قتل الإنسان نفسهُ ، فعن أبي هُريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : (من تردّى منْ جبلٍ فقتل نفْسهُ فهُو في نار جهنّم خالدا مُخلّدا فيها أبدا ، ومن تحسّى سُمّا فقتل نفْسهُ فسُمُّهُ في يده يتحسّاهُ في نار جهنّم خالدا مُخلّدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسهُ بحديدة فحديدتُهُ في يده يُجأُ بها في بطْنه في نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها أبدا)[2]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فهُو سُبحانهُ رحيمٌ بكُمْ إذْ نهاكُمْ عن أكل المال بالباطل ، ونهاكُمْ عنْ قتْلِ النّفْسِ ، فحفظ أموالكُم ودماءكُم . قال ﷺ في خُطبة الوداع : (إنّ دماءكُمْ وأمْوالكُم عليْكُمْ حرامٌ كحُرْمة يوْمكُم هذا في شهركُم هذا في بلدكُم هذا)[3]

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

وإنَّ منْ يفْعلْ ما حرّمهُ اللهُ تعالى وهُو يعلمُ بأنّهُ تجاوز حدّ الله تعالى فإنّ عقابه عظيمٌ عند الله تعالى ، فهُو سُبْحانهُ سيُصليه نار جهنّم ينقلبُ فيها ، وهذا التعذيبُ في النّار يسيرٌ على الله لا يمنعُهُ أحدٌ ، ولا يدْفعُ عنْهُ العذاب أحدٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعبرٍ كثيرة ، منها :

١ ـ الحثُّ على التّوْبة الصّادقة لله تعالى ، فإنّ الله يقبلُها من عباده المُخلصين .

---

(١) ليس هو بهذا اللفظ واردا عن النبي ﷺ وقد رواه الإمام أحمد في مسنده ٤/٢٧١ حديث فيه (المؤمنون كرجل واحد)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب شرب السم ، حديث رقم ٥٤٤٢ ، وأخرجه مسلم في الصحيح : حديث رقم ١٠٩

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب رب مبلغ أوعى من سامع ، حديث رقم ٦٧

٢ـ أحكامُ الله تعالى وتشريعاته تحقق المصالح والمنافع للناس ، ولا تُكلّفُهُم فوق ما يستطيعون .

٣ـ أموالُ الفرد هي أموالٌ للأمّة ، ولذا يجب على صاحب المال الكثير أن يدفع منْ ماله لتحقيق مصلحة أُمّته .

٤ـ الترغيبُ في التّجارة لشدّة حاجة الناس إليها ، والترهيبُ من أكل أموال النّاس بالباطل .

٥ـ حفْظُ دماء النّاس ، والترهيبُ من التّعدّي على النّفس البشرية .

التّقْويمُ :

أجبْ عن الأسئلة التّالية :

١ـ ما الحكْمةُ من ذكر الله للأسباب والعلل التي شُرعت الأحكامُ لأجلها ؟

٢ـ اشْرحْ قوْلهُ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

٣ـ لماذا قال سُبْحانهُ وتعالى ﴿لا تأكلوا أموالكم﴾ ولم يقل : يأكلْ بعضُكم أموال بعْض ؟

٤ـ كيْف يقْتُلُ الإنسانُ نفسهُ في قوله تعالى : ﴿ولا تقْتُلوا أنفسكم﴾ ؟

٥ـ فسّرْ بلُغتك كُلاًّ من الجُمل القُرآنيّة الآتية :

أـ ﴿ويهْديكُمْ سُنن الّذين من قبْلكُمْ﴾ .

بـ ـ ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

جـ ـ ﴿وخُلق الإنسانُ ضعيفا﴾ .

د ـ ﴿ومن يفْعل ذلك عُدْوانا وظُلْما﴾ .

نشاطٌ :

١ـ هُناك آيةٌ قُرآنيّةٌ بيّنتْ أنّ الله لا يُكلّفُ الإنسان فوق طاقته ، هات هذه الآية واكْتُبْها في دفْترك .

٢ـ اكْتُبْ في دفْترك حديثا شريفا يُبيّنُ حُرْمة مال المُسلم على المُسلم من دون رضاهُ .

* * *

الدَّرسُ العاشِرُ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ العاشِرُ

إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا
كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تجتَنِبوا : تترُكوا الكَبائِرَ جانِباً وتَبْتَعِدوا .

كبائِرَ : جَمْعُ كبيرةٍ ، وهِيَ المَعْصِيَةُ العَظيمَةُ .

نُكفِّرْ : نغفِرْ ونَمْحو .

مُدْخَلاً كريماً : الجنَّة .

مَوالِيَ : جمعُ مولىً ، وهُوَ الّذي يَتولّى غَيْرَهُ .

عَقَدتْ أَيْمانُكُمْ : حالَفْتُموهُمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ .

إنَّ أَكْلَ أَمْوالِ النّاس بالباطِلِ ، وقَتْلَ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ اللهُ مِنَ الكَبائِرِ ، وهُناكَ كَبائِرُ كَثيرةٌ نَهانا عَنْها الإسْلامُ ، فَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (اجْتَنِبوا السَّبْعَ الموبقاتِ ، قالوا :

وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشِّرْكُ بالله ، وقتْلُ النفس التي حرّم اللهُ إلاّ بالحقّ ، والسِّحْرُ ، وأكْلُ مالِ اليتيم ، وأكْلُ الرّبا ، والتَّولّي يوْم الزّحف ، وقذفُ المُحْصنات المؤْمنات الغافلات)[1] .

وقدْ جاءتِ الآياتُ تحُثُّ المُسْلمين على ترْك الكبائر ، وترغّبُهم في عفو الله تعالى وثوابه ، فمن اجْتنبَ الكبائِر الّتي نهى عنْها الشّرْعُ ، فإنّ الله تعالى : يُكفّرْ عنْهُ سيّئاته ، أيّ : يمْحو عنْهُ صغائر الذّنوب ، وإضافةً إلى ذلك يُدْخلُهُ في الآخرة مُدْخلا كريما ، وهُو الجنّةُ التي وعد الله عِباده الصّالحين .

والكبيرةُ هي : كُلُّ ذنْبٍ رتّب عليْه الشّارعُ حدًا أو صرّح فيه بوعيد شديد

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

وانْتقلتِ الآياتُ لتنْهى عن التّحاسُد بيْن النّاس .

لقدْ نهاهُمُ اللهُ عنِ التّحاسُد ، وعنْ تمنّي ما فضّل اللهُ به بعضهُم على بعضٍ من الجاه والمال ، لأنّ ذلك التّفْضيل قِسْمةٌ من الله صادِرةٌ عنْ حكْمة وتدبير وعلم بأحْوال العباد ، وعنْ علْمٍ بما يَصْلُحُ لمنْ يبْسُطُ اللهُ عليْه الرّزق ، أوْ يُضيّقُ ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى ٢٧] وعلى الإنسان أنْ يرْضى بما قسمهُ اللهُ لهُ ، وليعْلمْ أنّ ما قسمهُ اللهُ لهُ فيه مصْلحتُهُ ، وما عداهُ سيكونُ مفْسدة لهُ ، وعليْه أنْ لا يحْسُد أخاهُ على ما أعْطاهُ اللهُ .

واعْلمْ - هداك اللهُ - أنّ الحسد المنْهيّ عنْهُ ، هُو تمنّي زوال النّعْمة عنِ الآخرين ، أمّا الغِبْطةُ ، فهي ليْستْ منَ التّمنّي المنْهيّ عنْهُ ، فالغِبْطةُ أنْ يتمنّى الإنْسانُ أنْ يكون عنْدهُ ما عنْد الآخرين دونَ أنْ تزولَ النِّعْمةُ عنْهُمْ أوْ تنْقُص . وقدْ جعل اللهُ ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ لِكُلٍّ فريقٍ منَ الرِّجالِ والنِّساء حظٌّ ومقْدرةٌ قدّرها اللهُ تعالى ممّا اكْتسبوهُ منْ أعْمالٍ ، ولكُلٍّ نصيبٌ مُعيّنٌ منَ الأمْوالِ فهُو سُبْحانهُ الّذي قدّر الأرْزاق ، وخصّ كُلّ فريقٍ بواجباتٍ وأعْمالٍ تليقُ به ، ولذا على كلٍّ منْهُمْ أنْ يسْأل ربّهُ أنْ يُعينهُ ويُقوّيَهُ على ما أناط به منْ عملٍ ، وعليْه أنْ يعْتمدَ على ما أعْطاهُ اللهُ منْ مواهبَ وقُوىً لتحْقيقِ مطالبه ، بالجُهْد والاجْتهاد ، راجياً فضْلَ الله تعالى فيما لا يسْتطيعُ الوُصولَ إليْه ، لجهْله به أو عجْزه عنْهُ . عن ابن عباس قال : قال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٦١٥

(سلوا اللهَ منْ فضلهِ فإنّ اللهَ يُحبُّ أنْ يُسأل ، وإنّ أحبّ عباد الله إلى الله الّذي يُحبُّ الفرج)[1] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فهو سُبْحانهُ مُطّلعٌ على شُئون الكوْن كُلّه ، وبمُقْتضى علْمه سُبْحانهُ وزّعَ الأرْزاق والقُدْرات والمواهب على عباده ، ونحْنُ نرى تفاوُت النّاس في غناهُمْ وفقْرهمْ ، وقُوّتهمْ وضعْفهمْ ، وإبداعاتهمْ . نسْألُ الله تعالى منْ فضْله .

لقدْ خصّ اللهُ تعالى الإنسان بأعْمال يُؤدّيها ليحوز عنْ طريقها المال والثّروة ، وهذه الثّرْوةُ وهذا المالُ قدْ يحوزُهُ الإنْسانُ بغيْر كسْبه ، بلْ ممّا يرثُهُ منْ قريبه الّذي مات ، قال تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

والموالي هُنا الورثةُ ، والمقْصودُ لكُلّ واحد من الرّجال والنّساء جعلْنا ورثة ، يرثون الوالديْن والأقْربين ممّا تركوهُ منْ أمْوال بعْد موْتهمْ ، فلكُلّ واحد جعل اللهُ ورثة فلْينْتفعْ كُلٌّ واحد بما قسم اللهُ لهُ من الميراث ولا يتمنّى مال غيْره .

والمقْصودُ بقوْله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ الحُلفاءُ ، وهُمُ الموالي . عنْ سعيد بن جُبيْر ، عنْ ابن عبّاس رضي اللهُ عنْهُما : (ولكلّ جعلْنا موالي) قال : ورثة ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ : كانَ المُهاجرونَ لمّا قدموا المدينة يرثُ المُهاجرُ الأنْصاريَّ دُون ذوي رحمه ، للأُخوّة التي آخى النّبيُّ ﷺ بيْنهُما ، فلمّا نزلتْ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ نُسختْ ، ثُمّ قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ : من النّصْر والرّفادة والنّصيحة ، وقدْ ذهب الميراثُ ، ويوصى لهُ[2] .

وقدْ خُتمت الآيةُ بقوْله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أيْ : إنّ الله تعالى رقيبٌ شاهدٌ على تصرُّفاتكُمْ في التّركة وغيْرها ، فلا ينْبغي لأحد أنْ يطْمع في نصيب غيْره .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منْها :

١ـ اجْتنابُ الكبائر والصّغائر ، لننال رحْمة الله تعالى ، وجنّتهُ ورضْوانهُ .

٢ـ على الإنْسان أنْ يقْنع بما أعْطاهُ اللهُ تعالى إيّاهُ ، ولا يطْمعْ بما في يد غيْره .

٣ـ إعْطاءُ كُلّ ذي حقّ نصيبهُ من الميراث ، وعدمُ الطّمع في حقّه .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٨) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ـ رقم الحديث (٤٣٠٤) .

التَّقويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اذكرْ كبيرتينِ مِن الكبائرِ الّتي نهى عنها الإسلامُ .

٢ـ لِماذا حرّمَ اللهُ التّحاسُدَ بيْنَ النّاسِ ؟

٣ـ ما فائدةُ أنْ يرْضى الإنْسانُ بما قسَمَهُ اللهُ لَهُ ؟

٤ـ فرّقْ بيْنَ الحسَدِ والغِبْطةِ .

٥ـ ماذا نقْصُدُ بقوْلِهِ تعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ؟

٦ـ لمَ خُتِمتِ الآياتُ بقوْلِهِ تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ ؟

٧ـ ما علاقةُ الجُمْلةِ القُرآنيّةِ الّتي خُتِمَتْ بِها الآياتُ في كُلٍّ مِنَ المَوْضِعيْنِ التّاليينِ بِصدرِ الآيةِ ؟

أـ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ .

ب ـ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ .

نَشاطٌ :

ـ مِنَ الكبائِرِ : قتْلُ النَّفْسِ الّتي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ ، متى يكونُ قتْلُ النَّفْسِ بالحقِّ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي عَشَرَ

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ
فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ
فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ
سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ
أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

قوّامونَ	قَيِّمُ المرأةِ ، إذا كانَ يَقومُ بِأَمْرِها ويَهْتَمُّ بِحِفْظِها .
قانتاتٌ	مُطيعاتٌ للهِ ثُمَّ لأَزْواجِهِنَّ .
حافظاتٌ للغَيْبِ	يَحْفَظْنَ ما يَغيبُ عَنِ النّاسِ .
تَخافونَ	تظُنّونَ .
نُشوزَهُنَّ	عِصيانَهُنَّ للأَزْواجِ .
تَبْغوا	تظلِموا وتُجاوِزوا الحدَّ .
شِقاقَ	خِلافَ .



﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى الرِّجالَ والنِّساءَ أنْ يَتَمنَّى كُلٌّ مِنْهُمْ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ . وقَدْ جاءَتْ هذه الآياتُ لِتُبيِّنَ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ الرِّجالَ عَلى النِّساءِ .

فَلَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى الرِّجالَ قوّامينَ على النِّساءِ ، أيْ : يَقومونَ عَلى شُئونِهِنَّ بالحِفْظِ والرِّعايَةِ و لنَّفقةِ والتَّأديبِ ، وقدِ اقتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى أنْ تَكونَ القِوامَةُ للرَّجلِ ، بِسَبَبِ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ الرِّجالَ على النِّساءِ مِنْ قُوّةٍ في الجِسْمِ ، فَقَدْ أعْطاهُمُ اللهُ ما لَمْ يُعْطِ النِّساءَ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ ، وقُدْرَةِ تحمُّلِ أعْباءِ الحياةِ وتَكاليفِها ، والقُدْرةِ عَلى كَسْبِ المالِ والإنْفاقِ على النِّساءِ .

إنَّ الرَّجُلَ الّذي يَقومُ بحمايةِ المَرْأةِ وكِفايَتِها وتَوْفيرِ ما تَحتاجُ إليهِ ، يُمكِّنُها مِنَ القِيامِ بوَظيفَتِها الفِطْريّةِ وهيَ الحَمْلُ والولادةُ وتَرْبيةُ الأَوْلادِ . ومِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى أنْ بَيَّنَ هذا الأمْرَ كَيْ تَسْتَقيمَ الحَياةُ الزَّوْجيّةُ وتَسْتَمرَّ ، وهذا الأَمْرُ لا يُنْقِصُ مِنْ قَدْرِ النِّساءِ .

وقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ أَحْوالَ النِّساءِ وقَسَمَتْها عَلى قِسْمَيْنِ :

الأولُ : الصّالِحاتُ ، وهُنَّ القانِتاتُ الحافِظاتُ لِلْغَيْبِ بما حَفِظَ اللهُ ، فالصّالِحاتُ هُنَّ المُطيعاتُ للهِ تَعالى ، والمُطيعاتُ لأَزْواجِهِنَّ ، وهُنَّ الحافِظاتُ لِلْغَيْبِ ، أيْ : حافِظاتٌ لِما يَجْري بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ أَزْواجِهِنَّ في الخَلْوَةِ ، والشُّئونِ الخاصَّةِ بها وبِزَوْجِها ، فَلا تُطْلِعُ أَحَداً عَلَيْهِ ولَوْ كانَ قَريباً لَها . عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ : (خَيرُ النِّساءِ امرأةٌ إنْ نَظَرْتَ إلَيْها سَرَّتْكَ ، وإنْ أَمَرْتَها أطاعَتْكَ ، وإذا غِبْتَ عَنْها حَفِظَتْكَ في مالِها ونَفْسِها)[1] .

الثاني : النِّساءُ اللّاتي يُظَنُّ أنَّهُنَّ يَعصينَ أَزْواجَهُنَّ ويُسِئْنَ عِشْرَتَهُمْ ، ولا يَقُمْنَ بِحُقوقِ الزَّوْجيّةِ ، هذا القِسْمُ مِنَ النِّساءِ شَرَعَ اللهُ للأَزْواجِ كَيفيّةَ التَّعامُلِ مَعَهُنَّ . قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ١٦١ .

١ـ ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ أيْ : ابدأوا بوَعْظِهنَّ بالقوْلِ الّذي يُؤثِّرُ في النَّفْسِ ، إذْ من النّساءِ منْ يكْفيها التَّذْكيرُ بعقابِ اللهِ وغضبِهِ وحقِّ الزَّوْجِ عليْها ، ومنْهُنَّ منْ يُؤثِّرُ في أنْفُسهنَّ التَّهْديدُ والتّحْذيرُ منْ سوءِ العاقبةِ في الدُّنْيا ، ومنْهُنَّ منْ يُؤثِّرُ فيهنَّ التَّرْغيبُ بالأجْرِ والثَّوابِ عنْدَ اللهِ لمنْ أطاعتْ زوْجها ، أمّا إنْ لمْ ينْفعْ هذا كُلُّهُ معَها فعليْهِ أنْ يُجرِّبَ الطَّريقةَ الثّانيةَ .

٢ـ ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ إذا لم تَنْفعِ المَوْعظةُ والنَّصيحةُ معَهُنَّ ، فعليْكُمْ أنْ لا تقْربوهُنَّ في فراشٍ ، فإنَّ هذا قدْ يُؤثِّرُ فيها ويُسيئُها ، ويُعيدُها إلى صَوابِها .

٣ـ أمّا إنْ لَمْ يُجْدِ مَعَها هذانِ الأمْرانِ ، فَعلى الزَّوْجِ أنْ يتَّبعَ أمراً ثالثاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي : اضْربوهُنَّ ضَرْباً غيْرَ مُبْرِحٍ ، أيْ : لا يكونُ شَديداً ومُشوِّهاً لها . عنْ جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ في حجَّةِ الوَداعِ : (واتَّقوا اللهَ في النِّساءِ فإنَّهُنَّ عَوانٌ عنْدكُمْ ، ولكُمْ عليْهِنَّ أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهونَهُ ، فإنْ فعلْنَ فاضْربوهُنَّ ضَرْباً غيْرَ مُبْرِحٍ)(١) .

ويُبيِّنُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما الّذي يَجبُ عَلى الرَّجُلِ أنْ يَفْعلَهُ إذا أطاعتْهُ زَوْجُهُ ، بعْدَ أنْ يلْجأَ إلى تأْديبِها بإحْدى هذهِ الطُّرُقِ ، فإنْ أطَعْنَكُمْ فَلا تُؤْذُوهنَّ بألْسِنَتِكُمْ أوْ بأيْديكُمْ أوْ بغيْرِ ذلكَ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فَلا تَبْغوا أيُّها الرِّجالُ عَلى نِسائِكُمْ ، فإذا بَغيْتُمْ عَليْهِنَّ وتجاوزْتُمْ حُدودَكُمْ فإنَّ سُلطانَ اللهِ فَوْقَ سُلطانِكُمْ عَلى نِسائِكُمْ وسَيُعاقِبُكُمْ عَلى ذلِكَ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وإذا اسْتَمرَّ الخِلافُ والشِّقاقُ بَيْنَ الزَّوْجيْنِ بِسَبَبِ نِزاعٍ بَيْنَهُما ، فَعلى الزَّوْجيْنِ أوْ منِ اطَّلعَ على أمْرِ النِّزاعِ مِنْ ذويهما ، أنْ يَبْعَثَ بطَلَبِ حَكَميْنِ ، والحَكَمُ هُوَ رَجُلٌ صالحٌ عاقِلٌ يكونُ أهْلاً للإصْلاحِ ، ومَنْعِ وُقوعِ الظُّلْمِ ، ولْيَكُنِ الحَكَمانِ حَكَماً مِنْ أهْلِ الزَّوْجِ وحَكَماً مِنْ أهْلِ الزَّوْجةِ ، بحيثُ يَسْمَعانِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ : الزّوجِ والزَّوْجَةِ ، ويُحاوِلانِ الإصْلاحَ بَيْنَهُما .

وبهذا يَظْهَرُ لَنا مِنَ الآياتِ شِدَّةَ عِنايةِ القُرْآنِ الكَريمِ بالأُسْرَةِ والمُحافَظةِ عَلَيْها ، ولِذا فقدْ شرعَ سُبْحانَهُ مِنَ الأحْكامِ ما يَضْمَنُ سَعادةَ الزَّوْجَيْنِ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب حجة النبي ﷺ ، حديث رقم ١٢١٨

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ خيرُ النِّساءِ الصّالِحاتُ ، اللّواتي يُطِعْنَ أزْواجَهُنَّ .

٢ـ جَعلَ اللهُ تَعالى القِوامَةَ في الأُسْرَةِ بيدِ الرِّجالِ بِسَبَبِ قيامِهِمْ عَلى شُئونِ النِّساءِ بالحِفْظِ والرِّعايةِ والإنْفاقِ .

٣ـ إذا نَشَزتِ المرأةُ فَعلَى الرَّجُلِ أنْ يتَّبِعَ في تَأْديبِها ما شَرَعَهُ اللهُ لَهُ : الوَعْظُ أولاً ، ثُمَّ الهَجْرُ ، ثُمَّ الضَّرْبُ غيْرُ المُبَرِّحِ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى المُفْرداتِ التّاليةِ :

قَوّامون ، قانِتاتٌ ، نُشوزَهُنَّ ، تَبْغوا ، شِقاقَ .

٢ـ أـ ما المَقْصودُ بالقِوامَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلى النِّساءِ﴾ ؟

ب ـ هلْ تَعْني قِوامَةُ الرَّجُلِ عَلى المَرْأةِ أنَّهُ أفْضَلُ مِنها ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ شرعَ الإسْلامُ للرِّجالِ طُرُقَ تأْديبِ المَرْأةِ النّاشِزِ ؛ اذْكُرْ هَذهِ الطُّرُقَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآياتِ .

٤ـ أـ ما الفائِدةُ مِنْ جعْلِ الحَكَمَيْنِ مِنْ أهْلِ الزَّوْجِ والزَّوجةِ ؟

ب ـ متى يلْجأُ الزَّوْجانِ إلى التَّحكيمِ بيْنَهُما ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ
وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ
عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الجارِ الجنُبِ : الجارِ الّذي لَيْسَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ قَرابةٌ .

الصّاحِبِ بالجنْبِ : الرَّفيقُ في السَّفَرِ .

ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ : الإماءِ والعبيدِ .

مُختالاً : مُتكَبِّراً .

فَخوراً : الّذي يَزْهو بِنَفْسِهِ عَلى النّاسِ .

رِئاءَ النّاسِ : طَلَباً في رُؤْيَتِهِمْ لِما تَعْمَلُهُ لِلْمَدْحِ والثَّناءِ .

قَريناً : صاحِباً وخَليلاً .



﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فَهذِهِ هِيَ الغايَةُ مِنْ خَلْقِ العِبادِ ، عِبادَةُ اللهِ تَعالى والإخْلاصُ لَهُ في الطّاعَةِ ، وهَذا ما جاءَتِ الآياتُ لِتُرَكِّزَ عَلَيْهِ . وعِبادَةُ اللهِ تَعالى هِيَ الخُضوعُ لَهُ سُبْحانَهُ ، وتَعْظيمُهُ وخَشْيَتُهُ في السِّرِّ والجَهْرِ ، وعَلامَةُ ذلِكَ مَحَبَّةُ اللهِ والامْتِثالُ بما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، والانْتِهاءُ عَنْ كُلِّ ما نَهى اللهُ عَنْهُ . وهذا هُوَ حَقُّ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ ، أنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً . فَعَنْ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ قالَ : كُنْتُ رديفَ النَّبيِّ ﷺ عَلى حِمارٍ يُقالُ لَهُ عَفيرةَ ، فقالَ : (يا مُعاذُ ، ألا تَدْري ما حَقُّ اللهِ عَلى عِبادِهِ ، وما حَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ . قال : فإنَّ حَقَّ اللهِ عَلى العِبادِ أنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً ، وحَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ أنْ لا يُعذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً . فَقُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، أفَلا أُبشِّرُ بِهِ النّاسَ ؟ قالَ : لا تبشّرْهُمْ فيتَّكلوا)[1] .

والإشراكُ باللهِ يُنافي التَّوْحيدَ ، وذلِكَ مِثْلُ عِبادَةِ المُشْرِكينَ ، أوْ عِبادَةِ النَّصارى الّذينَ يَقولونَ إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ ، أوْ إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ، أوْ ما نَراهُ اليَوْمَ مِمَّنْ يَضْعونَ في رِقابِهِمُ الخَرَزَةَ الزَّرْقاءَ ، أوِ العَيْنَ الزَّرْقاءَ لِتَرُدَّ عَنْهُمُ الحَسَدَ ، فَهذا كُلُّهُ يُفْضي إلى الإشْراكِ ، إذا اعْتَقَدَ الإنْسانُ أنَّها هِيَ الّتي تَرُدُّ العَيْنَ أوِ الحَسَدَ .

وبَعْدَ أنْ أَمَرَ اللهُ بِعبادَتِهِ ، أمَرَ بأنْ يَكونَ عَبْدُ اللهِ مُحْسِناً لِكُلِّ مَنْ يَتعامَلُ مَعُهُمْ أوْ مَنْ لَهُ في حياتِهِ ارْتِباطٌ بِهِمْ ، فأَمَرَهُ :

١ـ بالإحْسانِ إلى الوالِدَيْنِ ، وقَدْ ذَكَرَهُ بَعْدَ الأَمْرِ بعبادةِ اللهِ تَعالى ، لأنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي أَوْجَدَ الإنْسانَ وخَلَقَهُ ، والوالِدانِ هُما السَّبَبُ الظّاهِرُ في وُجودِهِ ، وهُما اللَّذانِ قاما بتَرْبِيَتِهِ وتَعْليمِهِ وتَنْشِئَتِهِ ، فَعلَيْهِ أنْ يُقابِلَ الإحْسانَ بالإحْسانِ فَيُطيعُهُما ويَحْتَرِمُهُما .

وبِرُّ الوالِدَيْنِ يَكونُ في حَياتِهِما وبَعْدَ مَوْتِهِما ، فَقَدْ سَأَلَ رَجُلٌ النَّبيَّ ﷺ قائِلاً : يا رَسولَ اللهِ ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهُما بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِما ؟ قالَ : نَعَمْ ، الصَّلاةُ عَلَيْهِما ، والاسْتِغْفارُ لَهُما ،

---

(١) أخرجهُ البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٧٠١ .

وإنْفاذُ عَهْدِهِما مِنْ بَعْدِهِما ، وإكْرامُ صَديقِهِما ، وصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتي لا توصَلُ إلاّ بِهِما(١) .

٢ـ الإحْسانُ إلى ذَوي القُرْبَى : أيْ : أحْسِنوا مُعامَلَةَ أقْرَبِ النّاسِ إلَيْكُمْ بَعْدَ الوالِدَيْنِ ، فإذا كانَ كُلُّ إنْسانٍ يُؤدِّي حُقوقَ ربِّهِ ، ويَبَرُّ والدَيْهِ ، ويُحْسِنُ إلى أقارِبِهِ ، كانَ المُجْتَمَعُ الإسْلامِيُّ مُجْتَمَعاً قَوِيّاً .

٣ـ الإحْسانُ إلى اليتامى : واليَتيمُ كَما عَرَفْتَ مِنْ قَبْلُ هُوَ الّذي فَقَدَ الأَبَ ولَمْ يَبْلُغِ الحُلْمَ ، فَهُوَ قَدْ فَقَدَ النّاصِرَ والمُعينَ ، ولِذا عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَمُدّوا لَهُ يَدَ العَوْنِ لِتَرْبِيَتِهِ وتَعْليمِهِ وتَنْشِئَتِهِ .

٤ـ الإحْسانُ إلى المَساكينِ : وهُمْ في حاجَةٍ إلى العَوْنِ والمُساعَدَةِ لِفَقْرِهِمْ وشِدَّةِ عِوَزِهِمْ وحاجَتِهِمْ .

٥ـ الإحْسانُ إلى الجارِ ذي القُرْبى والجارِ الجُنُبِ : وهذا هُوَ حَقُّ الجِوارِ ، والجارُ هُوَ القَريبُ مِنْكَ بِالمَكانِ والمَسْكَنِ ، والإنْسانُ قَدْ يَأْنَسُ بِجارِهِ أكْثَرَ مِمّا يَأْنَسُ بِقَريبِهِ ، ولِذا عَلى الإنْسانِ أنْ يُحْسِنَ إلى الجارِ ، لِيَكونَ بَيْنَهُما تَوادٌّ ورَحْمَةٌ سَواءٌ أكانَ هذا الجارُ قَريباً لَهُ ، أمْ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ .

والأحاديثُ الّتي توصي بِالجارِ كَثيرَةٌ ، فَعَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ :(ما زالَ جِبْريلُ يوصيني بِالجارِ حتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيوَرِّثُهُ) . وقالَ ﷺ : (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ وقالَ : واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، قيلَ مَنْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ)(٢) .

٦ـ الإحْسانُ إلى الصّاحِبِ بِالجَنْبِ : وهُوَ الّذي صَحِبَكَ وكانَ بِجَنْبِكَ ، أيْ : قَريباً مِنْكَ ، إمّا أنْ يَكونَ رَفيقاً مَعَكَ في سَفَرٍ ، وإمّا جاراً مُلاصِقاً ، وإمّا شَريكاً في تَعَلُّمِ عِلْمٍ أوْ حِرْفَةٍ ، وإمّا قاعِداً إلى جَنْبِكَ في مَجْلِسٍ أوْ مَسْجِدٍ ، فَعَلى الإنْسانِ أنْ يَرْعى هذا الصّاحِبَ ولا يَنْساهُ .

٧ـ الإحْسانُ إلى ابنِ السَّبيلِ : وهُوَ المُسافِرُ الّذي انْقَطَعَ عَنْ بَلَدِهِ ، وَنَفِدَ ما مَعَهُ مِنْ مالٍ ، فالإحْسانُ إليهِ : إعانَتُهُ بِالمالِ والرِّعايَةِ حَتّى يَعودَ إلى بَلَدِهِ .

٨ـ الإحْسانُ إلى ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ : وهُمُ العَبيدُ الأرِقّاءُ الّذين مَلَكْتُموهُمْ ، وهذا كانَ في عَهْدِ الرِّقِّ ، أمّا الآنَ فَلا يوجَدُ رِقٌّ ، وقَدْ أوْصَى بِهِمُ الرَّسولُ ﷺ ، ولَعَلَّ مِنَ المُفيدِ أنْ يَتَذَكَّرَ المُسْلِمُ وُجوبَ الإحْسانِ إلى مَنْ يَخْدِمُهُ ، ويَخْدِمُ أهْلَهُ ، وَنَحْنُ في زَمَنٍ قَدْ كَثُرَ فيهِ الخَدَمُ الّذين يَخْدِمونَ في البُيوتِ مُقابِلَ أجْرٍ ، فَعلى الإنْسانِ أنْ يُعامِلَهُمْ مُعامَلَةً حَسَنَةً . ولَعَلَّ الإحْسانَ إلى هؤلاءِ يُؤدِّي إلى التَّواضُعِ وحُسْنِ الخُلُقِ ، وبِذلِكَ يَكونُ مَحبوباً عِنْدَ اللهِ ويُبْعِدُ عَنْ نَفْسِهِ ما يُسَبِّبُ بُغْضَ اللهِ تَعالى ،

---

(١) أخرجهُ أبو داود ، كتاب الأدب ، باب بر الوالدين ، حديث رقم ٥١٤٢ وابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٤١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٥٦٧٠ .

قالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا ﴾ فهْو سُبْحانهُ لا يُحبُّ المُتكبِّرَ الّذي تظْهرُ آثارُ كبْرِه في حركاتِه وأعْمالِه ، أوْ في أقْوالِه ، فتجدُهُ يُمجّدُ نفسهُ ويحْتقرُ غيْرهُ ، والمُخْتالُ الفخورُ لا يعْبُدُ ربّهُ حقَّ عِبادتِهِ ، لأنَّ العِبادةَ لا تكونُ إلاّ إذا خشعَ قلْبُ الإنْسانِ ، وبالتّالي خشعتْ جوارحُهُ كُلُّها للهِ ، ومنْ لمْ يكُنْ كذلكَ ، فلنْ يقومَ بحُقوقِ الوالديْنِ أوْ ذوي القُرْبى أو غيْرِهمْ .

ولكِنْ ، منِ المُختالُ الفخورُ ؟ بيّنتِ الآياتُ أنَّهُمْ فريقان :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾ .

الفريقُ الأوّلُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ اللهُ تعالى لا يُحبُّ هؤلاءِ الّذين يبْخلونَ بأمْوالِهمْ ، ولا يكْتفونَ بهذا بلْ يأمُرون غيْرهُمْ بأنْ يكونوا بُخلاءَ ولا يُنْفقوا أمْوالَهُمْ في سبيلِ اللهِ تعالى ، وهُمْ كذلك يبْخلون بالإحْسانِ لِمنْ أمرَ اللهُ تعالى بالإحْسانِ إليْهِمْ ، ويأْمُرونَ غيْرهُمْ بذلِك .

وهُمْ لا يكْتفون بالبُخْلِ ، بلْ يكْتُمون ما آتاهُمُ اللهُ تعالى منْ نِعمٍ ، فيُخْفونها ولا يُظْهِرونها ، فهُمْ يكْتُمونَ المال ويكْتُمون العِلْم وغيْر ذلِكَ منْ نِعَمِ اللهِ الّتي أنْعمَ بها عليْهِمْ . هؤلاءِ قدْ هيّأ اللهُ لهُمْ بسببِ كِبْرِهمْ وبُخْلِهِمْ عذاباً مُهيناً ، يُهينُهُمْ ويُذِلُّهمْ ، لأنَّهُمْ قدْ أهانوا غيْرهُمْ في الدُّنْيا ، واسْتهانوا بآياتِ اللهِ تعالى .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

والفريقُ الثاني : وصفهُمُ اللهُ بقوْلِهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ﴾ أيْ : هُمُ الّذين يُنْفِقونَ أمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ ؛ فهُمْ يبْذُلون المالَ لا شُكْراً للهِ تعالى على نِعمِهِ ، ولا حُبّاً في اللهِ بلْ يُنْفِقونها ليراهُمُ النّاسُ ويسْمعوا بهِمْ ، حتّى يقولوا عنْهُمْ إنّهُمْ منْ أهْلِ الخيْرِ والكرَمِ ، وقدْ حذَّرَ النّبيُّ ﷺ من الرّياءِ الّذي سمّاهُ شِرْكاً حيْثُ قال : (قال اللهُ تبارك وتعالى : أنا أغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ ، منْ عمِلَ عملاً أشْركَ معِي فيه غيْري تركْتُهُ وشِرْكهُ)[1] . إنَّ هؤلاءِ الّذينَ تحدَّثتْ عنْهُمُ الآيةُ قدِ اتّخذوا الشّيْطانَ صاحِباً ، وأطاعوه في كُلِّ ما يأْمُرُهُمْ بهِ ، وما أسْوأَ هذا الصّاحِبَ والقرينَ ، الّذي يُودي بصاحِبهِ إلى نارِ جهنّمَ .

وقدْ وبّخَ اللهُ تعالى هؤْلاءِ الّذينَ يُؤْثِرونَ رِضا النّاسِ على رِضا اللهِ تعالى فيقولُ :

---

(١) أخرجهُ الإمامُ مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٩٨٥ .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

أيْ : أيُّ ضرر سيُصيبُهُمْ لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا وأخلصوا أعمالهُم لهُ سُبْحانهُ وتعالى ، وآمنوا باليَوْمِ الآخر وما فيه منْ ثواب وعقاب ، وأيُّ ضرر سيُصيبُهم لوْ أنَّهُم أنْفقوا أمْوالهُمْ في سبيلِ الله تعالى ؟ وهذا الاسْتفهامُ يُفيدُ التّعجُب والاسْتنْكار منْ حالِ هؤلاءِ الكافِرين .

وخُتِمَتِ الآيةُ بقوْله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ تهْديدا لهُمْ على ما كان منهُمْ ، فهُو سُبْحانهُ يَعْلمُ بواطنهُمْ وظواهرهُم ، وسوف يُجازيهمْ على ما أسرُّوهُ وما أعْلنوهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منها :

١ـ الغايةُ منْ خلْق الله تعالى لنا عبادتُهُ والخُضوعُ لهُ سُبْحانهُ خُضوعا تامّا

٢ـ الإحْسانُ إلى الوالديْن والبرُّ بهما واجبٌ على كلِّ إنْسانٍ ، لأنَّهُما سببٌ في وُجود الإنْسان .

٣ـ المُسْلِمُ يُحْسِنُ لكُلِّ منْ أمر اللهُ تعالى بالإحْسان إليْهِمْ ، طلباً لرضى الله تعالى .

٤ـ المُسْلِمُ يُخْلصُ لله تعالى في كُلِّ عمل يقومُ به .

التّقْويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلة التّالية :

١ـ اذْكُر الغاية منْ خلْق الإنسان ، وما دليلُ ذلك ؟

٢ـ كيْف أشْرك النّصارى بالله ؟

٣ـ ما معْنى المُفْردات والتّراكيب التّالية :

الجار الجُنُبِ ، الصّاحب بالجنب ، ما ملكتْ أيْمانُكُمْ ، ابنِ السّبيل .

٤ـ لِمَ حرّمَ اللهُ الكِبْر ؟ وما خُطورتُهُ على الفرْد والمُجْتمع ؟

٥ـ ما صِفاتُ الكافِرين الّذين أعدّ اللهُ لهُمْ عذابا مُهيناً ؟

٦ـ اذْكُر الفئات الّتي أمر اللهُ بالإحْسان إليْهِمْ مرتّبين كما جاء في الآيةِ الكريمةِ .

٧ـ كيْفَ يُؤدّي الإحْسانُ إلى الضّعفاءِ إلى البُعْدِ عنْ الكِبْرِ والخُيلاءِ ؟

٨ـ فسِّرْ كُلاً من الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ .

ب ـ ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾ .

ج ـ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ كَثُرتِ الآياتُ في القُرآنِ الّتي تأْمُرُ ببِرِّ الوالدَيْنِ . هاتِ آيتَيْنِ منْها واكْتُبْهُما في دفْترِكَ .

٢ـ ما معْنى هذهِ العِبارةِ : منْ لا يأْمنْ جارُهُ بَوائقَهُ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دفْترِكَ .

٣ـ اكْتُبْ حديثًا شريفًا يذمُّ فيه الرّسولُ ﷺ الكِبْرَ والمُتكبِّرينَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سُورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثَّالِثَ عَشَرَ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مِثْقالَ ذرةٍ — وزن ذرّة

الذَّرَّةُ — هي أصغرُ شيءٍ في الكون .

مِنْ لَدُنْهُ — من عنده .

تُسوَّى بِهِمُ الأرضُ — يُدْفنون في الأرض

التَّفسيرُ :

لَقَدْ تَوعَّدَ اللهُ تعالى المُختالينَ الفخورين بأسوأ العذاب ، ولكن ، هل في هذا ظُلْمٌ لهؤلاء أنْ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ تَعالى ويوردهُمْ نار جهنّم على أعمال عملوها ؟ وهلْ يُمكنُ أن يظلم اللهُ تعالى أحدا من خَلْقِهِ ؟ لَقَدْ أَجابَتِ الآيةُ الكريمةُ إجابة حاسمة صريحة عنْ هذا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُنْقِصُ أحدا منَ أجرِ أعماله الّتي عملها ، حتّى لو كان هذا العملُ ضئيلا حقيرا ، وهُوَ ما سَمّاهُ اللهُ تعالى بالذّرّة ، ونحنُ نعْلمُ أنّ أصْغر شيء في هذا الكون هو الذرّة . قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة ٧ ، ٨] .

إنَّ الظُّلم لا يُمكنُ أن يقعَ من الله تعالى ، لأنَّهُ حرَّمه على نفسه ، فهُو سُبْحانهُ صاحبُ الكمالِ المطلق ، والفضل العظيم .

ومن رحمة الله تعالى أنّهُ يزيدُ لمنْ أحسنَ في حسناته ، فهُو سُبْحانهُ يُضاعِفُ الحسناتِ ، أمّا السّيئاتُ فلا يُجزى الإنسانُ إلاّ مثلها ، قال تعالى : ﴿ من جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام ١٦٠) ، ومن رحمة الله أنَّ منْ همَّ بسيِّئة فلمْ يعْملْها كُتبتْ لهُ حسنة ، ومنْ همَّ بسيئة وعملها كُتبتْ لهُ سيِّئة ، ومن همَّ بحسنة فعملها كُتبتْ لهُ عشْر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعْف .

﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إنّ رحمة الله تعالى لا تقفُ عند جزاء المُحسن فقط ، بلْ إنّه تعالى يزيدُهمْ منْ فضله ويُعطيهمْ عطاء كبيرا منْ عنده بلا مُقابل .

إنّ الله لا يظلمُ مثقال ذرّة ، وكيْف يكونُ ذلك وهُو سُبحانهُ يجمعُ الأُمم كُلّها يوْم القيامة ، ويأْتي بالشُّهود منْ جميع الأُمم يشهدون على أُممهمْ .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

إذا عرفت أيّها السّامعُ أنّ الله لا يظلمُ مثْقال ذرّة وأنّها إن تكُ حسنةً يُضاعفْها ، فكيْف سيكونُ حالُ هؤلاء الكفرة إذا جمعهُمُ اللهُ تعالى ، وجاء على كُلِّ أُمة بشهيد يشْهدُ عليْهم بما كانوا يعْملونَ في الدُّنيا ، وهذا الشّهيدُ هُو نبيُّهُمُ الّذي بعثهُ اللهُ لهُمْ ، وجئنا بك يا مُحمّدُ شهيداً على هؤلاءِ الّذينَ بعثك اللهُ تعالى فيهمْ ، وشهيدا على جميع الأُمم السّابقة .

لقدْ أكرم اللهُ تعالى هذه الأُمّة بأنْ جعلها شهيدة على الأُمم السّابقة ، وجعل نبيّها شهيداً عليْها . عنْ عبْد الله بن مسعود قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : (اقرأْ عليّ شيْئاً من القُرْآنِ ، فقُلْتُ : يا رسولَ الله أأقرأُ عليْك وعليْك أُنْزل ؟ قال : فإنّي أُحبُّ أنْ أسمعهُ منْ غيْري ، فقرأْتُ عليْهِ سورة النّساء حتّى بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقال : أمْسكْ ، فإذا عيْناهُ تذْرفان)[1] .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

في ذلك اليوْم يشْهدُ الرُّسُلُ على أقْوامهمْ ويشْهدُ الرّسولُ ﷺ على الجميع ، هُنالك يتمنّى الّذينَ كفروا وعصوُا الرّسولَ ﷺ لوْ تُسوّى بهمُ الأرْضُ ، إنّهُمْ يودُّون في ذلك الوقْتِ ويتمنّوْنَ لوْ تنْشقُّ الارْضُ وتبْتلعُهُمْ ، أوْ يصيروا تُرابا تُسوّى بهمُ الأرْضُ ، وهذا هُو قوْلُهُ تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، حديث رقم ٤٣٠٦

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ النبأ ٤٠ ، إنّهمْ منْ هوْل هذا الموْقف ، ومنْ شدّة خوْفهمْ وفزَعِهمْ منْ مصيرهمُ الّذي عرفوا ، تمنوْا هذا الّذي تمنّوْهُ .

وهُمْ يوْمَ القيامةِ لا يكْتمون الله حديثا ، فهُمْ سيقفون بيْن يدي الله تعالى ، وسيعْترفون بما كان منْهُمْ في الدُّنْيا منْ شرْكٍ ، وبُعْد عن الله تعالى ، ومنْ عمل سيّءٍ وإفسادٍ في الأرْض ، فهُو سُبْحانهُ سوْف يخْتِمُ على أفْواهِهِمْ ، فتنْطِقُ جوارحهُمْ وتشْهدُ عليْهمْ أيديهمْ وأرجلُهُمْ ، وعنْد ذلك يتمنّوْن أنْ لوْ تُسوّى بِهِمُ الأرْضُ .

إنّ العاقِلَ هُو الّذي يعْتبرُ بحالِ هؤلاء المشْركين ، فيُخْلصُ عبادتهُ لله تعالى ، ولا يعْملُ إلاّ صالِحاً ، ويجْتنِبُ كُلّ ما نهى اللهُ تعالى عنْهُ ، حتّى لا يقف هذا الموْقف العظيم بيْن يدي الله ، فيفْضحُهُ اللهُ بيْنَ الخلائِقِ . اللّهُمّ لا تفْضحْنا بيْن الخلائق ولا بيْن يديْك ، اللّهُمّ آمين .

دُروسٌ وعِبرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منْها :

١ـ اللهُ تعالى مُنزّهٌ عن النّقْص ، فهُو لا يظْلمُ أحدا .

٢ـ منْ رحْمةِ اللهِ تعالى بعبادهِ أنّهُ يُضاعفُ الحسنات ، ولا يُجازي على السّيئة إلاّ بمثْلِها ، ويُعطي منْ فضله منْ شاء منْ عباده .

٣ـ لقدْ جعل اللهُ أُمّة محمّد أمة وسطا ، ليكونوا شُهداء على النّاس ، ويكون الرّسولُ عليْهمْ شهيداً .

التّقْويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قال اللهُ تعالى : ﴿إنّ الله لا يظْلمُ مثْقال ذرّة﴾ على ماذا يدُلُّ هذا ؟

٢ـ اللهُ سُبْحانهُ وتعالى يُضاعفُ الحسنات للإنْسان ، أمّا السّيئاتُ فلا يجزي عليْها إلاّ بمثْلِها ، على ماذا يدُلُّ ذلك ؟

٣ـ اشْرحْ قوْلهُ تعالى : ﴿ويُؤت من لّدُنْهُ أجرا عظيما﴾ .

٤ـ منِ الشّاهدُ الّذي يشْهدُ على ما كان يعْملُ الإنْسانُ في الدُّنيا ؟

٥ـ لماذا يتمنّى الكافرُ أنْ يكون تراباً يوْم القيامة ؟

٦ـ فسِّرْ كلاًّ من الآياتِ التّالية :

أ ـ ﴿وجئْنا بك علىٰ هؤْلاء شهيدا﴾

ب ـ ﴿لوْ تسوّىٰ بهمُ الأرْضُ﴾

نشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفْترِك حديثا قُدْسياً يُبيِّنُ أنّ الله حرّم الظُّلم على نفسه

٢ـ ما الّذي تسْتوْحيهِ مِنْ بُكاءِ الرّسولِ ﷺ عنْد قراءة هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ ؟ اكْتُبْ ذلك في دفترك

* * *

الدَّرسُ الرّابعَ عشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عشَرَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا
عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ
لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن
تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عَابِري سَبيلٍ	مُسافرين .
الغائط	المكانِ الّذي يقْضي فيهِ الإنْسانُ حاجتهُ .
لامَسْتُمُ النِّساءَ	جامعْتُموهُنَّ .
صَعيداً	وجْه الأرْض .
طيِّباً	لا نجاسة فيه ، أيْ : طاهرا .

التَّفسيرُ :

لقَدْ أمر اللهُ تعالى بعبادَتِهِ وعَدم الإشْراكِ بِهِ ، والإخْلاصِ لَهُ ، وشرعَ من العِباداتِ ما تُقرِّبُ العبْدَ إلى ربِّهِ ، فيكونُ طاهِرَ الرُّوح والجسْمِ ، ومنْ ذلكَ الصَّلاةُ والوُضوءُ .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

نهتِ الآياتُ المُسْلمَ أنْ يُصلّيَ وهُوَ في حالةِ سُكْرٍ ، وذلكَ لأنَّ منْ يكونُ سكرانا لا يُمكِنُهُ أنْ يخشعَ في صلاتِه ، ويُناجي ربَّهُ ، فهُوَ يخلِطُ في كلامِهِ كثيرا ، وقدْ يتفوّهُ بما يُؤدّي به إلى الكُفْرِ وهُوَ لا يَشْعُرُ .

ولكنْ هلْ معنى هذا أنَّ المُسْلِم يجوزُ لَهُ أنْ يَسْكَرَ خارِجَ الصَّلاةِ ؟ إنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ قبْلَ تحْريمِ الخمْرِ نهائيًا ، ونحْنُ نَعْلَمُ أنَّ القُرآنَ عندما نزَلَ أوّلَ مرّةٍ كانَ شُرْبُ الخمْرِ شائِعا بيْنَ النّاسِ ، وأنَّ القُرآنَ في العهْدِ المكيِّ كانَ يُعْنى بإرْساءِ العقيدةِ في نُفوسِ المُسْلمينَ ، حتّى يَسْتَعِدُّوا لقبولِ أيِّ حُكْمٍ شرْعيٍّ فيما بعْدُ ، وقدْ تدرّجَ القُرآنُ في تحْريمِ الخمْرِ ، فقدْ أُنْزِلَ في سورةِ البقرةِ ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] فقدْ بيّنَ للنّاسِ أنَّ في الخمْرِ آثاما كثيرةً ، ولكنّهُ لمْ يُحرّمْها ، ثُمَّ أنزلَ سُبْحانهُ هذهِ الآيةَ ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ فصاروا لا يشْربونَ الخمْرَ في أوْقاتِ الصّلاةِ ، ونحْنُ نعْلمُ أنَّ الصّلواتِ الخمْسَ منْها ثلاثةٌ لا يُمكِنُ شُرْبُ الخمْرِ بعْدَها حتّى لا يُصلّي وهو سكْرانُ ، وهي الظّهْرُ فالعَصْرُ فالمغْربُ ، وكلُّها متقاربةٌ فكانوا في هذهِ الأوْقاتِ لا يشْربونَ الخمْرَ حتّى لا يسْكروا . ثُمَّ أنْزلَ اللهُ تعالى تحْريماً نهائيا للْخمْرِ في سورةِ المائدةِ ، قالَ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] وقدْ الْتزمَ المُسْلِمونَ بذلكَ الأمْرِ .

التّيمُّمُ : ومنْ رحْمةِ اللهِ تعالى بعبادِهِ أنْ شرَعَ لهُمُ التّيمُّمَ عِوضاً عنِ الوُضوءِ والاغْتسالِ في حالةِ عدَمِ وُجودِ الماءِ ، أوْ عدمِ القُدْرةِ على اسْتعْمالِهِ . والتَّيمُّمُ لُغةً : القصْدُ ، وشرْعاً : القصْدُ إلى التُّرابِ لمسْحِ الوجْهِ واليديْنِ بهِ . وقدْ ذكرتِ الآياتُ بعْضَ الّذينَ يُباحُ لهُمُ التيمُّمُ :

١ـ ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ ﴾ ويُقْصدُ بهِ : المريضُ مرَضاً يُخافُ زيادتُه باسْتعمالِ الماءِ .

٢ـ ﴿ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أيْ : إذا كانَ الإنْسانُ مُسافِراً وليْسَ معَهُ ماءٌ يكْفي للشُّرْبِ والوُضوءِ ، أوْ كانَ هُناكَ مانِعٌ يمْنعُهُ منَ الوُصولِ إلى الماءِ .

٣ـ ﴿ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ ﴾ والغائِطُ : المكانُ الّذي يقْضي فيهِ الإنْسانُ حاجتَهُ ، والمقْصودُ به الحَدَثُ الأصْغرُ بخروجِ شيْءٍ منْ أحدِ السبيليْنِ ، كالبوْلِ والبرازِ .

٤ـ ﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ويُقْصدُ بهِ : الجماعُ .

وَقَدْ قُيِّدَتْ هذه كُلُّها بعدَمِ وُجودِ الماءِ ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ أيْ : إذا كُنْتُمْ على أيِّ حالةٍ ممّا ذُكِرَ ، فوَجَبَ عَلَيْكُمْ أنْ تتيمَّموا صعيداً طَيِّباً .

والتَّيمُّمَ يَكونُ بأنْ يَضْرِبَ المُسْلِمُ يدَيْه على التُّرابِ ويَمْسَحَ بهما وَجْهَهُ ، ثُمَّ يضربَ ثانيةً يَمْسَحُ بهما يدَيْهِ . وقَدْ خُتِمَتِ الآيةُ بقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فهُوَ سُبْحانَهُ لا يختارُ لعبادِهِ إلاّ ما يَتلاءَمُ ويتناسبُ مَعَهُمْ ، ولا يُكلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها ، وهُوَ غَفورٌ يَغْفِرُ لِمنْ قصَّرَ وأذْنَبَ متى تابَ ورجَعَ عَنْ ذَنْبِهِ .

إنَّ هَذِهِ الأَحْكامَ قَدْ شَرَعَها اللهُ تَعالى لأُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، فعلَيْهِمْ أنْ يَلْتَزِموا بها ، ولا يَكونوا مِثْلَ غَيْرِهِم مِنَ الأُمَمِ لِتُبَيِّنَ لنا حالَ أَهْلِ الكِتابِ الّذين كانَ مِنْهُمْ تَرْكٌ لِكتابِ اللهِ ، ونَبْذٌ لَهُ وراءَ ظُهورِهِمْ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

والهَمْزَةُ هُنا اسْتِفْهامٌ جاءَتْ للتَّعجُّبِ مِنْ حالِ أولئكَ ، أيْ : ألَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى ما كانَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، الّذين أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوراةَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَرَمَهُمُ اللهُ تَعالى الهدايةَ ؛ لأَنَّهُمُ اخْتاروا الضَّلالَةَ لأَنْفُسِهِمْ ، وقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوراةَ كلَّها وعَلَّمَهُمْ إيّاها ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَسوا حَظّاً كَبيراً ممّا ذَكَّرَهُمُ اللهُ بِهِ في التَّوْراةِ ، ولَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الكتابِ إلاّ القَليلُ ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّهُمْ قَدْ حرَّفوا هذا القَليلَ وبَدَّلوهُ وأَخْضَعوهُ لأَهْوائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ .

إنَّهُمْ قَدِ اخْتاروا الضَّلالَةَ عَلى الهِدايَةِ الّتي جاءَ بِها مُحمَّدٌ ﷺ ، وهُمْ لَمْ يَكْتَفوا بِذلِكَ ، بَلْ يُريدونَ لِلْمُسْلِمينَ أنْ يَتركوا دينَهُمُ الحَقَّ ، ويَتَّبِعوهُمْ في ضَلالِهِمْ وكُفْرِهِمْ .

وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تُحذِّرُ المُسْلِمينَ مِنْهُم ، فقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

أيْ : هُوَ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِأَعْدائِكُمْ وما يُبَيِّتونَ لَكُمْ مِنْ شُرورٍ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَحْذَروهُمْ ولا تَلْتَفِتوا إلى أَقْوالِهِمْ ، إنَّهُمْ يَكيدونَ لَكُمْ في الخَفاءِ ، ويَغُشُّونَكُمْ في الجَهْرِ ، حَيْثُ يُظهِرونَ لَكُمُ الوَلاءَ والنُّصْرَةَ ، واللهُ أعْلَمُ بما في قُلوبِهِمْ مِنَ العَداوَةِ والبَغْضاءِ . وكَفى باللهِ وليّاً يَتولّى أُمورَكُمْ ويُصْلِحُ بالَكُمْ ، وكَفى بِهِ نَصيراً يَدْفَعُ عَنْكُمْ كُلَّ مَكْروهٍ وشَرٍّ . ولِذا عَلَيْكُمْ باتِّباعِ السُّنَنِ الّتي وَضَعَها لَكُمْ ربُّكُمْ ، والّتي مِنْها عَدَمُ الاسْتِعانَةِ بالعدوِّ ، فَهُمْ لا يَعْمَلونَ إلاّ لمصالِحِهِمُ الخاصَّةِ . وها هُمْ أَهْلُ الكُفْرِ في زَمانِنا هذا يَسْعَوْنَ لِمصالِحِهِمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَنَحْنُ نَثِقُ بِهِمْ ، ونَسْتَعينُ بهِمْ في كُلِّ أُمورِنا ، ولا نَسْتَطيعُ أنْ نَخْطوَ خُطوةً دونَ عِلْمٍ مِنْهُمْ ، أوْ أَمْرٍ . فَكَيْفَ يَسْتَقيمُ حالُنا هذا مَعَ أمْرِ اللهِ وتَوْجيهِهِ ، فالأَصْلُ أنْ نَتولّى اللهَ تعالى ، وكَفى بِهِ وليّاً وكَفى بِهِ نَصيراً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنها :

١ـ حثُّ الإسلامِ المُسلمينَ على إقامةِ الصَّلاةِ في حالةِ الحُضورِ العقليِّ، وخُشوعِ القَلْبِ والجَوارحِ .

٢ـ لا تَصِحُّ الصَّلاةُ إلاّ بالطَّهورِ .

٣ـ في حالةِ فَقْدِ الماءِ ، أوْ عَدَمِ القُدْرَةِ على اسْتِعْمالِهِ ، يُباحُ للإنْسانِ التَّيمُّمُ .

٤ـ وُجوبُ الْتِزامِ المُسْلِمِ بِما في كِتابِ اللهِ ، وعَدَمُ مُوالاةِ الكافِرينَ واتِّباعِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيَّنَتْ آياتُ القُرآنِ كَيْفَ تَمَّ تحريمُ الخَمْرِ :

أ ـ وضِّحْ ذلكَ مؤيِّداً إجابَتَكَ بِدَليلٍ .

ب ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هذا التَّدرُّجِ في تَحريمِ الخَمْرِ ؟

٢ـ أ ـ عرِّفِ التَّيمُّمَ .

ب ـ اذْكُرْ أرْبَعةً مِمَّنْ يُباحُ لَهُمُ التَّيمُّمُ .

ج ـ بيِّنْ كَيفيَّةَ التَّيمُّمِ .

٣ـ ذكرَتِ الآياتُ الكريمَةُ وَصْفاً قَبيحاً لأَهْلِ الكِتابِ ، اذْكُرْ هذا الوَصْفَ .

٤ـ حذَّرتِ الآياتُ الكَريمةُ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، اذْكُرْ دَليلَ ذلِكَ .

٥ـ فسِّرْ معنى كُلٍّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ ﴿جاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ .

ب ـ ﴿لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ .

ج ـ ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً﴾ .

د ـ ﴿الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ .

هـ ـ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيراً﴾ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ وَصْفاً لِسُرْعَةِ استِجابةِ المُؤْمنينَ للهِ تعالى عِنْدَ تحريمِ الخمْرِ في المدينة .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفيَّةَ الغُسْلِ مِنَ الجَنابَةِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفيَّةَ التَّيمُّمِ ، مُؤَيِّداً ذلكَ بِحَديثٍ شريفٍ .

الدَّرسُ الخامِسَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ
وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا
نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ
أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الّذين هادوا : اليهودِ .

راعِنا : ارقبْنا وانظُرْنا .

ليّاً بألْسِنَتِهِمْ : فَتْلاً بها وتَحْريفاً .

طَعْناً : قَدْحاً فيه .

أقوَمُ : أعْدَلُ .

نَطْمِسَ : نُزيلَ أثَرَهُ .

التَّفسيرُ :

بَدَأَتِ الآياتُ في الدَّرْسِ السَّابِقِ الحَديثَ عَنْ أهْلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ ، وجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَذْكُرَ بَعْضَ أَقْوالِهِمْ وأعْمالِهِمُ القَبيحَةِ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

أيْ : مِنْ هَؤلاءِ اليَهودِ فَريقٌ يُحرِّفونَ كَلامَ اللهِ تعالى ، وذَلِكَ بأنْ يُؤوِّلوهُ بغيْرِ معْناهُ ويقولوا خِلافَ ما أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ ، ومِنْ ذَلِكَ :

١ـ أنَّهُمْ كانوا يُبدِّلونَ لَفْظاً بلَفْظٍ آخَرَ .

٢ـ أنَّهُمْ كانوا يُلْقونَ الشُّبَهَ الباطِلَةَ ، ويَصْرِفونَ اللَّفظَ عَنْ مَعناهُ الحقِّ إلى مَعْنى باطِلٍ .

٣ـ أنَّهُم خَلَطوا في كُتُبِهِمْ ما أُثِرَ عَنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ بما كُتِبَ بَعْدَه بزَمنٍ طَويلٍ .

ومِنْ هذا التَّأويلِ والتَّحْريفِ ما كانَ مِنْهُمْ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أيْ : يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ سَمِعْنا قَوْلَكَ وعَصَيْنا أمْرَكَ ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أيْ : يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ وَهُوَ يُخاطِبُهُمْ ويَتَحدَّثُ مَعَهُمْ لا سَمِعْتَ مَكْروهاً ، وهذا لا شَكَّ كلامٌ طيِّبٌ ولكنَّهُمْ يَقْصِدونَ مَعْنىً آخرَ مِنَ الكَلِمَةِ ، وهُوَ الدُّعاءُ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، أيْ : لا أَسْمَعَكَ اللهُ تَعالى أبداً ، أوْ لا أَسْمَعكَ كَلاماً طيِّباً تَرْضاهُ . ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ وكَلِمَةُ : راعِنا ، تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ :

الأَوَّلُ : وهُوَ مَعْنىً خَيِّرٌ ، وهوَ : انْظُرْنا وأَمْهِلْنا .

والثاني : مَعنى فيهِ الحِقْدُ والشَّرُّ للنَّبيِّ ﷺ ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنَ الرُّعونةِ بمَعْنى : الحُمْقِ ، ففيها مَسَبَّةٌ للنَّبيِّ ﷺ .

وهُمْ لاشَكَّ لا يَقْصِدونَ المَعْنى الأَوَّلَ ، بَلْ يَقْصِدونَ المَعْنى الثّاني . لَقَدْ كانوا يَسْمَعونَ الصَّحابَةَ يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ : راعِنا بمَعْنى : انْظُرْنا وأَمْهِلْنا ، فَصاروا يَنْطِقونَ الكَلِمَةَ نُطْقاً مُنْحرِفاً لِيَصْرِفوها عَنْ مَعناها وهُمْ يُريدونَ القَدْحَ في دينِ اللهِ والاسْتِهزاءَ برَسولِهِ ﷺ ، ولِذَلِكَ فَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أنْ يَقولوا راعِنا ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَقولوا بَدَلاً مِنْها : انْظُرْنا .

ومِنَ ذَلِكَ ما ثَبَتَ في الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّهُمْ كانوا يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ السّامُ عَلَيْكُمْ ، بَدَلاً مِن السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، ومَعنى السّام : الموتُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ .

إنَّ هَؤلاءِ اليَهودَ لَوْ كانوا يَعْقِلونَ لَقالوا كَلاماً طَيِّباً للرَّسولِ ﷺ فَلَوْ أنَّهُمْ قالوا للنَّبيِّ ﷺ سَمِعْنا قَوْلَكَ وأَطَعْناهُ ، وقالوا لَهُ : اسْمَعْ إجابَتَنا ، واسْمَعْ ما نَقولُهُ لَكَ ، وقالوا انْظُرْنا أيْ : أَمْهِلْنا وانتظِرْنا ولا تَعْجَلْ عَلَيْنا حتّى نَتَفهَّمَ ما تَقولُ ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ، لِما في ذَلِكَ مِنَ الأَدَبِ والفائدَةِ وحُسْنِ العاقِبَةِ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَكونوا كَذلِكَ ، ولِذلِكَ لَعَنَهُمُ اللهُ تَعالى وطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ إلاّ إيْماناً قَليلاً لا يُعْتَدُّ بِهِ ، ولا يُغْني عَنْهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ شَيْئاً .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِمُناداةِ أَهْلِ الكِتابِ وإلْزامِهِمْ بالإيمانِ بما جاءَ بِه النَّبيُّ ﷺ ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ .

يا أيُّها اليَهودُ والنَّصارى آمنوا بالكِتابِ الّذي نَزَّلْناهُ مِنْ عِنْدِنا ، والذي جاءَ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ تَقْريرِ عَقيدةِ التَّوْحيدِ وتَحريمِ الشِّرْكِ ، ومِنْ نَهْيٍ عَنِ الفواحِشِ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ ، فَقَدْ جاءَ القُرْآنُ يَدعو لِما كانَتِ التَّوْراةُ والإنْجيلُ تَدعوانِ إليه مِنْ أُصولِ الدينِ ، وعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَحلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي ، وينزلَ عَلَيْكُمْ عِقابي ، والطَّمْسُ هُنا معنَويٌّ ، أيْ : مِنْ قَبْلِ أنْ نُعمِيَ عَلَيْكُمْ سَبيلَ الحَقِّ ، فلا تُبْصِرونَهُ ونُبصِّرَ المُؤْمِنينَ بِشُؤونِكُمْ فَيَنْتَصِرونَ عَلَيْكُمْ . أيْ : نُعْميكُمْ عَنِ الحَقِّ ونُرْجِعُكُمْ كُفّاراً ، وقَدْ نَصَرَ اللهُ المُؤْمنينَ عَلى اليَهودِ ، وقَدْ رَدَّ بَني قَيْنُقاعَ وبَني النَّضيرِ عَلى أدْبارِهِمْ فَأَجْلاهُمْ إلى فِلَسْطينَ والشّامِ ، وأخْرَجَهُمْ مِنْ جَزيرةِ العَرَبِ . أو يَكونُ الطَّمْسُ عَلى الحقيقةِ .

وبَيَّن سُبْحانَهُ عُقوبةً أُخْرى يُمْكِنُ أنْ تَحِلَّ بِهِمْ إذا لَمْ يُؤْمِنوا ، أيْ : آمِنوا قَبْلَ أنْ نَلْعَنَكُمْ بالطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالى ، كَما لَعَنّا مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنَ اليَهودِ وَهُمْ أصْحابُ السَّبْتِ .

وَقَدْ هَدَّدَهُمُ اللهُ تعالى وتَوعَّدَهُم بِقَوْلِه : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ لا رادَّ لِحُكْمِهِ ، ولا مُعقِّبَ لأَمْرِهِ ، فما أرادَهُ اللهُ تعالى وما أَمَرَ بِهِ كانَ نافِذاً لا مَحالةَ ، وأنْتُمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ تَعالى تَوعَّدَ الأُمَمَ السابِقَةَ وَوَقَعَ ما توعَّدَهُمْ بِهِ مِنْ عَذابٍ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَحذَروا وعيدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

إنَّ مِنْ أعْظَمِ ما يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ ذَنْبٍ هُوَ إشْراكُهُمْ مَعَ اللهِ تعالى ، ولِذا بيَّنَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَغْفِرُ لأيِّ كافِرٍ ماتَ عَلى كُفْرِهِ ، ولكِنَّهُ يَغْفِرُ ما دونُ الكُفْرِ مِنَ الذُّنوبِ والمَعاصي لِمنْ شاءَ أنْ يَغْفِرَ لَهُ . لَقَدْ حَدَّثَنا القُرْآنُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ اتَّخذوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أرْباباً مِنْ دونِ اللهِ ، وأنَّهُمْ قالوا : إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مريمَ ، وأنَّهُمْ قالوا : إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ ، وأنَّهُمْ قالوا : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وأنَّهُمْ وَصَفوا اللهَ تَعالى بِصِفاتِ البَشَرِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يتألَّمُ ويَتَوجَّعُ ويُصارِعُ ، تَعالى اللهُ عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيراً ، وهذا كُلُّهُ كُفْرٌ وشِرْكٌ باللهِ تَعالى لا يَغْفِرُهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

إنَّ مَنْ كَفَرَ باللهِ تَعالى وأَشْرَكَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، فَقَدِ ارْتَكَبَ آثاماً لا يُمْكِنُ أنْ تُغْفَرَ لَهُ ، لأنَّهُ بهذا الإشْراكِ قَدِ افترَى الكَذِبَ العَظيمَ عَلى اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ حُسْنُ الأدَبِ مع اللهِ تعالى ، ومع رسولِه ﷺ ، والحِرْصُ على أنْ لا يخرُجَ مِنَ اللّسانِ إلاّ الكَلامُ الطّيّبُ .

٢ـ الالْتِزامُ بأوامرِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى ، والانْتِهاءُ عنْ نواهيهِ حتّى لا يَعُمّنا اللهُ تعالى بعقابٍ شديدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

٣ـ إنَّ ما نَراهُ مِنْ حالِ المُسْلمينَ اليَوْمَ مِنْ ضَعْفِهِمْ وخَوَرِهِمْ وشُعورِهِمْ بالهزيمة والخذلانِ ، ما هُوَ إلاّ أثرٌ مِنْ آثارِ عِقابِ اللهِ تعالى ، بسَببِ ابْتِعادِهِمْ عَنْ دينِ اللهِ .

٤ـ الابْتِعادُ عَنْ كُلِّ ما يُؤدّي إلى الشِّرْكِ ، والمُسارعةُ إلى التّوْبَةِ من الذُّنوبِ الّتي يُذْنِبُها العبْدُ ليَغْفِرَها لَهُ سُبْحانَهُ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى المُفْرَداتِ التّاليةِ :

الّذينَ هادوا ، راعِنا ، أقْوَم ، نَطْمِس ، واسْمَعْ غيْرَ مُسمعٍ .

٢ـ قالَ تعالى : ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ تحْتَمِلُ كلمةُ راعنا معنيينِ ، اذْكُرْهُما .

٣ـ كيْفَ كانَ يُسَلِّمُ اليَهودُ عَلى الرّسولِ ﷺ ؟

٤ـ لِمَ طَرَدَ اللهُ اليَهودَ مِنْ رَحْمتِهِ ولعَنَهُمْ ؟

٥ـ عَدِّدْ ثلاثةً مِنْ أعْمالِ اليَهودِ لتَحْريفِ كتابِهِمْ

٦ـ فَسِّرْ كُلاًّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ .

ب ـ ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ .

ج ـ ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ .

د ـ ﴿افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .



١ـ هات الآية الّتي تنهى المؤْمنين عنْ قوْل كلمة (راعنا) واستبْدالها بـ (انظرْنا) واكْتبْها في دفترك .

٢ـ اكْتبْ في دفْترك آية سورة البقرة الّتي تبيّنْ ما أمر به اليهودُ عند دُخول القرْية ، وماذا قالوا ؟

٣ـ منْ همْ أصْحابُ السّبْت ؟ وماذا فعلوا حتى استحقّوا لعْنة الله ؟ اكْتبْ ذلك في دفْترك .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ
ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ
سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **يُزَكُّونَ أنْفُسَهُمْ** : يَمْدَحُونَها ويصِفونَها بالتَّقْوى والصَّلاحِ .
- **يُظْلَمونَ** : الظُّلْمُ : تَجاوزُ الحُدودِ بنَقْصٍ أوْ زيادةٍ .
- **فتيلاً** : الفتيلُ : ما يَكونُ في شِقِّ التَّمْرِ كالخَيْطِ ، ويُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في الشَّيْءِ الحَقيرِ .
- **لا يُظلَمونَ فتيلاً** : لا يُنْقَصُ مِنْ أعْمالِهِمْ مِقْدارُ خَيْطِ نَواةِ التَّمْرِ .
- **الجِبْتِ** : الخُرافاتِ والدَّجَلِ والسِّحْرِ وكُلِّ باطِلٍ .
- **الطّاغوتِ** : ما تَكونُ عبادَتُهُ سَبَباً للطُّغيانِ وهُوَ الشَّيْطانُ ، وكُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ .
- **نَقيراً** : نُقْطَةٌ صَغيرةٌ تَكونُ على نَواةِ حَبَّةِ التَّمْرِ .
- **يَحسُدونَ** : يتمنَّوْنَ زوالَ النِعْمَةِ عَنِ الآخَرينَ .



التَّفْسِيرُ :

ما زالتِ الآياتُ تتحدثُ عنْ قبائحِ أهْلِ الكتابِ ، قال اللهُ تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

والهَمْزةُ هُنا للاسْتفْهامِ الّذي يُفيدُ التَعجُّبَ مِنْ حالِ أُولئكَ . يَقولُ سُبْحانَهُ وتعالى : انظرْ وتعجّبْ مِنْ حالِ أولئكَ الّذين يَزْعُمون أنّهمْ مُطهّرون بررةٌ عندَ اللهِ تعالى ، معَ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ العظيمِ ، فهم هُمْ يقولون : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠] ويقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ويقولون : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة : ١١١] فَهُمْ يمْدحون أنْفُسَهُمْ مع أنّهمْ لا يستحقّون إلاّ الذّم بسببِ سوءِ أقوالِهمْ وأفْعالِهمْ ، ولذلكَ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بقوْلِهِ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ حيثُ أبْطلَ ما يقولون ، فالتّزْكيةُ إنّما هِيَ شَهادةٌ مِنَ اللهِ تعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُزكّي منْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ مِنْ أيِّ جِنْسٍ ولوْنٍ ، ومِنْ أيِّ قبيلةٍ كانَ ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَظْلِمُ أحدا مِنْ خلْقهِ شيْئا ، ولو كانَ قليلا بمقدارِ خيْطِ نواةِ التّمْرِ ، فهؤلاءِ الّذينَ يُزكُّونَ أنْفُسَهُمْ سيُعاقبُهُمُ اللهُ العِقابَ الّذي يسْتحقّونَ في الدُّنْيا والآخرةِ .

وقدْ أكّدَ اللهُ سُبْحانهُ تعالى التعجُّبَ مِنْ أهْلِ الكتابِ فيقولُ سُبْحانهُ :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

أيْ : انْظُرْ أيُّها العاقِلُ كيْفَ يفْترون الكذبَ على اللهِ تعالى في تزْكِيتِهِمْ لأنْفُسِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ ، وكَفى بهذهِ التَّزْكِيةِ إثْما مُبينا ظاهِرا ، يسْتحقّونَ بسببِهِ أشَدَّ العُقوباتِ .

ويذْكُرُ سُبْحانهُ لوْنا آخرَ منْ قبائحِهِمْ ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ .

يُبيّنُ اللهُ تعالى حالَ هؤلاءِ الّذي يدْعو إلى العَجَبِ ، فقدْ أعْطاهُمُ اللهُ تعالى حَظّاً مِنْ عِلْمِ الكِتابِ ـ أيْ : التّوراةِ ـ فَعرفوا أنّه لا يجوزُ عبادةُ أيٍّ مِنَ المخْلوقاتِ ، ولكنّهُمْ مَعَ ذلكَ حُرموا مِنْ هِدايةِ الكتابِ ، وهدايةِ الفِطْرَةِ والعَقْلِ ، وآمنوا بالخُرافاتِ والسِّحْرِ والدّجلِ وكُلِّ باطِلٍ ، وصَدّقوا بالأَصْنامِ والأَوْثانِ الّتي عُبدتْ منْ دونِ اللهِ تعالى ، فهاهُمْ يقولونَ لِلّذينَ كفَروا مِنْ عَبَدَةِ الأَصْنامِ الذين بُعِثَ إليْهِمُ النّبيُّ ﷺ إرْضاءً لَهُمْ ، بأنّهُمْ أرْشَدُ وأحْسَنُ ممّا جاءَ بِهِ محمّدٌ . ورُوِيَ أنّهُمْ قالوا للْمُشْرِكينَ : أنتُمْ خيْرٌ وأهْدى .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

إنَّ أولئك الّذين استحوذ عليهمْ الشيطانُ ، وجعلهمْ يقولون للمشركين إنّهم خيرٌ من المؤمنين ، لعنهُمْ اللهُ تعالى ؛ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ، ومن يُبعدْهُ اللهُ تعالى من رحمته فلنْ ينصرهُ أحدٌ منْ دون الله .

ومنْ قبائحهمْ كذلك تخلّقهمْ الشّديدُ ، قال تعالى

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وأمْ هذه تُسمّى المنقطعة وتكون بمعنى بل ، لقد انتقل القرآن من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطّاغوت ، وتفضيلهمْ المشركين على المؤمنين ، إلى توبيخهمْ على بُخلهم ، فيقولُ سُبحانهُ عنْهُمْ : إنّهُمْ ليْس لهُمْ نصيبٌ من الملك أبدا فهُمْ لا يستحقّونهُ ، لأنّهُم فقدوهُ بظُلمهمْ وطُغيانهمْ ، وإيمانهمْ بالجبْت والطّاغوت ، ولو أعطاهمْ اللهُ نصيبا من المُلك ، فهُمْ لشدّة حرْصهمْ وبُخلهمْ لا يُعطونَ أحدا منْهُ شيئا ولو كان قليلا كمساحة النّقطة التي تكون على نواة التّمر . إنَّ اليهود يتّصفون بالبُخل الشّديد ، وهُم إن صار لهم مُلكُ الدُّنيا كُلّها تجدهُم حريصين على منع النّاس أقلّ النّفْع وأحْقرهُ .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ .

ثُمّ انتقلت الآياتُ لتوبيخ اليهود على صفة سيئة من صفاتهم وهي الحسدُ ، هذه الصّفةُ الّتي أضلّتهُمْ ، وجعلتْهُمْ لا يُحبّون الخير لغيرهم ويتمنّون زوال كُلّ نعيم عنهُم ، فيقولُ سُبحانه : إنّ هؤلاء اليهود ليْسوا بُخلاء فقط ، بل إن من أقبح صفاتهم حسدهُمْ النّبيّ ﷺ ، فهُمْ لا يُحبّون أنْ يكون لهُمْ فضلٌ على أحد . وقد رأوا أن الله قد جعل لهُمْ دولة وقوّة ، وقد صار لهُمْ أعوانٌ وأنْصارٌ .

إنَّ هؤلاء اليهود لا يعقلون ، وذلك أنّهم يعلمون علم اليقين أنّ الله تعالى قد آتى آل إبراهيم ومنْهُمْ : إسحاقُ وإسماعيلُ وغيرُهم عليهمْ الصّلاةُ والسّلامُ ؛ آتاهُمْ الكتاب والعلم النّافع ، وآتاهُم سُلْطاناً عظيما ، ومع ذلك فهُم لم يحسدوهم ، ولم يعجبوا ممّا آتاهُمْ اللهُ ، فمنْهُمْ من آمن بما آتاهُ اللهُ لآلِ إبْراهيم ، ومنهُم من كفر به وأعرض عنْهُ . وفي هذا تسليةٌ للنّبيّ ﷺ ، فهُم قد اختلفوا في أنْبيائِهمْ فآمن بعْضُهُمْ وكفر آخرون ، فكيْف تنتظرُ منهُمْ يا مُحمّدُ أنْ يُؤمنوا بك ويتّبعوك ؟ إنّ مصير هؤلاء يا مُحمّدُ نارُ جهنّم يحترقون بسعيرها ولهيبها ، فما عليْك إلاّ أنْ تتحلّى بالصّبر لما تُلاقيه منْهُمْ منْ أذى وجُحود .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ إنّ الله تعالى يجزي كلّ عاملٍ للخير حسب عمله .

٢ـ على المُسلمين أن يحذروا من الغُرور ، والحسد ، ولا يكونوا مثل أهل الكتابِ .

٣ـ التحذيرُ من البُخلِ والشُّحِ والأنانيّة ، تلك الصّفات الّتي يتصفُ بها أهلُ الكتابِ .

التّقويمُ :

أجبْ عن الأسئلة التّالية :

١ـ قال تعالى : ﴿ألمْ ترَ إلى الّذين يُزكّون أنفسهم﴾ ، ما معنى قول الله سُبحانهُ يُزكّون أنْفُسهُمْ ؟ ولم نسب التّزْكية إليه وحْدهُ ؟

٢ـ اشرحْ قوْلهُ تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

٣ـ عدّدْ ثلاثًا من القبائح الّتي وصف اللهُ تعالى بها اليهود .

٤ـ فسّرْ معاني المُفردات الآتية :

الجبْت ، الطّاغوت ، فتيلا ، نقيرا ، صدّ .

٥ـ ماذا قال اليهودُ لأهْل مكّة عندما سألوهم عن الدّين الحقّ ؟ وعلى ماذا يدُلُّ ذلك ؟

نَشاطٌ :

١ـ إذا كان الإنسانُ منهيًا عنْ مدْح نفسه وتزكيتها ، فهل يجوزُ لهُ أن يُزكّي غيْرهُ ؟ اكْتُبْ حديثًا شريفًا يدُلُّ على ذلك .

٢ـ اكْتُبْ في دفْترك حادثة تدُلُّ على حسد اليهود للنّبيّ ﷺ .

٣ـ اجْمعْ في دفْترك الآيات الّتي تُبيّنُ ظُلْم اليهود وتطاولهم على :

أـ الله تعالى . ب ـ رسول الله ﷺ .

ج ـ دين الله تعالى . د ـ المُسلمين .

الدَّرسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السّابِعَ عَشَرَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ
ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا
يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ
فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نُصْليهِمْ : نَشْويهِمْ بالنّارِ .

عَزيزاً : قادِراً غالباً لا يغْلِبُهُ أحدٌ .

الأماناتِ : الأشياءَ الّتي تُحفَظُ لتُؤَدّى إلى أَصْحابِها .

العَدْلِ : إيصالِ الحَقِّ إلى صاحِبِهِ .

فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ : اطْلُبوا حُكْمَهُ مِنْ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ مَنْ آمَنَ بِما أُوتِيَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وذُرِّيَّتُهُ ، ومِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ ، فما مَصيرُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ ؟ قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ الكافِرينَ الّذين جحدوا بآياتِ الله تعالى قدْ أعدَّ اللهُ لهُمْ نارا مُستعِرة تشْويهِمْ وتحْرقُ أجْسامَهُمْ ، وقَدْ جاءَتْ كلِمَةُ (سَوْفَ) للتَّهديدِ وتأْكيدِ العذاب .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ أيْ : كُلّما احْترقتْ جُلودُهُمْ وتلاشَتْ بدّلْنا الجُلودَ المَحْترِقَةَ جُلوداً أُخْرى جديدةً ، لتَحْترِقَ مرّةً أُخْرى ، وهذا كنايةٌ عَنْ دوامِ العَذابِ لهُمْ .

وقَدْ ذَكرَ العُلَماءُ أنَّ في هذهِ الآيةِ إعْجازا عِلْمياً ، إذْ إنّهُ سُبْحانهُ وتعالى ذكرَ الجُلودَ عِنْدَ ذِكْرِ العَذابِ لأنَّ اللهَ جَعَلَ فيها مَواضِعَ الإحْساسِ ، ولِذا نجدُ الأَطِبّاء عِنْد إجْراءِ عَمليّةٍ جراحيّةٍ لإنْسانٍ ما ، يُعْطونَهُ حُقْنَةً مُخَدِّرَةً تَحْتَ الجِلْدِ ، فلا يَحُسُّ الإنْسانُ بالألَمِ عِنْدَ شرْطِ جِلْدِهِ . فالأعْصابُ الّتي فيها الإحْساسُ بالألَمِ إنّما هِيَ في جِلْدِ الإنْسانِ ، ولِذا فإنّهُ سُبْحانهُ يُعذِّبُ الكافِرينَ بحَرْقِ جُلودِهِمْ ، وكُلَّما احْتَرَقَتْ أعْطاهُمْ جُلوداً صَحيحَةً ، لِتَحْترِقَ مَرَّةً أُخْرى ، وهَكذا ليَذوقوا العَذابَ ، وليَسْتَمِرَّ تَعذيبُهُمُ الّذي يَسْتَحِقُّونَ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهْوَ سُبْحانهُ عزيزٌ قادِرٌ لا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمّا تَوَعَّدَ بِهِ سُبْحانَهُ ، حَكيمٌ لا يُعذِّبُ أحَداً إلاّ بما يَسْتحِقُّ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ مَصيرَ الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ وصَدَّقوا برسولِهِ ﷺ ، فَهؤلاءِ سَيُدْخِلُهُمْ اللهُ تَعالى جَنّاتٍ يَتَمتَّعونَ بنَعيمِها العَظيمِ ، ولهُمْ فيها أزْواجٌ مُطَهَّراتٌ مِنَ العُيوبِ ، وسَيَجْعَلُهُمْ اللهُ تَعالى في مَكانٍ لا حَرَّ فيهِ ولا بَرْدَ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِبيانِ بَعْضِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ الّتي كانتْ مِنْ هَؤلاءِ المُؤْمنينَ :

أولاً – أداءُ الأمانة : الأَمانةُ هِيَ كُلُّ ما يَأْتَمِنُكَ عَلَيْهِ غَيْرُكَ مِنَ الأُمورِ الماديّةِ أوِ المَعْنَويّةِ ، وقَدْ تَكونُ تِلْكَ الأَمانةُ أوْ ذَلِكَ العَهْدُ مَعَ اللهِ تَعالى ، وأَداؤُها يَكونُ بالعَمَلِ بما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، والانْتِهاءِ عمّا نهى عَنْهُ سُبْحانَهُ .

وقدْ تكونُ الأمانةُ مع النّاس ، وذلك مثلُ الودائع والأسْرار ، وأداؤها يكونُ بردِّ الودائع لهُمْ ، وعدم الغِشِّ والخيانة لهُم . وقدْ جاءت الآيةُ لتحُثَّ المُؤمنين على أداء ما أئتُمنوا عليه منْ علم وودائع وأسْرار .

ثانياً الحُكْمُ بالعَدْلِ ويأْمرُ اللهُ تعالى المُؤمنين أنْ يجْعلوا أحْكامهُمْ قائمة على العدْل والحقِّ ، ودفْع الظُّلْم . وقدْ أقام اللهُ تعالى مُلْكهُ على هذيْن الأمْريْن : الحقِّ والعدْل ، وذلك لأنَّ الأحْكام إذا صاحبها الجوْرُ والظُّلْمُ أدّتْ إلى شقاء الأفْراد والجماعات ، وإلى ضياع الحُقوق وفساد النّاس .

ويقولُ سُبْحانهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ فقدْ أمركُمْ بأداء الأمانة وبالحُكْم بالعدْل ، ومدح ما أمركُمْ به ، فنعْم الشّيْءُ الّذي يعظُكُمْ به سُبْحانهُ ، فهُو لا يعظُكُمْ إلاّ بما فيه صلاحُكُمْ وسعادتُكُمْ في الدُّنْيا والآخرة ، ولذا عليْكُمْ أيُّها المُؤْمنون أنْ تعْملوا بأمْر الله تعالى ووعْظه ، فهُو سُبْحانهُ سميعٌ لما يصْدُرُ منْكُمْ منْ حُكْم سواءٌ أكان فيه عدْلٌ أمْ ظُلْمٌ للآخرين ، وهُو بصيرٌ بمنْ يُؤدّي الأمانات إلى أصْحابها ، أوْ يكْتُمُها ويخونُها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

وتنْتقلُ الآياتُ لتأْمُر المُؤمنين بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ وهُما مُتلازمتان ، ومعنى طاعتهما : الالْتزامُ بأوامرها واجْتنابُ نواهيهما .

وتأْمُرُهُمْ بطاعة أُولي الأمْر ، وهُمُ الأُمراءُ والحُكّامُ ورُؤساءُ الجُنْد ، فهؤلاء يجبُ على المُؤْمنين طاعتُهُمْ ، ولكنْ في غيْر معْصية الله تعالى ، فإذا أمروا بما يتنافى مع شرْع الله تعالى ، فلا يجوزُ لأحد طاعتُهُمْ .

وقدْ قال سُبْحانهُ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ليُبيِّن أنَّ طاعة الرّسول ﷺ مُسْتقلّةٌ أيْ : يجبُ طاعتُهُ ، حتّى في الأُمور الّتي لمْ تردْ في كتاب الله تعالى ، ولكنّها وردتْ في سُنّته ﷺ ، أمّا أُولو الأمْر فطاعتُهُمْ مُنْدرجةٌ في طاعة الرّسول ﷺ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ وبيّن سُبْحانهُ ما الّذي يجبُ على المُؤْمنين إذا حدث فيما بيْنهُمْ نزاعٌ واخْتلافٌ ، وأنّ الواجب عليْهمْ أنْ يرْجعوا إلى كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ ، وقدْ قال ﷺ : (ما نهيْتُكُمْ عنْهُ فاجْتنبوهُ ، وما أمرْتُكُمْ به فافْعلوا منْهُ ما اسْتطعْتُمْ ، فإنّما أهْلك منْ كان قبْلكُمْ كثْرةُ مسائلهمْ واخْتلافُهُمْ على أنْبيائهم)[1] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ، حديث رقم ١٣٣٧

إنكمْ أيُّها النّاسُ إنْ كُنتمْ تؤْمنون باللهِ واليوْمِ الآخرِ ، فارْجعوا في أمورِكُمْ جميعِها إلى كتابِ الله تعالى وسُنّةِ نبيّهِ ﷺ . لأنَّ ذلك خيْرٌ لكُمْ وأحسنُ تأْويلا وتفْسيرا منْ تأْويلاتكُمْ البعيدةِ عنْ شرْعِ الله تعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ لقدْ أعدَّ اللهُ تعالى عقابا عظيما للكافرين ، وفي المُقابلِ أعدَّ نعيما عظيما للمؤْمنين به .

٢ـ الحثُّ على أداءِ الأمانةِ ، والحُكْمِ بيْنَ النّاسِ بالعدْلِ والحقِّ .

٣ـ الحثُّ على طاعةِ اللهِ تعالى وطاعةِ الرّسولِ ﷺ في كلِّ أمْرٍ ونهْيٍ .

٤ـ إطاعةُ أولي الأمْرِ واجبةٌ ، ما دامتْ طاعتُهُما ليْستْ في معْصيةٍ .

٥ـ الواجبُ على المُسْلمينَ إذا تنازعوا في أيِّ أمْرٍ واختلفوا فيه أنْ يرجعوا إلى كتابِ الله تعالى وسُنّةِ نبيِّهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ماذا تُفيدُ كلمةُ (سوْفَ) في قوْلِه تعالى : ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نارا﴾ ؟

٢ـ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ في هذهِ الآيةِ إعجازٌ علْميٌّ اذْكرْهُ مع الشّرْحِ .

٣ـ اذْكرْ عمَليْنِ منَ الأعْمالِ الصّالحةِ التي للمُؤْمنِ .

٤ـ لِمَ أمرَ اللهُ بالعدْلِ بيْنَ النّاسِ ؟ وما فائدةُ ذلك ؟

٥ـ ماذا تسْتفيدُ منْ قوْلِه تعالى : ﴿أطيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرّسُولَ﴾ ؟

٦ـ يُبيِّنُ اللهُ تعالى المَصْدرَ الّذي نتحاكمُ إليهِ عنْدَ الاختلافِ . ما هذا المصدرُ ؟ وما دليلُ ذلك ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يَكونُ عَذابُ أَهْلِ النّارِ بِما يَشْرَبونَهُ مِنْ حَميمٍ وغَسّاقٍ مَعَ ذِكْرِ الدَّليلِ .

٢ـ الأَحاديثُ في أداءِ الأمانةِ كَثيرةٌ ، هاتِ حَديثاً مِمّا رُوِيَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُحدِّدُ مَتى تَكونُ طاعةُ المَخْلوقِ واجِبةً .

فكِّرْ :

١ـ أَمَرَنا اللهُ بِطاعَتِهِ وأَمَرَنا بِطاعةِ رَسولِهِ ﷺ ثُمَّ قالَ ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ماذا تَفْهَمُ مِنْ هذا ؟

٢ـ أَمَرَنا اللهُ تَعالى عِنْدَ الاخْتِلافِ أَنْ نَرْجِعَ إلى كِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، ولَمْ يَقُلْ لَنا ارْجِعوا إلى أُولي الأَمْرِ مِنْكُمْ . لِماذا ؟

❊ ❊ ❊

الدّرسُ الثّامنَ عشَرَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن
يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا
بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ
عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَزْعُمونَ : يَقولونَ حَقّاً كانَ أوْ باطِلاً ، وكَثُرَ اسْتِعْمالُهُ في الباطِلِ .

الطّاغوتِ : مِنَ الطُّغيانِ وهُوَ البُعْدُ عَنِ الحَقِّ .

صُدوداً : إعْراضاً عَنِ الحَقِّ .

أعرِضْ عَنْهُمْ : اصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُمْ .

عِظْهُمْ : ذكِّرْهُمْ بالخَيْرِ .

قَوْلاً بَليغاً : قَوْلاً يَكونُ لَهُ أثرُهُ في نُفوسِهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟
إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى طاعَتَهُ عَلى الّذين آمَنوا وأَمَرَهُمْ بالتَّحاكُمِ إلى شَرْعِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى إلاّ أنَّ

هُنَاكَ فَرِيقاً يَعِيشُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لا يُطِيعُونَ الرَّسُولَ وَلا يَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ ، بَلْ يُرِيدُونَ حُكْمَ غَيْرِهِ ، وَهُمْ فَرِيقُ الْمُنَافِقِينَ .

لَقَدْ جَاءَتِ الآيَاتُ تَعْجَبُ مِنْ حَالِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَلَ اللهُ تَعَالَى وَوَصَلَ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ مِمَّا أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ بِمَا نَزَلَ عَلَى الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مِنْ قَبْلُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يَتَنَاقَضُ مَعَ هَذَا الإِيمَانِ الَّذِي يَدَّعُونَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الإِيمَانَ يَعْنِي الإِذْعَانَ الكَامِلَ للهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ الْمُنَافِقِينَ لا يُرِيدُونَ أَنْ يُذْعِنُوا للهِ وَرَسُولِهِ ، بَلْ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ ، أَيْ : مَصْدَرِ الطُّغْيَانِ وَالضَّلالِ ، وَالْمَقْصُودُ بِالطَّاغُوتِ الَّذِي يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَيْهِ هُوَ : كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ ، وَهُوَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ . وَالْحَالُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِالْكُفْرِ بِهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِالانْقِيَادِ إِلَى أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُمْ وَيُبْعِدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَهَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ مِنْهُمْ ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَ مَنْ يُرِيدُ إِضْلالَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ! ! وَيَرْفُضُونَ دَعْوَةَ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى .

لَقَدْ جَاءَتِ الآيَةُ لِتُنْكِرَ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ . وَمَعَ ذَلِكَ يَدَّعِي التَّحَاكُمَ فِي فَصْلِ خُصُومَاتِهِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ .

إِنَّ هَؤُلاءِ مُعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ ، فَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا لِنَعْمَلَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَنَحْتَكِمَ إِلَيْهِ ، وَإِلَى الرَّسُولِ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا بِمَا عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى ، رَأَيْتَهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضاً شَدِيداً ، وَلا يَمْتَثِلُونَ لأَمْرِكَ .

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

وَإِذَا كَانَ هَؤُلاءِ الْمُنَافِقُونَ لا يَقْبَلُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِسَبَبِ تَرْكِهِمْ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى . وَلَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَلَى مَا كَانَ مِنْ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَعَنِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ ، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمُ اضْطُرُّوا بِسَبَبِ مَا أَصَابَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ وَيَحْلِفُونَ لَكَ ، إِنَّنَا مَا أَرَدْنَا بِالتَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِكَ يَا مُحَمَّدُ إِلاَّ إِحْسَاناً إِلَى الْمُتَخَاصِمِينَ ، وَتَوْفِيقاً بَيْنَهُمْ حَتَّى لا يَتَّسِعَ الْخِلافُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ بِاللهِ كَاذِبِينَ مُخَادِعِينَ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ .

ولكنَّهُ سبحانَهُ ليسَ غافلا عنْ أعمالِهمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يعْلمُ ما في قلوبهمْ من الكُفْرِ والحقْدِ ، والكيد وتربص الدوائر بالمؤمنين ، ولذا عليكَ يا مُحمّدُ أنْ تُعامِلَهُمْ بأمور ثلاثة :

١ـ الإعراضُ عنْهمْ ، وعدمُ الإقْبالِ عَليْهمْ ، وهذا يُشعِرُهُمْ بالخَوْفِ والرَّهْبةِ مِنْ سوءِ عاقِبتِهمْ .

٢ـ النُّصْحُ والتَّذْكيرُ بالخيْرِ بأُسلوبٍ يُرَقِّقُ قُلوبَهُمْ ويَدْفعُهُمْ إلى التَّأمُّلِ فيما يعظُهُمْ بهِ ، وهذا يكون بالترغيب والترهيب .

٣ـ القولُ البليغُ المؤثِّرُ في نُفوسِهِمْ ، بحَيْثُ يَسْتَشْعِرونَ منهُ الخوْفَ ، وذلكَ بأنْ يَتوعَّدَهُمْ بالقتْلِ والاستئصالِ إنِ استمرّوا على نِفاقِهِمْ ، إذْ لا فَرْقَ بيْنَهُمْ وبيْنَ الكافرين في العقيدةِ ، وأنْ يُخْبِرَهُمْ أنَّ ما في قُلوبِهمْ مِنَ النّفاقِ مَعْلومٌ عِنْدَ اللهِ تعالى ، ولِذا عَلَيْكُمْ أنْ تُصْلِحوا أنْفُسَكُمْ وتُطَهِّروا قُلوبَكُمْ وتُداووها منْ مرضِ النّفاقِ وإلاّ حَلَّ بِكُمْ غضَبُ اللهِ وعِقابُهُ .

وهذه الطُّرقُ التي أرْشَدَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ إلى اسْتِخْدامِها هِيَ مِن أفْضَلِ الأساليبِ التي يستخدمُها الدُّعاةُ في دعوتِهِمْ ، كيْفَ لا وهِيَ توْجيهاتٌ إلهيّةٌ منْ عَليمٍ حكيمٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حثُّ المُسْلمِ على الاحْتِكامِ إلى اللهِ تعالى وإلى رسولهِ ﷺ .

٢ـ منْ أعْرضَ عنْ حُكْمِ الله مُتعمِّدا وهُوَ يدّعي الإيمانَ كانَ مُنافقاً خالصاً .

٣ـ منْ أساليبِ الدَّعْوةِ الإعْراضُ عنِ العُصاةِ وعَدمُ الانْتباهِ لهُمْ ، والنُّصْحُ والتّذْكيرُ لهُمْ ، والقوْلُ البليغُ المؤثِّرُ في نُفوسِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ ما كانَ يزْعُمُهُ المُنافقونَ تجاهَ مُحمّدٍ ﷺ والقُرآنِ .

٢ـ هلْ كانَ اليهودُ مُؤْمنينَ حقّاً ؟ وما الإيمانُ الصّحيحُ ؟

٣ـ إلى مَنْ يتحاكَمُ اليَهودُ لِحَلِّ نِزاعاتِهِمْ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ المُنافِقينَ مِمَّنْ يَقولُ لَهُمْ تَعالوا لِنَتحاكَمَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَ حالُ المُنافِقينَ عِنْدَما تُصيبُهُمْ مُصيبةٌ ما ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّهُ يَنْبَغي عَلى الرَّسولِ أنْ يُعامِلَ المُنافِقينَ بِأُمورٍ ثَلاثةٍ ، ما تِلْكَ الأُمورُ ؟ اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآيةِ الكَريمَةِ .

٧ـ ما المَقْصودُ بالقَوْلِ البَليغِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في حُدودِ الصَّفْحَةِ مَوْضوعاً يُبيِّنُ مَنْهَجَ الرَّسولِ ﷺ في وَعْظِ العُصاةِ والمُذْنِبينَ ، واقْرأْهُ عَلى طَلَبَةِ مَدْرَسَتِكَ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ
فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم
مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا
لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُحَكِّموكَ	: يُفوِّضوا الأَمْرَ إليكَ ، ويَطْلُبوا الحُكْمَ في خُصوماتِهِمْ مِنْ سُنَّتِكَ .
شَجَرَ بينَهُم	: حَصَلَ بيْنَهُمْ مِنْ أُمورِ الخِلافاتِ ، وتَنازُعِهِمْ فِيها .
قَضَيْتَ	: حَكَمْتَ .
تَسليماً	: انْقِياداً وإِذْعاناً .



﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ أنْ أَرْسَلَ لِخَلْقِهِ الرُّسُلَ الّذينَ يَهْدونَهُمْ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ ما أَرْسَلَ الرُّسُلَ إلاّ لِيُطاعوا بإِذْنِ اللهِ تَعالى فيما أَمَروا بِهِ ونَهوا عَنْهُ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ

طاعتهم أو رغب عن حكمهم ، خرج عن حكم الله تعالى وسنته ، وارتكب أعظم الآثام .

ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وعدم تحاكمهم إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، لو أنهم جاءوك يا محمد فاستغفروا الله تعالى من هذا الذنب العظيم الذي ارتكبوه ، وندموا على ما فرطوا ، وتابوا توبة نصوحا ، واستغفر لهم الرسول وسأل الله تعالى أن يمحو عنهم ذنوبهم ويغفر لهم ، لتقبل الله توبتهم ولوجدوه متفضلا عليهم بالرحمة . إن الذنب الذي ارتكبوه لم يكن ظلما لأنفسهم فحسب ، ولكنه إيذاء للرسول ﷺ ، إذ لم يتقبلوا حكمه عليه السلام ، فكان لابد من استغفارهم الله تعالى واستغفار الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك .

إن كل من يدعي الإيمان ، لن يكون إيمانه صحيحا صادقا ، إلا إذا قبل حكم الرسول ﷺ ولذلك أقسم الله تعالى بربوبيته لرسوله ﷺ ، بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليك إنما هم من المنافقين .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

يقسم الله تعالى أن الإيمان الصادق لا يتحقق إلا بهذه الأمور الثلاثة :

١ ـ أن يحكموا الرسول ﷺ في أمورهم وقضاياهم التي يختصمون فيها .

٢ ـ أن لا يجدوا في أنفسهم ضيقا وحرجا مما حكم به الرسول ، فالمؤمن صادق الإيمان هو الذي يتقبل حكم رسول الله ﷺ منشرحا به صدره .

٣ ـ الانقياد والتسليم لذلك الحكم .

وقد روي في سبب نزول الآية عن عروة قال : خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شريج من الحرة ، فقال النبي ﷺ : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال الأنصاري : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ، فتلون وجهه ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك . واسترعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم ، حين أحفظه الأنصاري ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

إن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول ﷺ فيما شجر بين المتخاصمين من خلاف ، ولكن كثيرا من الناس لضعف إيمانهم يقصرون في هذا الأمر ، ولذا قال سبحانه :

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ، حديث رقم (٤٣٠٩) .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ .

لوْ أنّهُ سُبْحانهُ وتعالى فرض على النّاس جميعاً أنْ يقتلوا أنفسهُمْ ، ويُعرّضوها للهلاك ، أوْ فرض عليْهمْ أنْ يخرُجوا منْ ديارهمْ فيُهاجروا منها ، ما فعلهُ إلاّ قليلٌ منْهمْ . وهذا الدّينُ لمْ يُنزلْهُ اللهُ تعالى لِهذا القليل فقط ، وإنّما جاء للنّاس جميعاً ولذلك فإنّهُ سُبْحانهُ لمْ يكْتُبْ عليْكُمْ أيّها النّاسُ هذه التّكاليف الشّاقّة ، بلْ إنّهُ سُبْحانهُ رحْمة بعباده ، اكْتفى بتكْليفهمْ ما يسْتطيعُونه ولا يُكلّفُهُمْ إلاّ وُسْعهُمْ .

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

ولوْ ثبت أنّهُمْ فعلوا ما أمرهُمُ اللهُ به منَ اتّباع الرّسول ﷺ ، والانْقياد لحُكْمه ، لكان هذا الّذي فعلوهُ خيْرًا لهُمْ في دُنْياهُمْ وآخرتهمْ ، ولكان أشدّ تثْبيتا لهُمْ على الحقّ والصّواب ، ولأعْطاهُمُ اللهُ تعالى منْ عنْده ثواباً عظيماً لا يعْرفُ مقْدارهُ إلاّ اللهُ تعالى ، ولهداهُمُ اللهُ تعالى إلى سُلوك الطّريق المُسْتقيم : طريق الإسْلام .

هذا وعْدٌ منَ الله تعالى لكُلّ منْ يُطيعُهُ ويُطيعُ رسولهُ ﷺ ، ووعْدُ الله تعالى لا يتخلّفُ ، ولقدْ فخّمَ اللهُ سُبْحانهُ هذا العطاء في قوْله حيثُ أسْندهُ إلى (نا) العظمة ، فالمُعْطي كريمٌ والعطيّةُ عظيمةٌ لِهذا الإنْسان ، نسْألُ الله تعالى أنْ نكون ممّنْ يُطيعون الله ورسولهُ ﷺ في كُلّ أمْر ونهْي ، لينالوا الأجْر العظيم ، ويهديهُمُ اللهُ الصّراط المُسْتقيم .

دُروسٌ وعِبرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منْها :

١ـ إرْسالُ الرُّسُل نعْمةٌ عظيمةٌ أنْعمها اللهُ تعالى على البشر ، فعليْهمْ أنْ يُطيعُوهُمْ ويلْتزموا بما جاءوا به .

٢ـ الإيمانُ الصّادقُ هُوَ الّذي يدْفعُ صاحبهُ إلى الإذْعان لحُكْم الله تعالى وحُكْم رسوله ﷺ .

٣ـ المُسارعةُ إلى اسْتغْفار الله تعالى من الصّغائر والكبائر الّتي يقْترفُها الإنْسانُ .

٤ـ منْ رحْمة الله تعالى بعباده أنّهُ لمْ يُكلّفْهُمْ إلاّ ما في وُسْعهمْ ، فعليْهمْ أنْ يلْتزموا بما أمرهُمُ اللهُ به .



التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إرْسالِ الرُّسُلِ عليْهِمُ السَّلامُ للنَّاسِ ؟

٢ـ لِمَ طَلَبَ اللهُ مِنَ القَوْمِ الّذين تحاكَموا إلى الطّاغوتِ أنْ يَسْتَغْفِروا اللهَ ويَطْلبوا مَغْفِرَةَ الرَّسولِ ﷺ ؟

٣ـ الإيمانُ الصّادِقُ لا يَتِمُّ إلاَّ بأُمورٍ ثلاثةٍ ، اذْكُرْها .

٤ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيةٍ مِنْ سورةِ البقرةِ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ العِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ العِشْرونَ

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ
وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ
ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خُذوا حِذْرَكُمْ : كونوا عَلى حَذَرٍ مِنْ عَدوِّكُمْ .

انْفِروا : اخْرُجوا للجِهادِ .

ثُباتٍ : جَمْعُ ثُبةٍ ، وهِيَ الجماعةُ تَخْرُجُ إثْرَ جماعةٍ .

لَيُبطِّئَنَّ : لَيتثاقَلَنَّ ويَتأَخَّرَنَّ عَنِ الجِهادِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ رَغَّبَتِ الآياتُ السّابقَةُ في طاعةِ اللهِ تَعالى وطاعةِ رَسولِه ﷺ ، وبيَّنَتْ أنَّ في هذا خَيْراً وهِدايةً . وجاءتِ الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ حُسْنَ عاقِبةِ مَنْ أطاعَ اللهَ ورَسولَهُ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ .

إنَّ مَنْ يُطيعُ اللهَ ورَسولَهُ ، فيَفعَلُ كُلَّ ما أمَرَ اللهُ ورسولُهُ بِهِ ، ويَتْرُكُ كُلَّ ما أمرَ باجْتِنابِهِ ، يَكونُ

يَوْمَ القِيامةِ في صُحْبَةِ صفوة الله مِنْ عباده ، وهم :

١ـ النَّبيّون : وبدأ بهمْ سُبْحانهُ لعُلوّ درجتِهِمْ ، وهُمْ أنبياءُ الله وصفْوتُهُ منْ خلقه .

٢ـ الصِّدِّيقون : وهُمْ الّذينَ صدّقوا بكُلِّ ما جاء به الأنبياءُ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ ، وصدقوا في دِفاعِهِمْ عَنْ عقيدَتِهِم .

٣ـ الشُّهداءُ : وهُمُ الّذينَ استشهدوا في سبيل الله تعالى ، وبذلوا أرواحَهُمْ في سبيله .

٤ـ الصَّالِحونَ : وهُمْ الّذينَ أصلحوا نفوسَهُمْ ، واستقاموا وأدّوا ما يجبُ عليهِمْ نحو ربِّهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى .

وما أحْسَنَ مُرافقةَ هؤلاء الّذينَ يُرافقُهُمُ المُؤْمنُ الطَّائعُ لربِّهِ يوْم القيامة ، وقدْ رُوِيَ عنْ أنس عنِ النَّبيِّ ﷺ : المرءُ مَعَ مَنْ أحبّ[1] . (وعنْ ربيعة بن كعْب الأسلميّ قال : كُنْتُ أبيتُ مع رسول الله فأتيْتُهُ بوَضوئِهِ وحاجَتِهِ فقال لي : سلْ ، فقلتُ : أسألُكَ مُرافقتكَ الجنّة ، فقال : أو غيْر ذلك ، قلتُ هُوَ ذاكَ ، قالَ فأعنّي على نفسك بكثرة السّجود)[2]

وَيَقولُ سُبْحانهُ :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾

أيْ : ذلكَ الفضْلُ العظيمُ الّذي تفضّل به سُبْحانهُ على عباده المُؤمنينَ هُوَ من الله تعالى لا مِنْ غَيْرِهِ سُبْحانَهُ ، وكَفَى به سُبْحانهُ عليما بالعُصاة والمُطيعين ومنْ يستحقّ فضلَهُ سُبْحانهُ وعطاءَهُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾

وانْتَقَلتِ الآياتُ لتَحُثَّ المُؤمنينَ على الاستعدادِ للجهاد في سبيل الله تعالى ، ليكونوا ممّنْ يَسْتَحِقُّونَ مُرافقَةَ النَّبيِّينَ والصّدِّيقين والشُّهداء والصّالحين ، وقد ناداهُمْ سُبْحانهُ بهذا النّداء المُحبّب إلى قُلوبِهِمْ واصِفاً إيّاهُمْ بصفةِ الإيمان ، ليُحثّهُمْ على الالتزام بما يأمُرُهُم ، يقولُ لهُم سُبْحانهُ وتَعالى : احْتَرسوا واسْتعدّوا لاتّقاء شرّ العدوّ وذلك بأنْ تعْرفوا حالَ العدوّ ، ومدى استعداده وقُوَّتِهِ ، وتَعْرِفوا أرْضَهُ وبلادَهُ وأسْلحتَهُ . وكُلُّ هذا يدْخُلُ تحتَ الأمر بالحذر .

وقَدْ كانَ الرَّسولُ ﷺ والصَّحابةُ على علْم بأرْض العدوّ ، وقدْ كانَ لهُمْ عيونٌ يأتونَهُمْ بأخبار العدوّ ، فَقَدْ أخْبَروهُ قَبْل فتْح مكّة بأنّ قُرَيْشا قدْ نقضت العهْد الّذي وضعهُ النّبيّ ﷺ عام الحُديبية

وَقَدْ أمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بَعْدَ أخْذ الحذر ، وبعد أنْ يعْرفوا عدوّهُمْ أنْ يخْرُجوا إلى قتاله جماعةً في إثر

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب علامة حب الله ، حديث رقم ٥٨١٦ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه ، حديث رقم ٤٨٨ .

جماعة ، بأنْ يكونوا فصائل وجماعات متتابعة إذا كان الجيْش كبيرا ، أوْ يَخْرُجوا كُلُّهُمْ مَرَّةً واحدة ، أيْ : مُجْتمعين في جيْش واحد . فهُو - إذنْ - يأْمُرُهمْ أنْ يخْرجوا مُتفرِّقين حسَبَ ما تَقْتضيهِ المعْركةُ ، وهذا يقْتضي أنْ تكون الأمّةُ كلّها مُستعدّة للْقتال .

وانتقلت الآياتُ لتوْبيخ ضعاف الإيمان الّذين يتثاقلون عن القتال ، فقال سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

منْكُمْ أيّها الْمُؤمنون منْ يعيشُ بيْنكُم ، ولكنّهُمْ يُظْهرون الإيمان ويُبْطنون الكُفْرَ ، أو ممَّنْ هُمْ ضعافُ الإيمانِ . إنّ هؤلاء يتثاقلون ويتأخّرون عن الجهاد ، وقدْ جاءتْ كلمةُ (لَيُبَطِّئَنَّ) تُصوِّرُ الحركة النّفسيّة للمُنافقين وضعاف الإيمان ، فهُمْ يشدُّون أنْفُسهُمْ شدّا ، يُقدّمون رِجْلاً ويُؤَخّرون أخرى عنْدما يدْعوهُمْ داعي الجهاد إلى الخُروج منْ أجْل إعْلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى . إنَّ المُنافِقينَ لا يُحبّون أنْ يبْقى الإسْلامُ وأهْلُهُ ، ولذلك تجدُهُمْ يُبطّئون بأنْفُسِهمْ ويُبطّئون غيْرَهُمْ عَنِ القِتالِ ، وضعافُ الإيمان يُبطّئون بأنْفُسهمْ خوْفا من الموْت وحُبّا في الحياة .

وقدْ فصّلتِ الآياتُ أحْوال هؤلاء الْمُنافقين ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ إنْ أصابتْكُمْ أيّ مُصيبة كالهزيمة في المعْركة ، أو القتْلِ ، قالَ هذا المُنافقُ فرحا مُخْتالا : لقدْ أنْعم اللهُ عليّ بأنْ قعدْتُ ولمْ أخْرُجْ للْقتال ، إذْ لوْ كُنْتُ حاضراً مَعَهُمْ في المَعْرَكةِ لأصابني ما أصابهُمْ منْ قتْل وجراحٍ وآلام .

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

أمّا إذا كان النّصْرُ والظّفرُ للْمُسْلمين ، وغنموا في المعْركة فإنّ هذا المُنافِقَ يَقولُ نادِماً مُتَحسِّراً - وكأنّهُ ليْس منْكُمْ ولمْ تجْمعْهُ بكُمْ مودّةٌ : ليْتني كُنْتُ معهُمْ في المعْركةِ وقاتَلْتُ مَعَهُمْ ، لأفوزَ بما فازوا به من الغنائم والسّبايا . ولكنّ ضعْفَ إيمانه وجُبْنَهُ منعَهُ منْ أنْ يَكونَ في المَعْرَكَةِ وفَوّتَ عليْهِ الفوْز بالغنائم .

لقدْ جاءت الآياتُ لتسْخر منْ حال المُنافقين وتفْضح نواياهُم ، لقدْ كان في إمْكانِهِمْ أنْ يَخْرُجوا للْقتالِ وأنْ ينالوا نصيبهُمْ من الغنائم ، ولكنّهُمْ لجُبْنهِمْ لمْ يفْعلوا ، فتحسّروا وندِموا وتَمَنَّوْا أنْ لَوْ كانوا مع الْمُجاهدين الْمُؤْمنين .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعبرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ مَنْ أطاعَ اللهَ ورَسولَهُ أكْرَمهُ اللهُ بالمَنْزلةِ الرَّفيعةِ وأكْرَمهُ بصُحْبَةِ عِبادِهِ وهُمُ النبيُّونَ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصّالِحونَ .

٢ـ عَلى الأُمّةِ المُسْلِمةِ أَخْذُ الحَيْطةِ والحَذرِ دائما ، وذلكَ بمَعْرفةِ عُدوِّها وعُددِهِ وسلاحِهِ .

٣ـ الأُمةُ المُسْلِمَةُ كُلُّها مُطالَبةٌ بالتَّدرُّبِ على فُنونِ القِتالِ ، حتّى تخوضَ المَعْرَكَةَ مَعَ العدوِّ مَتى اضْطرّتْ لذلِكَ .

٤ـ إذا دعا داعِي الجِهادِ فَعلى المُؤْمنينَ تلبيةُ الدُّعاءِ ، والخُروجُ على الفَوْرِ دونَ تَسْويفٍ أو تَكاسُلٍ حتّى لا يَكونوا مِنَ المُنافِقينَ .

التّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ الّذي يُطيعُ اللهَ ورَسولَهُ سوْفَ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيامةِ مَعَ صَفْوةٍ مِنْ عِبادِهِ ، اذْكُرْهُمْ مُرتَّبينَ كَما جاءَ في الآيَةِ .

٢ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ذلكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾ ؟

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ حالَ المُنافِقين ، بيِّنْ حالَهُمْ في كُلٍّ مِنَ الحالاتِ الآتيةِ :

أـ عِنْدَ النفيرِ والإعدادِ لِلْجهادِ .

ب ـ عِنْدما يَلْحَقُ بالمُؤْمنينَ شَرٌّ .

ج ـ عِنْدما يُحقِّقُ المُسْلِمونَ نَصْرا ويَكْسِبونَ غَنائِمَ مِنَ المَعْرَكَةِ .

٤ـ فسِّرْ كُلاًّ مِمّا يَلي :

أـ ﴿وَحَسُنَ أُوْلئكَ رَفِيقا﴾ .

ب ـ ﴿فانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَو انفِرُواْ جميعا﴾ .

ج ـ ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَودَّةٌ﴾ .



١ـ في أيِّ سَنَةٍ كانَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ؟ وفي أيِّ سَنَةٍ كان فَتْحُ مَكَّةَ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبِ الآيةَ الّتي تُبيِّنُ حالَ المُنافِقينَ عِنْدَ الصَّلاةِ ، وذِكْرِ اللهِ تعالى .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ
أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ
ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

سَبيلِ اللهِ	إعْلاءِ كلِمَةِ اللهِ ونَشْرِ دينِهِ .
يَشْرونَ	يبيعونَ .
أوْلياءَ الشَّيْطانِ	أتْباعَهُ وأعْوانَهُ .
كيدَ	سعْيًا في الفَسادِ ، وتخطيطًا لإلحاقِ الضَّررِ بِالغيْرِ .

التَّفسيرُ :

لَقدْ فرَضَ اللهُ تعالى الجهادَ على المُسْلِمينَ لِنشْرِ دعْوةِ الإسْلامِ ، وتأْمينِ وُصولِها إلى البشريَّةِ جمعاءَ ، فهْوَ الوَسيلةُ الوَحيدةُ لِتخْليصِ الشُّعوبِ والأُمَمِ مِنَ القهْرِ والظُّلْمِ والاسْتبْدادِ ، ولإعْطائِها الحَقَّ في اخْتيارِ العَقيدةِ الّتي تُريدُها وترْضى بها ، وفرَضَهُ اللهُ تعالى مِنْ أجْلِ ردِّ عُدوانِ الكُفّارِ على المُسْلِمينَ والدِّفاعِ عَنِ الوَطَنِ والأرْضِ . ودَفْعُ المُعْتدينَ والطّامِعينَ حقٌّ لكلِّ مُسْلِمٍ وَواجبٌ عليْهِ

﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وقدْ جاءت الآياتُ تأمرُ المؤمنين بالقتال ﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : إنْ كان المنافقون قد أبطأوا وتأخّروا عن الجهاد في سبيل الله ، فلْيُقاتِل المؤمنونَ صادقو الإيمان ، الّذينَ يبيعون الحياةَ الدُّنيا وما فيها منْ مُتعٍ وشهوات ، منْ أجلِ الحصولِ على رضوانِ الله تعالى وجزيلِ عطاياهُ وعظيمِ ثوابِهِ يوم القيامة ، ولقدْ أكرمَ اللهُ المُؤْمنين فبيّن لهُمْ أجرَهُمْ ، قالَ تعالى : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ومنْ يُقاتِلْ منْ أجلِ إعْلاءِ كلمةِ الله تعالى ، فسوفَ يُؤتيهِ اللهُ أجْراً عظيماً منْ عندِه ، لا يَعْلَمُ مقْدارَهُ إلاّ اللهُ تعالى ، مهْما كانتْ نتيجةُ القتال ، أي : سواءٌ استُشْهِد وظفرَ به عدوُّهُ وتغلّبَ عليْه ، أم انتصرَ وظفرَ هُوَ بعدوِّهِ وتغلّبَ عليْه . إنَّ المؤمنَ إذا دخلَ المعركةَ لابُدَّ وأنْ يُوطِّنَ نفْسَهُ على أحدِ هذيْنِ الأمْرَيْنِ : إمّا أنْ يقتُلهُ عدوُّهُ ويُكرِمهُ اللهُ بالشّهادةِ ، وإمّا النَّصْرُ على عدوِّهِ ، وفي كُلٍّ من الأمْريْنِ فهْو الفائزُ برضْوانِ الله .

ثُمَّ رغّبَ سُبْحانَهُ في الجهادِ وحَثَّ عليْهِ فقال تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

وما : اسمُ استفهامٍ يُقصدُ منْهُ تحْريضُهمْ على الجهادِ والإنكارُ عليْهِمْ في تركِهِ ، والمعنى هُنا : أيُّ شيءٍ جعلكُمْ لا تُقاتلونَ ؟ إنَّ عدمَ قتالِكُمْ لأعدائِكُمْ يتناقضُ مَعَ ادِّعائكُمْ الإيمان ، فالواجبُ عليْكُمْ أنْ تُقاتلوا أعْداءَ الله لتجْعلوا دينَ الله تعالى يسودُ هذه الأرْض ، وليحُلَّ الخيرُ والعدْلُ محلَّ الشّرِّ ، ومنْ أجْلِ إخْوانِكُمُ المُسْتضعفينَ في الدّين ، الّذين بقوا في مكّةَ المُكرّمة بعْد هجرةِ النّبيّ ﷺ إلى المدينةِ المُنوّرة ، فأذلّهُمُ المُشْركونَ وآذوْهُمْ وحاولوا أنْ يفتنوهُمْ عنْ دينهمْ . إنّ هؤلاءِ المُسْتضعفين منَ الرّجالِ والنّساء والولدانِ لا يمْلكون حوْلا ولا قوّةَ إلاّ التوجُّه إلى الله تعالى بالدُّعاء ، قائلينَ ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ لقدْ دعَوا اللهَ تعالى ليُفرّجَ عنْهُمُ الكرْبَ ويُخْرِجهُمْ منْ مكّةَ المُكرّمة بسببِ ظُلْمِ أهْلها وهُمُ المُشْركون ، وأنْ يُسخّرَ لهُمْ سُبْحانهُ مَنْ يتولّى أمْرَهُمْ وينْصرَهُمْ على مَنْ ظلمَهُمْ ، ولقد استجابَ اللهُ تعالى لهُمْ دُعاءَهُمْ ، حيْثُ استطاعَ بعْضُهُمُ اللّحاقَ بالرّسولِ ﷺ في المدينة ، ورزقهُمْ اللهُ تعالى فتْحا قريبا ، وهُوَ فتْحُ مكّةَ المُكرّمة .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ .

إنّ منْهجَ الإسْلامِ واضِحٌ ، وهدفُهُ مُحدّدٌ ، ويخْتلفُ تماما عنْ منْهجِ الكُفْرِ وهدفِهِ . وتبعا لذلك

فَمَنْهَجُ المُؤْمِنينَ يَخْتَلِفُ عَنْ مَنْهَجِ الكافِرينَ ، ذَلِكَ أَنَّ الّذينَ آمنوا يُقاتِلونَ لأَجْلِ إعْلاءِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى ، ونُصْرَةِ الحَقِّ الّذي جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، أمّا الّذينَ كَفَروا فإنَّهُمْ يُقاتِلونَ اتِّباعاً لِما يُوَسْوِسُهُ الشَّيْطانُ في قُلوبِهِمْ ، فَهُوَ يأمُرُ بالبَغْيِ والطُّغيانِ والكُفْرِ ، فَعَلَيْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تُقاتِلوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ، الّذينَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ بِوَسْوَسَتِهِ وخِداعِهِ .

وفي هذا حَثٌّ للمُؤْمِنينَ وتَرْغيبٌ لَهُمْ في الجِهادِ ، وبَيانٌ لَهُمْ بأنَّهُمْ إنْ تَرَكوا القِتالَ تَغلَّبَ الطُّغيانُ وعَمَّ الفَسادُ في الكَوْنِ .

لَقَدْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْصُرَ اللهُ الحَقَّ ، ويَجْعَلَهُ يَعْلو على الباطِلِ ، ولِذلِكَ كانَ كَيْدُ الشَّيْطانِ أيْ : تَدْبيرُهُ ووَسْوَسَتُهُ لأَتباعِهِ للاعْتِداءِ على المُؤْمِنينَ شَديدَ الضَّعْفِ ، ولا يَليقُ بالمُؤْمِنينَ أَوْلياءِ اللهِ وأَهْلِ طاعَتِهِ أنْ يَجْبُنوا أَمامَ الشَّيْطانِ وأَعْوانِهِ .

إنْ تَرْكَ المُسْلِمينَ لِلْقِتالِ يَعني أنْ يَعُمَّ الطُّغيانُ والفَسادُ ، وما نُشاهِدُهُ اليَوْمَ ونَعيشُهُ مِنْ فَسادٍ وابْتِعادٍ عَنِ الحَقِّ وطُغيانٍ ، وخِذلانٍ وذُلٍّ ، ومِنْ تَحكُّمِ عَدوِّنا فِينا إلاّ نَتيجةٌ حَتميَّةٌ لِتَرْكِ هذهِ الفَريضةِ العَظيمةِ الّتي افْتَرَضَها اللهُ عَلَيْنا .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بَيانُ شَرَفِ الجِهادِ وعَظَمَتِهِ ، فَهُوَ نَشْرٌ للحَقِّ والعَدْلِ والخَيْرِ ، ودِفاعٌ عَنِ المُسْلِمينَ .

٢ـ مَنْ يُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ فإنَّ اللهَ يُكْرِمُهُ بإحْدى الحُسْنَيَيْنِ ؛ إمّا النَّصْرُ وإمّا الشَّهادةُ .

٣ـ لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى القِتالَ لِرَفْعِ الظُّلْمِ ولِضَمانِ حُرِّيَّةِ الدِّينِ .

٤ـ الحَقُّ والباطِلُ في صِراعٍ دائِمٍ ، ولكِنْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْتَصِرَ الحَقُّ ويَزْهَقَ الباطِلُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا فَرَضَ اللهُ الجِهادَ عَلى المُؤْمِنينَ ؟

٢ـ لِماذا يَبيعُ المُؤْمِنُ دُنياهُ ؟ قارِنْ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكافِرِ .

٣ـ ما مَعْنى (ما) في قولِهِ تَعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ ؟ وما الّذي تُفيدُهُ ؟

٤ـ لِماذا طَلَبَ المُؤْمِنونَ مِنَ اللهِ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ مَكَّةَ المُكرَّمَةِ ؟

٥ـ هَلِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَهُمْ ؟ وضِّحْ ذلكَ .

٦ـ قارِنْ بَيْنَ مَنْهَجِ المُؤْمِنينَ ومَنْهَجِ الكافِرينَ في القِتالِ .

٧ـ ما الّذي يَترَتَّبُ عَلى تَرْكِ القِتالِ في سَبيلِ اللهِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ فَضْلَ الجِهادِ أوْ حَثَّ الرّسولِ ﷺ عَلَيْهِ .

٢ـ هَلْ هَذهِ الآيَةُ خاصَّةٌ بأَهْلِ مكَّةَ الّذينَ بَقَوا فيها بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسولِ ، أمْ هِيَ عامَّةٌ لِكلِّ مَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ إذا لَمْ يَكُنِ القِتالُ في سَبيلِ اللهِ ، فَفي سَبيلِ مَنْ يَكونُ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ
ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ
مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُتِبَ عَلَيْهِمْ : فُرِضَ عَلَيْهِمْ .
بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ : قُصورٍ عاليةٍ وحُصونٍ وقِلاعٍ حَصينةٍ .
يَفْقَهونَ : يَفْهَمونَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُسْلِمينَ في مَواطِنَ كَثيرةٍ مِنْ كِتابِهِ بالاسْتِعدادِ لِلْقِتالِ وإعْدادِ العُدَّةِ لِلْجِهادِ في سَبيلِ الله ولِمُقاتَلَةِ أعدائِه .

وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنِ المُسْلِمينَ ومِنْهُمُ المُنافِقونَ وضُعَفاءُ الإيمانِ ، فَتَقولَ لِلنَّبيِّ ﷺ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾ .

والهَمْزةُ للاسْتفهام ، جاءَ ليَعْجبَ مِنْ حالِ أُولئكَ الّذينَ كانوا يتشوّقونَ للْقتالِ ، ولكنَّهُمْ لمّا فرِضَ عليْهم جبُنوا وخافوا ، فيقولُ سُبْحانهُ وتعالى : ألمْ ينْتهِ إلى عِلْمِكَ يا مُحمّدُ ﷺ ، ويا منْ تقرأ كتابَ اللهِ تعالى حالُ أُولئكَ الّذينَ كانوا يُظهِرونَ الحماسَةَ للْقتالِ ، لكنّ اللهَ أمَرَهُمْ أنْ يكفّوا أيْديهُمْ عنِ القتالِ ، إذْ إنّهُمْ لمْ يُؤْمَروا بهِ بعْدُ ، ولمْ يكونوا أهْلاً لهُ ، ولا قادرينَ عليْهِ ، وأمرهُمْ أنْ يُقيموا الصّلاةَ ، بأنْ يؤدّوها كاملةً بأرْكانِها وسُنَنِها ، والخُشوعِ فيها . وإقامةُ الصّلاةِ تعني كذلكَ أنْ تؤْتيَ هذهِ الصّلاةُ ثمارَها ، وهيَ النّهْيُ عنِ الفحْشاءِ والمُنْكرِ والبغْيِ . وأمَرهُمْ كذلكَ أنْ يُؤْتوا الزّكاةَ ، فهيَ تطهّرُ القلوبَ منَ الأحْقادِ ، وتشُدُّ أواصرَ التّراحُمِ والتّعاوُنِ بيْنَ النّاسِ .

هؤلاءِ كانوا يتمنّوْنَ أنْ يَكْتُبَ اللهُ عليْهِمُ القتالَ ، ولكنّهُمْ حينَ كُتِبَ عليْهمُ القتالُ كرهوهُ ، وخافَ منْهُ الضّعفاءُ وارْتابتْ قُلوبُهُمْ ؛ وذلكَ لأنّهُمْ يَخافونَ أنْ يقتلَهُمُ الكُفّارُ ، كما يخافونَ منَ اللهِ أنْ يُنْزِلَ بهِمْ بأْسَهُ وعقابَهُ . إنَّ خشْيتَهُمْ منَ الكافرينَ وهُمْ بَشرٌ مِثْلُهُمْ كخشيتِهمْ للهِ تعالى ، بلْ إنّها أشدُّ منْ خشْيتِهِمْ اللهَ تعالى . وهذا لا شكَّ يَدُلُّ على ضعْفِ إيمانِهمْ وفسادِ عُقولِهِمْ ؛ إذ إنَّ الأصْلَ أنْ تكونَ خشْيتُهُمْ للهِ تعالى أشدَّ منْ خشْيتِهِمْ لأيِّ أحدٍ ، فإنّهُ سُبْحانهُ هُوَ الضّارُّ والنّافعُ ، وقدْ قالَ الرّسولُ ﷺ لابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنْهُما : (واعْلَمْ أنَّ الأُمّةَ لوْ اجْتمَعوا على أنْ ينْفعوكَ بشيْءٍ لنْ ينْفعوكَ إلاّ بشيْءٍ قدْ كتبَهُ اللهُ لكَ ، وإنِ اجْتمَعوا على أن يضرّوكَ لنْ يضرّوكَ إلاّ بشيْءٍ قدْ كتبَهُ اللهُ عليْكَ)[1] .

ومنْ شدّةِ خوْفِ هؤلاءِ منَ القتالِ خاطَبوا اللهَ تعالى قائلينَ : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ لماذا فرضْتَ علينا القتالَ في هذا الوَقْتِ يا ربُّ ، هلاّ أخّرْتَنا يا ربُّ وتركْتَنا ، حتّى نموتَ موْتاً طبيعيّاً دونَ قتالٍ عنْدَما تحينُ آجالُنا .

إنّهُمْ بعْدَ أنْ تمنّوْا أنْ يُفْرَضَ عليْهِمُ القتالُ صاروا يتهرّبونَ منْهُ لفزَعِهِمْ وهلَعِهِمْ .

وقدْ أمرَ اللهُ تعالى نبيّهُ مُحمّداً ﷺ أنْ يَرُدَّ عليْهِم بقوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قُلْ : يا مُحمّدُ لهؤلاءِ الّذينَ يفِرّونَ منَ القتالِ حِرْصاً على ملذّاتِ الدُّنْيا ومتاعِها وشهَواتِها . قلْ لهُمْ : إنَّ متاعَ الدُّنْيا وما تحْرِصونَ عليْهِ قليلٌ فانٍ ، أمّا الآخرةُ فقدْ أعدَّ اللهُ ما فيها منْ نعيمٍ دائمٍ لا ينْفدُ لعبادِهِ المُتّقينَ الّذينَ يأْتمِرونَ بأمْرِ اللهِ ، ويجْتَنِبونَ نواهِيَهُ سُبْحانهُ ، والّذينَ

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب : ولكن يا حنظلة ساعة بـ ساعة .

يَحْرِصونَ على القِتالِ في سَبيلِ اللهِ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، ولِذلِكَ عَلَيْكُم أنْ تَجْعلوا خَشْيَتَكُمْ مِنَ اللهِ تعالى وَحْدَهُ ، وأنْ تُبادِروا إلى إعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، وحَتّى تنالوا ثَوابَ اللهِ تَعالى العَظيمَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُنْقِصُكُمْ مِنْ ثَوابِكُمْ شَيْئاً مَهْما كانَ قَليلاً . والفَتيلُ كَما عَرَفْنا ما يَكونُ في شِقِّ نَواةِ التَّمْرِ مِثْلَ الخَيْطِ ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في القِلَّةِ والحَقارَةِ .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

وتُبَيِّنُ الآياتُ لَهُمْ أنَّ المَوْتَ الّذي يَخافونَ مِنْهُ ، ويَفِرّونَ مِنْهُ لابُدَّ مِنْ أنْ يُدْرِكَهُمْ ، فالمَوْتُ لا مَهْرَبَ مِنْهُ ، حتّى لَوْ تَحصَّنْتُمْ بالحُصونِ المَنيعةِ ، والقُصورِ والقِلاعِ الشّاهِقَةِ العَظيمةِ ، فإنَ آجالَكُمْ إذا حانَتْ ، فإنَّ المَوْتَ آتيكُمْ لا مَحالَةَ ، ولِذا فإنَّ قُعودَكُمْ عَنِ الجِهادِ لَنْ يُنْجِيَكُمْ مِنْهُ ، ولَنْ يُطيلَ في أَعْمارِكُمْ ، فَلِماذا لا تُدافِعونَ عَنِ الحَقِّ ، لِتنالوا رِضا اللهِ تَعالى ؟!

إنَّ هَؤلاءِ لا يَفْقَهونَ ولا يَفْهَمونَ ، فإنَّكَ تَجِدُهُمْ عِنْدَما يُصيبُهُمْ رَخاءٌ ونِعْمَةٌ أو غَنيمةٌ ، قالوا إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أكْرَمَهُمْ بهذِهِ النِّعْمَةِ حُبّاً فيهِمْ وعِنايةً بهِمْ ، أمّا إذا أصابَهُمْ شِدَّةٌ مِنْ جَدْبٍ أو مُصيبةٍ أو هَزيمةٍ ، قالوا للنَّبيِّ ﷺ هذهِ الحالُ مِنْ عِنْدِكَ أنْتَ بِسَبَبِ شُؤْمِكَ وسوءِ قِيادَتِكَ ، وهذا زَعْمٌ باطِلٌ في عُقولِهِمْ ، إنَّهُمْ لا يَعْقِلونَ حَقيقةَ ما يَقولونَ ، ولَوْ كانوا يُمحِّصونَ كُلَّ ما يَتَلفَّظونَ بِهِ ، ويَفْقَهونَ ما يَقولونَ ، لما تَفوَّهوا بِمِثْلِ هذا القَوْلِ .

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

ويُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ ، ويُبيِّنُ أنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ تُصيبُكَ أيُّها المُؤْمِنُ فإنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وجودِهِ وكَرَمِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي أرْشَدَكَ إلى الوَسيلةِ الّتي توصِلُكَ إلى هذا الخَيْرِ ، وإنَّ كُلَّ مُصيبةٍ تُصيبُكَ فإنَّها مِنْ نَفْسِكَ ، وذَلِكَ لِسوءِ اخْتيارِكَ وَوقوعِكَ فيما نَهاكَ اللهُ تَعالى عَنْهُ .

إنَّ الحَسَنَةَ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ إنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى ، والسَّيِّئَةَ الّتي تُصيبُهُ إنَّما هِيَ مِنْ نَفْسِهِ ، ولِذا يَنْبَغِي على الإنْسانِ حينَما تُصيبُهُ سَيِّئةٌ أنْ يَبْحَثَ عَنْ سَبَبِها ويُحاسِبَ نَفْسَهُ ، لأنَّ عِصْيانَ اللهِ تَعالى سَبَبٌ مِنْ أسبابِ نِقْمَتِهِ على الإنْسانِ .

وتَخْتِمُ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ إنَّ مُحمَّداً ﷺ رَسولٌ مُرْسَلٌ مِنَ عِنْدِ رَبِّهِ للنّاسِ ، فَلَيْسَ لَهُ إلاّ البَلاغُ ، أمّا ما يُصيبُ النّاسَ مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ ، ومِنْ نِعْمَةٍ أوْ نِقْمَةٍ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أيُّ دَخْلٍ فيهِ ، وهذا ما يَشْهَدُ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى خالِقُ محمَّدٍ ﷺ ، وكَفَى باللهِ شَهيداً بأنَّهُ أرْسَلَهُ للنّاسِ كافَّةً ، فَهُوَ خاتِمُ النَّبيِّينَ ، ورَسولٌ إلى النّاسِ أجْمَعينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اتِّباعُ أَمْرِ اللهِ تَعالى واجْتِنابُ نَواهيهِ ، لِيَنالَ الإنْسانُ جَزيلَ ثوابِ اللهِ تَعالى وعَظيمَ أجْرِهِ .

٢ـ العاقِلُ هُوَ الّذي يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالى مُدَبِّرُ الكَوْنِ ، وأنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ بِيَدِهِ تَعالى ، فَلا يَخْشى إلاّ اللهَ ، ولا يَخْشى أَحداً مَعَهُ سُبْحانَهُ .

٣ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يَتدبَّرَ في ما يَنْطِقُهُ ، حتّى لا يَتفوَّهَ بما يَكونُ سَبباً للنِّقْمَةِ عَلَيْهِ ، وذَلِكَ أنَّ الإنْسانَ قَدْ يَتكلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يُلقي لَها بالاً ، يُلقى بِسَبَبِها سبْعينَ خَريفاً في جَهَنَّمَ .

٤ـ ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنْ سوءٍ ، فإنَّما هُوَ بِسَبَبِ ما اقْتَرفَتْهُ يَداهُ مِنَ الشَّرِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا يَخْشى فَريقٌ مِنَ النّاسِ القِتالَ ؟

٢ـ كَيْفَ رَدَّ الرَّسولُ ﷺ على مَنْ يَخْشَى القِتالَ ؟

٣ـ صَوَّرتِ الآياتُ الكَريمةُ مَوْقِفَ المُسْلِمينَ مِنَ القِتالِ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ عَليْهِمْ وبَعْدَهُ . وضِّحْ ذلِكَ مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ أ ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ .

ب ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إيرادِ هذِهِ الحَقيقةِ القُرْآنيَّةِ بَعْدَ ذِكْرِ فَريضةِ القِتالِ ؟

٥ـ لِماذا نَسَبَ اللهُ تَعالى السَّيئةَ إلى نَفْسِ المُؤْمِنِ ، والحَسَنَةَ إلى اللهِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما قالَهُ خالدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والعِشْرونَ

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ
فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ
ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ
وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **يَقولونَ طاعةٌ** : يَقولونَ نَحْنُ طائِفةٌ لا نَعْصي اللهَ أبداً .
- **بَرزوا** : خَرَجوا .
- **بَيَّتَ** : دبَّرَ وخطَّطَ .
- **يَتَدبَّرونَ** : يَتأمَّلونَ النَّظَرَ في القُرْآنِ ومَعانيهِ .
- **أمْرٌ** : خَبَرٌ .
- **أذاعوا** : نَشَروا وأشاعوا بَيْنَ النَّاسِ .
- **رَدُّوهُ** : أرْجَعوهُ وطلَبوا حُكْمَهُ .
- **يَسْتَنبِطونَهُ** : يَسْتَخْرِجونَ ما كانَ مُسْتَتِراً عَنِ الأَبْصارِ .



﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ ﴾

لَقدْ تحدَّثتِ الآياتُ القُرآنيَّةُ عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى وطاعةِ رسولِهِ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأمرتْ بذلكَ في كثيرٍ منَ الآياتِ ، وقدْ أُمِرَ المُسْلمونَ في هذهِ السّورةِ بأنْ يُطيعوا اللهَ تعالى ويُطيعوا رَسولَهُ عليْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ ، فقدْ مرَّ قوْلُهُ تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

وَجاءتْ هذهِ الآياتُ لِتُؤكِّدَ على طاعةِ الرّسولِ ﷺ الّذي أرْسلَهُ اللهُ تعالى رَسولاً للنّاسِ جميعا ، وتُبيِّنَ أنَّ طاعتَهُ عليْهِ الصّلاةُ والسَّلامُ طاعةٌ للهِ تعالى ، فهُوَ لا يُبلِّغُ للنّاسِ إلاّ ما أمرَ اللهُ سُبْحانهُ وتعالى بهِ . وكذلكَ يكونُ عِصيانُ الرّسولِ ﷺ عِصْياناً للهِ تعالى ، ومَنْ أعْرضَ عنْ طاعتِكَ الّتي هِيَ طاعةٌ للهِ تعالى فليْسَ لكَ يا مُحمّدُ أنْ تُجبرَهُ على ذلكَ ، فإنَّكَ لمْ تُرْسَلْ للنّاسِ رقيبا وحافظا لأعْمالِهِمْ ، وإنّما أُرْسِلْتَ مُبشّرا ونذيرا .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ ﴾ .

وتَتحدَّثُ الآياتُ عَنِ المُنافِقينَ ، وما يَقولونَهُ للرّسولِ مِمّا يتعلَّقُ بطاعتِهِ ، فَهُمْ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أيْ : إنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ الّذينَ يخْشوْنَ النّاسَ كخَشْيةِ اللهِ أوْ أشدَّ خشْيةً إذا أمَرَهُمْ الرّسولُ ﷺ بأمْرٍ ، يقولونَ لهُ أمْرُكَ طاعةٌ ، أيْ : أمْرُكَ مُطاعٌ ، يُظهِرونَ خُضوعَهُمْ لهُ عليْهِ السّلامُ ، ولكنَّهُمْ إذا خرجوا مِنْ ذلكَ المكانِ الّذي كانوا فيهِ معَ الرّسولِ ﷺ ليْلاً وعادوا إلى بُيوتِهِم ، دبّرَ طائفةٌ مِنْهُمْ غيْرَ الّذي قالتْهُ لكَ في النّهارِ ، فهُمْ يُطيعونَكَ في النّهارِ ويُدبِّرونَ لكَ في اللّيْلِ ، ولكنَّ اللهَ تعالى لهُمْ بالمرْصادِ ، فهُوَ سُبْحانهُ يَكْتُبُ ما يُبيِّتُ ويُدبِّرُ هؤلاءِ ، وذلكَ بأنْ يُنزِّلَهُ في كِتابِهِ ، ويُطْلِعَ عليْهِ نبيَّهُ ﷺ ، ويفْضَحَهُمْ بمِثْلِ هذهِ الآياتِ . وفي هذا تهديدٌ للْمُنافقينَ .

ويأْمُرُ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ بأنْ يُعْرِضَ عَنْ هؤلاءِ المُنافِقينَ ، ولا يَهْتمَّ بما يُبيِّتونَهُ ، وأنْ يُفوِّضَ أمْرَهُ إلى اللهِ تعالى ، فهُوَ سُبْحانهُ سيَكْفيهِ شرَّهُمْ ويَنْتقِمُ مِنْهُمْ . وكفى باللهِ وكيلا وكفيلا لِمنْ توكَّلَ عليْهِ ، واتّبَعَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ .

وأنْكرتِ الآياتُ على هؤلاءِ المُنافقينَ عدَمَ تدبُّرِهِمُ القُرْآنَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ .

والهَمْزةُ للاسْتِفْهامِ الاسْتِنْكاريِّ ، أيْ : أَجَهِلَ هؤلاءِ القوْمُ حقيقةَ رِسالةِ النَّبيِّ ﷺ فلا يَتَدبَّرونَ

القُرْآنَ الكَريمَ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى والّذي اشْتَمَلَ على الهِدايَةِ والأَخْبارِ الصّادِقَةِ ، والأَحْكام الّتي تُراعي مَصالِحَهُمْ . إنّهُم لوْ تدبّروا القُرْآنَ الكريمَ لَعرفوا أنّهُ الحَقُّ مِنْ ربِّهِمْ سُبْحانَهُ وتعالى ، فَقَدْ أَخْبَرَ عَمّا يُخفُونَ في صُدورِهِمْ ، وعمّا يُدبّرونَهُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَلَوْ كانَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ فَهْمٍ لَعَرفوا أنَّ ما أَعَدَّهُ اللهُ لِلْكافِرينَ حَقٌّ كذلكَ ، ولَعَرَفوا أنَّ هذا القُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِكَ يا مُحَمَّدُ ، ولَيْسَ مِنْ عِنْدِ آخرينَ غَيْرِكَ ؛ إذْ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِكَ لَوَجدوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً ، أيْ : لَوَجَدوا الاخْتِلافَ في نَظْمِ القُرْآنِ وبَلاغَتِهِ والتَّناقُضَ في الحَقائِقِ الّتي يَذْكُرُها ، والتَّعارُضَ في الأَخْبارِ الّتي تَرِدُ فيهِ ، وذلِكَ ، أيْ : المَخْلوقُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُصَوِّرَ الحَقائِقَ كَما صَوَّرَها القُرْآنُ الكريمُ ، ولا يَسْتَطيعُ أنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ ما ذُكِرَ في القُرْآنِ مِنْ أُصولِ العَقائِدِ وقَواعِدِ التَّشْريعِ والأَخْبارِ الغَيْبيَّةِ الماضِيَةِ ، أوْ غَيْرِ ذلِكَ ، وصَدَقَ اللهُ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ .

وتَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ مَسْلَكٍ آخرَ مِنْ مَسالِكِ المُنافِقينَ أوْ ضِعافِ الإيمانِ ، فإنَّهُمْ كانوا إذا سَمِعوا أمْراً سَواءً أكانَ فيهِ أمنٌ أمْ خَوْفٌ يَتعلَّقُ بالمُؤْمِنينَ أشاعوهُ ونَشَروهُ دونَ تَحقُّقٍ مِنْهُ أوْ تثبُّتٍ ، وقَدْ يَكونُ هذا الأَمْرُ مُتعلِّقاً بالجَيْشِ المُسْلِمِ الّذي يُقاتِلُ العَدوَّ ، وذَلِكَ أن أَمْرَ المُسْلِمينَ وجَيْشَهُمْ يَنْبَغي أنْ يَظَلَّ سِرّاً ، فلا يُذاعُ أمامَ الجَميعِ حتّى لا يَصِلَ إلى العَدوِّ . والذي يَنْبَغي أنْ يَكونَ في مِثْلِ هذهِ الحالِ أنْ يُرَدَّ الأَمْرُ إلى الرّسولِ ﷺ أوْ أُولي الأَمْرِ مِنَ الصَّحابَةِ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلوا هذا وَردّوا هذا الخَبَرَ إلى الرّسولِ ﷺ والّذي هُوَ قائِدُ الأُمّةِ أوْ إلى كِبارِ الصَّحابَةِ ، ويَعني بذلِكَ أهْلَ الحَلِّ والعَقْدِ ورِجالَ الشُّورى لَوَجدوا عِلْمَ ذَلكَ الأمرِ وحَقيقةَ تِلْكَ الأَخْبارِ عِنْدَهُمْ ، ولَما اسْتَمَرُّوا في تَرْديدِ الأكاذيبِ والشّائِعاتِ غَيْرِ الصّحيحةِ .

إنَّ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَظيمٌ على الخَلْقِ ، فَلولا فَضْلُهُ ورَحْمَتُهُ إذ هَداكُمْ لِطاعتِهِ سُبْحانَهُ وطاعةِ رَسولِهِ ﷺ لاتَّبعتُمُ الشَّيْطانَ ، كَما اتَّبعَهُ أُولئِكَ المُنافِقونَ ، أمّا مَن اسْتَنارَتْ عُقولُهُمْ بِنورِ الإيمانِ وعَرَفوا أحْكامَ اللهِ تَعالى فلا يَتَّبعونَ إلاّ الحقَّ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ طاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للهِ سُبْحانَهُ وتعالى ، فَهُوَ لا يَتكلَّمُ إلاّ عَنْ طَريقِ الوَحْي .

٢ـ تَدبُّرُ القُرْآنِ الكريمِ هُوَ طريقُ الهدايةِ ، فهُوَ يُرْشِدُ إلى كَوْنِه مِنْ عِنْدِ اللهِ وإلى وُجوبِ الاهْتداءِ بِهِ .

٣ـ لَوْ تَدبّرَ المُسْلِمونَ القُرْآنَ واهْتَدَوْا بِهِ ما فَسَدَتْ أَخْلاقُهُمْ ، ولما اسْتَبدَّ بِهِمْ حُكّامُهُمْ ولما زالَ مُلْكُهُمْ .

٤ـ عِنْدَ سماعِ أيِّ خَبَرٍ يَمَسُّ المُسْلِمينَ يَنْبَغِي عَدَمُ نَشْرِهِ قَبْلَ التَّوَثُّقِ مِنْهُ والرُّجوعِ فيه إلى أَصْحابِ الشَّأْنِ للتحقُّقِ مِنْ صِحَّتِه .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ جَعَلَ اللهُ تعالى طاعةَ الرّسولِ ﷺ طاعةً للهِ ، وضِّحْ ذلك بمثالٍ .

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكريمةُ صِفَةً مِنْ صفاتِ المُنافقينَ ، اذْكُرْها مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ ما الواجبُ عَلى المُسْلِمينَ حِيالَ الأَخْبارِ والشّائعاتِ ؟ أيِّدْ إجابَتَكَ بالدَّليلِ .

٥ـ ما معْنى المُفْرداتِ التّاليةِ : بَرَزوا ، يَتدبّرونَ ، أذاعوا ، يَسْتَنْبطونَهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةً مِنْ سورةِ (المُنافقونَ) تَفْضَحُ وتُبيِّنُ ما قالوهُ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الأَنْفالِ الّتي بَيَّنَتْ مَكْرَ الكافرينَ برَسولِ اللهِ ﷺ .

٣ـ اذْكُرْ بَعْضَ القَضايا الّتي وَرَدَتْ في القُرْآنِ الكريمِ في غيرِ الآيةِ (٨٢) ولا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ الإتْيانَ بِمِثْلِها ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الرّابِعُ والعِشْرونَ

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ
شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ
بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حرِّضْ : حُثَّ عَلى الشيءِ وشجِّعْ عَلَيْهِ .

تَنْكيلاً : مُعاقبةً للمُجْرِمِ بما يكونُ فيهِ عبرةٌ لِغَيْرِهِ .

يَشْفَعْ : يَتوسَّطْ بَيْنَ صاحِبِ الحاجةِ ومَنْ عِنْدَهُ الحاجَةُ .

كِفْلٌ : نَصيبٌ وحَظٌّ .

مُقيتاً : مُهَيْمِناً .



﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

لَقَدْ رَغَّبتِ الآياتُ السَّابِقَةُ المُؤْمنينَ في الجِهادِ ، وذَكَرَتْ مَوْقِفَ المُنافِقينَ وضِعافِ الإيمانِ

منه . وجاءت هذه الآياتُ لتأمُرَ الرسولَ ﷺ وأمّتَهُ بالقتال ، فبيّنَ لهُ سُبْحانَهُ وتعالى بأنّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . هو أوْ أيُّ قائد وجُنْديّ منْ أمّته إذا أرادَ الفوْزَ والانْتصارَ على العَدوّ ، فَعَلَيْهِ أنْ يُقاتِلَ في سبيلِ الله تعالى امتثالاً لأمرِه سُبْحانَهُ وتعالى ، وأنْتَ يا مُحمّدُ لا تُكلَّفُ إلا فِعْلَ نَفْسكَ ، فلا تَلْتَفِتْ إلى أقْوالِ وأفْعالِ المُنافقينَ الّذين يقولون لك : طاعةٌ ، ويُبيّتون غيْرَ الّذي يَقولونَ ؛ ولِذا عَلَيْكَ أنْ تتقدّمَ للْجهاد والقتالِ ، وعليْكَ أنْ تحُثَّ غَيْركَ منَ المُؤمنينَ على القتالِ ، وتُرَغِّبَهُمْ فيهِ ، حَتّى ينْفِروا معكَ منْ أجْلِ نُصْرَةِ الحَقِّ والدِّفاعِ عنِ المَظْلومينَ .

وقد امْتثلَ الرّسولُ ﷺ وامْتثلَ صحابتُهُ لأمْرِ اللهِ تعالى ، وخرجوا لِقتالِ أَعْداءِ اللهِ تَعالى .

إنّ تحْريضَ المُؤمنينَ على القتالِ وحثَّهُمْ عليْه ، هُوَ الّذي يحْمِلُهُمْ على الاسْتِعدادِ لَهُ وتَوْطيدِ النّفسِ عليْه ، وهُوَ كذلك يجْعلُ الكافرينَ يتخلّونَ عنِ الاعْتداءِ على المُؤْمِنينَ ، ويَكفُّونَ بَأْسَهُمْ عنْهُمْ ، فليسَ هُناك شيْءٌ يُخيفُ الكافرينَ أعْظمَ منْ رُؤْيتهِمْ لقُوّةِ جيْشِ المُسْلِمينَ ، وقُوّةِ عَدَدِهِمْ وعتادهِمْ ، وعدمِ رهْبتهِمْ منَ الموْتِ .

وخُتِمتِ الآيةُ بقوْلهِ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ وفيهِ حثُّ المُؤْمِنينَ على عَدَمِ الخوْفِ منَ الكافرينَ ، فهُوَ سُبْحانَهُ أشدُّ بأْساً ، وأعْظمُ سُلطاناً ، وأشَدُّ عُقوبةً وتَعْذيباً لِهؤلاءِ الكافرينَ ، وفي هذا ما فيه منَ التّهديد للكافرين ، ليكفُّوا بأْسهُمْ عَنِ المُؤْمنينَ .

ويقولُ سُبْحانهُ وتعالى :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

منْ يتوسّطُ في أمْرٍ يترتّبُ عليْهِ الخيْرُ ، يكُنْ لهُ ثوابٌ منْ هذهِ الشّفاعةِ الحَسَنةِ ، ومَنْ يَتوسَّطْ في أمْرٍ يكونُ في غيْرِ طريقِ الخيْرِ ويترتّبْ عليْه الشّرُّ يكُنْ لهُ نصيبٌ منْ وِزْرِها وإثْمِها ، وذلِكَ لأنّهُ سَعى في الفسادِ ولمْ يسْعَ في الخيْرِ .

والآيةُ تحدّثتْ عنْ حثّ الرّسولِ ﷺ والمُسْلمينَ على القتالِ في سَبيلِ اللهِ تعالى ، فَهُمْ يَدْعونَ إلى الشّرّ ؛ ولِذا فإنّهُ سُبْحانَهُ وتعالى سيُجازي كُلاًّ على عملِهِ ، إنْ كانَ خيْراً فَخَيْرٌ ، وإنْ كانَ شرّاً فشرٌّ ، فهُوَ سُبْحانهُ وتعالى مُقْتدرٌ على كُلِّ شيْءٍ لا يُعْجِزُهُ أنْ يُعْطِيَ الشّافعَ نَصيباً مِنْ شَفاعَتِهِ .

إنّ الشّفاعةَ الحسنةَ والدّعْوةَ إلى الخيْرِ تُؤدّي إلى التّواصُلِ بيْنَ النّاسِ ، وحُسْنِ العَلاقاتِ بَيْنَهُمْ ، وتطهّرُ نُفوسَهُمْ منَ الحقْدِ والحسدِ ، وممّا يُعينُ على ذلك أيْضاً أنْ يُحيّيَ المُسْلِمونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً عندَ اللّقاءِ ؛ ولِذا قال :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ .

أيْ : إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ المُسْلمونَ فَرُدّوا عَلَيْهم بِأَفْضَلَ مِمّا سَلَّموا ، أو رُدُّوا عَلَيْهِم بِمِثْلِ ما سَلَّموا عَلَيْكُم .

إنَّ إفْشاءَ السَّلام بَيْنَ النّاسِ يُؤَدّي إلى تَوْثيقِ العَلاقاتِ بَيْنَهُمْ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ قَوْلُهُ : (لا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حتّى تُؤْمِنوا ، ولا تُؤْمِنوا حتّى تحابُّوا ، أَلا أدلُّكُمْ على أَمْرٍ إذا فَعَلْتُموهُ تَحابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ)[1] ، وعَلَيْهِ فإنَّ ردَّ التَحيةِ لَهُ مَرْتَبَتانِ : أدناهُما : رَدُّ التَّحيَّةِ كما هِيَ ، فَمَنْ قالَ لَكَ : (السَّلامُ عَلَيْكُم) تَقولُ لَهُ : « وعَلَيْكُم السَّلامُ » وأَعْلاهُما : الزِّيادَةُ على تَحيَّتِهِ ، فَتقولُ مَثَلاً لِمَنْ قالَ لكَ « السَّلامُ عَلَيْكُم » ، « وعَلَيْكُم السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ » . وخُتِمَتِ الآيةُ بقَوْلِه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى رَقيبٌ عَلَيْكُم يَعْلَمُ كَيْفَ تتعامَلونَ فيما بَيْنَكُمْ ، وسَيُجازيكُمْ بِما تَستحقّونَ .

وَبَعْدَ أنْ حَثَّتِ الآياتُ على الجهادِ وأَمَرتِ المُسْلِمينَ بإظْهارِ المَودَّةِ فيما بَيْنَهُمْ ، بَيَّنَتْ أنَّ المُسْلِمينَ جَميعاً مَجْزِيُّونَ على أَعْمالِهِمْ ، وذَلِكَ يَوْمَ القِيامةِ ، فقالَ :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآيةُ رُكْنَيْنِ أساسِيَّيْنِ للدِّين :

١ـ تَوْحيدُ اللهِ تَعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ فَهْوَ سُبْحانَهُ المَعْبودُ بحَقٍّ ، ولا مَعْبودَ بحقٍ سِواهُ ، فلا تُقَصِّروا في عِبادَتِهِ سُبْحانَهُ والخُضوعِ لأَمْرِهِ ونَهْيِهِ ، لأنَّ في ذَلِكَ سَعادةَ البَشَرِيَّةِ .

٢ـ الإيمانُ باليَوْمِ الآخِرِ وما فيهِ مِنْ بَعْثٍ لِلْخَلْقِ ، وجَزاءٍ .

إنَّ هذَيْنِ الرُّكْنَينِ هُما اللَّذانِ يَحُثّانِ الإنْسانَ ويَدْفعانِهِ إلى العَمَلِ ، وبخاصّةٍ القِتالُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى والدِّفاعُ عَنِ الدِّينِ .

وخُتِمتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ والاسْتِفْهامُ للإنْكارِ والنَّفْيِ ، أيْ : لا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ تَعالى في هذا الوُجودِ في أَخْبارِهِ سُبْحانَهُ وَوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ ، وذَلِكَ أنَّ الكَذِبَ مُحالٌ على اللهِ تَعالى ، أمّا غَيْرُهُ فإنَّ كَلامَهُ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكَذِبَ ، وفي هذا دَعْوةٌ إلى التَّخَلُّقِ بخُلُقِ الصِّدْقِ ، والاسْتِجابةِ للهِ تَعالى ، الّذي لا يُخْبِرُ إلاّ بما هُوَ صِدْقٌ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قيلا .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٥٤

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العاقِبَةُ ستكونُ دائماً للمُتَّقينَ إذا اسْتَمْسَكوا بأوامِرِ اللهِ تَعالى ، وتركوا نَواهيهُ ، وأَعدُّوا العُدَّةَ مَعَ الصَّبْرِ والثَّباتِ .

٢ـ الشَّفاعةُ تُعَدُّ سَبَباً مِنْ أَسْبابِ التَّواصُلِ بَيْنَ النَّاسِ ، فعلى المُسْلِمِ أنْ لا يشْفَعَ إلاّ بما هُوَ خَيْرٌ .

٣ـ إفْشاءُ السَّلامِ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، يُؤدِّي إلى توْثيقِ العلاقاتِ بيْنَهُمْ .

٤ـ ممّا يَدْفَعُ الإنْسانَ إلى العَمَلِ الصالحِ إيمانُهُ باللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وإيمانُهُ باليَوْمِ الآخِرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ مَنْ يُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ وبَيْنَ مَنْ يُقاتِلُ مِنْ أجْلِ السُّمْعَةِ .

٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريضِ المُؤْمِنينَ على القِتالِ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ ؟ وماذا تُفيدُ هذِهِ العبارةُ ؟

٤ـ بَيِّنِ الفائِدةَ المَرْجُوَّةَ مِنْ إفْشاءِ السَّلامِ بَيْنَ النّاسِ .

٥ـ ردُّ التَّحيّةِ لَهُ مَرْتَبتانِ ، اذْكُرْهُما .

٦ـ ما مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ رُكْنَيْنِ أساسيَّيْنِ للدِّينِ . ما هُما ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ ؟ وما المُسْتَفادُ مِنْها ؟

٩ـ هاتِ مِثالاً عَلى ما يلي :

أ ـ الشَّفاعةِ الحَسنةِ .

ب ـ الشَّفاعةِ السَّيِّئةِ .

ج ـ رَدِّ التحيّةِ بمِثْلِها .

د ـ ردِّ التحيّةِ بأَحْسَنَ مِنْها .

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ مِثالاً مِنْ سيرةِ الرَّسولِ يدُلّ على امْتِثالِه هُوَ وأُمّتُهُ بأمْرِ اللهِ تَعالى ، واكْتُبْهُ في دفْترِك .

٢ـ ما الأمْرُ الّذي نَهى رَسولُ اللهِ عَنِ الشَّفاعة فيه ، اكْتُبْ ذلكَ في دفْترِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دفْترِكَ كيْف يُؤدّي الإيمانُ باللهِ واليوْمِ الآخِرِ إلى حُبِّ الجهاد .

٤ـ وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ تَحُثُّ المُسْلمينَ على إفْشاءِ السَّلامِ فيما بيْنَهُمْ ، اكْتُبْ في دفْترِكَ حديثَيْنِ منْهُما .

٥ـ اكْتُبْ مَوْضوعا في حُدودِ الصَّفْحَةِ والنِّصْفِ عنِ التّحيةِ في الإسْلامِ ، واقْرَأْهُ على طلبة مدْرستِك في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرونَ

۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ
أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟
مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ
صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ
فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ
وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
مُّبِينًا ﴿٩١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فِئَتَيْنِ : جَماعَتَيْنِ .

أَرْكَسَهُمْ : أَرْجَعَهُمْ مَنْكوسينَ ، وَالمَقْصودُ هُنا إلى الغَدْرِ والخِيانَةِ .

أَوْلِياءَ : نُصَراءَ وَمُعينينَ .

ميثاقٌ : عَهْدٌ .

حَصِرتْ : ضاقَتْ .

السَّلَمَ : الاسْتِسْلامَ والانْقِيادَ .

الفِتْنَةِ : الشِّرْكِ .

ثَقِفْتُموهُمْ : وَجَدْتُّموهُمْ .



﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ ما لَكُمْ انْقَسَمْتُمْ في أَمْرِ المُنافِقينَ إلى فَريقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . وَالاسْتِفْهامُ اسْتِنْكاريٌّ ، أَيْ : إِنْكارُ خِلافِ المُؤْمِنينَ في المُنافِقينَ ، وَالأَصْلُ أَنْ يَكونوا عَلى رَأْيٍ وَاحِدٍ .

والمَعْنَى : لَقَدْ بَيَّنْتُ لكُمْ مِنْ قَبْلُ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ أَحْوالِ المُنافِقينَ ، ما يَكْشِفُ عَنْ خُبْثِهِمْ وَبَيَّنْتُ لَكُمْ صِفاتِهِمُ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَحْمِلَكُمْ عَلى الحَذَرِ مِنْهُمْ ، وإذا كانَ هذا حالُهُمْ ما الّذي جَعَلَكُمْ تَخْتَلِفونَ في شأنِهِمْ وتَنْقَسِمونَ إلى فِئَتَيْنِ ؛ فِئَةٍ تُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِمْ وَتُدافِعُ عَنْهُمْ ، وفِئَةٍ أُخْرى كانَتْ صادِقَةً سَليمَةً في أَحْكامِها فَحَذَّرَتْ مِنْهُمْ .

كَيْفَ تَخْتَلِفونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ في شأنِهِمْ وَلَقَدْ صَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الحَقِّ الّذي صِرْتُمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِ، بِسَبَبِ ما اكْتَسَبوهُ مِنْ أَعْمالِ الشِّرْكِ ، وَهُمْ يَتَرَبَّصونَ بِكُمُ الدَّوائِرَ ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعالى يَنْتَكِسونَ عَلى رُؤوسِهِمْ ، فَقَدْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ وَبَعُدوا عَنِ الحَقِّ ، وَتَوَغَّلوا في الباطِلِ ، وبَعْدَ كُلِّ هذا أَتُريدُونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تُغَيِّروا مِنْ نَفْسِيّاتِ هَؤْلاءِ المُنافِقينَ وتَعُدّوهُمْ مِنَ المُهْتَدينَ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَحَبّوا العَمى عَلى الهُدَى ، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ تَعالى لَهُ أَنْ يَكونَ ضالاً عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً إلى الحَقِّ ، وَذلِكَ لأَنَّ مَنْ سَلَكَ طَريقَ الضَّلالَةِ بَعُدَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ . وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

إنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ قَدْ تمادَوْا في الكُفْرِ ، وَدَليلُ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ .

وَتَجِدُ المُنافِقينَ لا يَكْتَفونَ بِكُفْرِهِمْ ، بَلْ هُمْ يَتمنَّوْنَ كُفْرَكُمْ كَذَلِكَ ، فَتَكونونَ أَنْتُمْ وَهُمْ مُتساوينَ في الكُفْرِ وَالنِّفاقِ ، وَإذا كانَ هذا هُوَ حالُهُمْ فَكَيْفَ تَطْمَعونَ في إيمانِهِمْ ؟ وَكَيْفَ تُحْسِنونَ الظَّنَّ بِهِمْ ؟ وإذا كانوا هُمْ كَذَلِكَ فَلا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ أَوْ نُصَراءَ أَوْ أَصْدِقاءَ حَتّى تَتَحَقَّقوا مِنْ إِسْلامِهِمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُهاجِروا مِنْ دارِ الكُفْرِ الّتي يُقيمونَ فيها وَيُناصِرونَ أَهْلَها إلى دارِ الإيمانِ الّتي تُقيمونَ فيها ، وَيَنْضَمُّونَ إلَيْكُمْ لِنُصْرَةِ الحَقِّ ، وإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، إنَّ الصّادِقينَ في إيمانِهِمْ لا يَدَعونَ النَّبيَّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ عُرْضَةً لِلْخَطَرِ ، ولا يَتْرُكونَ الهِجْرَةَ إلاّ إذا عَجِزوا عَنْها .

أَما إنْ أَعْرَضوا عَنِ الهِجْرَةِ في سَبيلِ اللهِ ، وَلَزِموا أَماكِنَهُمْ فَخُذوهُمْ إذا قَدِرْتُمْ عَلى أَسْرِهِمْ ،

واقْتُلوهُمْ أَيْنما وَجَدْتُّموهُمْ سَواءٌ أَكانوا في الحِلِّ أَمْ في الحَرَمِ ، ولا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ وَلِيّاً تُوالونَهُ وتُصادِقونَهُ ، ولا نَصيراً تَنْتَصِرونَ بِهِ عَلى عَدُوِّكُمْ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ .

واسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنْ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذين يَنْبَغي أَنْ يُقْتَلوا الفِئاتِ التّالِيَةَ :

١ـ الّذين يَلْتَجِئونَ وَيَدْخُلونَ في عَهْدِ قَوْمٍ مِنَ المُشْرِكينَ كانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدُ أَمانٍ ، وَهَؤُلاءِ لا يَجوزُ لَكُمْ قَتْلُهُمْ ، حِفاظاً عَلى العَهْدِ الّذي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حُلفائِهِمُ المُشْرِكينَ .

٢ـ الّذين جاءُوا إِلَيْكُمْ وَقَدْ ضاقَتْ نُفوسُهُمْ ، وَانْقَبَضَتْ صُدورُهُمْ عَنْ قِتالِكُمْ وَعَنْ قِتالِ قَوْمِهِمْ لأَنَّهُمْ مِنْهُمْ ، وَقَدْ يَخْشَوْنَ قِتالَكُمْ خَوْفاً عَلى أَمْوالِهِمْ أَوْ عَلى ذُرِّيّاتِهِمْ .

إِنَّ اللهَ تَعالى قَدْ رَحِمَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وذَلِكَ بِأَنَّهُ كَفَّ بَأْسَ هَذَيْنِ الفَريقَيْنِ عَنْكُمْ ، وَصَرَفَهُمْ عَنْ قِتالِكُمْ وَلَو شاءَ اللهُ تَعالى لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُقَوِّيَ قُلوبَهُمْ وَيُجَرِّءَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ يُسالِمُكُمْ .

وَتَسْليطُ اللهِ تَعالى الكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ قَدْ يَكونُ عُقوبَةً لِلْمُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ حِينَ يَنْتَشِرُ بَيْنَهُمُ المُنْكَرُ ، وَتَظْهَرُ المَعاصي ، وَهذا هُوَ حالُ أُمَّتِنا اليَوْمَ ، وقَدْ يَكونُ ابْتِلاءً واخْتِباراً ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

وقَدْ خَتَمَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الآيةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أيْ : إِنْ كَفَّتْ إِحْدى الفِئَتَيْنِ عَنْ قِتالِكُمْ ، وانْقادوا للصُّلْحِ والأمانِ ، واسْتَسْلَموا لأَمْرِكُمْ وَرَضوا بِهِ ، فَما أَذِنَ اللهُ لَكُمْ في أَخْذِهِمْ وقَتْلِهِمْ والاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ ، فالاعْتِداءُ مِنْكُمْ لا يَكونُ إلاّ عَلى مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى حالَ جَماعَةٍ أُخْرى مِنَ المُنافِقينَ المُخادِعينَ وهُمْ غَيْرُ المُسالِمينَ ، الّذين لا يُضْمِرونَ لِلْمُؤْمنينَ إلاّ الشَّرَّ .

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ فِئَةٌ لَمْ تَهْتَدِ وتَدْخُلْ في الإِسْلامِ ، ولَكِنَّهُمْ يُظْهِرونَ الإِسْلامَ أَمامَكُمْ يُريدونَ أَنْ يَأْمَنوكُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ حَتّى لا تَقْتُلوهُمْ ، وهُمْ كَذَلِكَ يُظْهِرونَ الكُفْرَ أَمامَ قَوْمِهِمْ ولا يَتَصَدَّوْنَ لِقِتالِهِمْ لِيَأْمَنوهُمْ

عَلى أنْفُسِهِمْ وأَمْوالِهِمْ ، إنَّهُمْ أُناسٌ يأْتونَ إلى النَّبيِّ ﷺ رياءً ثُمَّ يرْجعونَ إلى قُرَيْش فيرتكسون في الأَوْثانِ ، يَبْتَغونَ بذلِكَ أنْ يأْمَنوها ، فأَمَرَ بقتالِهِمْ إنْ لَمْ يَعْتَزِلوا ويُصْلِحوا .

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إنْ لمْ يَعْتزلوكمْ ويَتْرُكوكُمْ وشَأْنَكُمْ ، ويَنْقادوا إليْكُمْ بالصُّلْحِ ، والاسْتِسْلام لأَمْرِكُمْ ، ويَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عَنِ القِتالِ مع المُشْرِكينَ ، إنْ لَمْ يفْعَلوا هذا فخُذوهُمْ واقْتُلوهُمْ حيْثُ وَجَدْتُموهُمْ ، فَهُمْ لا عِلاجَ لَهُمْ غَيْرُ هذا ، وقد جَعَلَ اللهُ لَكُمْ حُجَّةً بَيِّنَةً واضِحَةً في أخْذِهِمْ وقَتْلِهِمْ ، وجَعَلَ لَكُمُ السُّلْطانَ والغَلَبَةَ عَلَيْهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ الحَذَرُ مِنَ المُنافِقينَ ، الّذينَ يُظهِرونَ غَيْرَ ما يُبْطِنونَ ، والّذينَ يَكونونَ مَعَ المُسْلِمينَ بِوجهٍ ، ومَعَ غَيْرِهِمْ بِوَجهٍ آخَرَ .

٢ـ النَّهْيُ عَنْ مُوالاةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ، وَمَنْ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ وَلِيّاً وصَديقاً ونَصيراً ، فَلْيَكُنْ مِنَ المُؤْمنينَ ، ولا يَكُنْ مِنَ المُنافِقينَ أَوِ الكافِرينَ .

٣ـ سُنَّةُ اللهِ في الأَرْضِ قَضَتْ بأنْ يُسلِّطَ الكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ ، إذا انْتَشَرَ المُنْكَرُ بَيْنَهُمْ ، وظَهَرَتِ المعاصي .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا تُعَدُّ هِدايَةُ المُنافِقينَ صَعْبَةً بَلْ مُسْتَحيلَةً ؟

٢ـ اسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنَ المُنافِقينَ الّذينَ يَجبُ أَنْ يُقْتَلوا فِئَتَيْنِ ، مَنْ هُما ؟

٣ـ أـ ما سَبَبُ اخْتِلافِ المُسْلِمينَ في شَأْنِ المُنافِقينَ ؟

ب ـ إلى أَيِّ أَمْرٍ وَجَّهَ القُرْآنُ المُسْلِمينَ بِخُصوصِ المُنافِقينَ ؟

٤ـ فَسِّرْ كُلاً مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أـ ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ .

ب ـ ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ .

ج ـ ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ .

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السادِسُ والعِشْرونَ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَحْريرُ رَقَبةٍ : إعْتاقُ إنسانٍ مَمْلوكٍ .

مُسَلَّمَةٌ : مُؤدَّاةٌ .

يَصَّدَّقوا : يَعْفوا .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ جاءَ هذا الدِّينُ العَظيمُ لِيُحافِظَ عَلى الإنْسانِ ؛ نَفْسِهِ وعَقْلِهِ وَدينِهِ وعِرْضِهِ وَمالِهِ ، وشَرَعَ مِنَ الأَحْكامِ ما يَحْفَظُها وَيُحافِظُ عَلَيْها .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَمّا فيهِ تَعَرضٌ لِنَفْسِ الإنْسانِ وَدَمِهِ ، فَتَناوَلَتْ حُكْمَ القَتْلِ الخَطَأَ . والقَتْلُ يَنْقَسِمُ إلى أَنْواعٍ ثَلاثَةٍ :

١ـ القَتْلُ العَمْدُ .

٢ـ القَتْلُ شِبْهُ العَمْدِ .

٣ـ القَتْلُ الخَطأ .

قالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾ .

إنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ وَلا مِنْ خُلُقِهِ أَنْ يَقْتُلَ أَحداً مِن المُؤْمنينَ ، وذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْمُلُ إيمانُهُ إلاَّ إذا التَزَمَ بما عَلَيْهِ مِنْ حُقوقٍ تِجاهَ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وتِجاهَ النّاسِ ، وَمِنْ حَقِّ النّاسِ حَقْنُ دمائِهِمْ إنْ كانوا مُسْلِمينَ ، وَإِنْ حَصَلَ وقَتَلَ أحدٌ مُسْلِماً ، فَعَلَيْهِ القِصاصُ ، وهِيَ عُقوبَةٌ قَدَّرَها اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِحَقْنِ دِماءِ المسلمينَ .

وَالقَتْلُ الخَطَأُ أَنْ يَقْتُلَ إنْسانٌ آخَرَ ، وَلكِنْ دونَ قَصْدٍ مِنْهُ ، كَمَنْ يُريدُ أَنْ يَصيدَ حَيَواناً فَيَقْتُلُ إنْساناً ، أَوْ مَنْ يَسيرُ في سَيّارَتِهِ فَيَدْهَسُ إنْساناً فَيموتُ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ حُكْمَ القَتْلِ الخَطَأ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ، أَيْ : مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَعَلَيْهِ تَحْريرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، أَيْ : عِتْقُها مِنَ الرِّقِّ ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ تَكونَ هَذِهِ الرَّقَبَةُ الّتي يُعْتِقُها مُؤْمِنَةً ، وذَلِكَ لأَنَّهُ قَتَلَ نَفْساً مُؤْمِنَةً ، وعَلَيْهِ كَذَلِكَ أَنْ يَدْفَعَ لأَهْلِ المَقْتولِ الدِّيَةَ ، وَهِيَ المالُ الواجِبُ بِالجِنايَةِ عَلى الحُرِّ في النَّفْسِ ، وَهِيَ تُعْطَى إلى وَرَثَةِ المَقْتولِ تَطْييباً لِنُفوسِهِمْ بَعْدَ مَوْتِ أَحَدِهِمْ ، وَقَدْ حَدَّدَتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ هَذِهِ الدِّيَةَ وَهِيَ مائَةٌ مِنَ الإِبِلِ مُخْتَلِفَةٌ في أَعْمارِها ، أَوْ قيمَتِها مالاً ، وَالدِّيَةُ في القَتْلِ الخَطَأ تَكونُ عَلى العاقِلَةِ ، أَيْ : عَشيرَةِ القاتِلِ ، وَهِيَ مُؤَجَّلَةٌ لِمُدَّةِ ثَلاثِ سَنَواتٍ .

وَمَعْنى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ أَيْ : إلاَّ إذا تَبَرَّعَ أَهْلُ المَقْتولِ فَعَفوا وَصَفَحوا عَنِ القاتِلِ ، وذَلِكَ لأَنَّ الدِّيَةَ إنَّما شُرِعَتْ تَطْييباً لِقُلوبِ أَهْلِ المَقْتولِ ، حَتَّى لا تَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ القاتِلِ وَالمَقْتولِ عَداوَةٌ وَبَغْضاءُ ، فإذا عَفوا وَتَنازَلوا عَنِ الدِّيَةِ فَقَدْ طابَتْ نُفوسُهُمْ ، هذا إذا كانَ المَقْتولُ مِنَ المُؤْمِنينَ .

وَأَمّا إنْ كانَ هذا المَقْتولُ خَطَأً مِنْ أَعْدائِكُمْ ، فَفي ذَلِكَ تَفْصيلٌ : إذا كانَ المَقْتولُ مُؤْمِناً لَكِنَّهُ

يَعيشُ مَعَ الكافرينَ ، والمُسْلِمونَ لا يَعْلَمونَ إيمانَهُ ، وذَلِك مِثْلُ الحارِثِ بنِ يَزيدَ الّذي كانَ مِنْ قُرَيْش وَهُمْ أَعْداءُ النَّبيِّ ﷺ وَالمُؤْمِنونَ في حَرْبٍ مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمِ المُسْلِمونَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ لأَنَّهُ لَمْ يُهاجِرْ ، وَقَدْ قَتَلَهُ عَيّاشُ بنُ أَبي رَبيعَةَ وَهُوَ لا يَعْلَمُ بِإيمانِهِ ، فَالواجِبُ على قاتِلِه عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ فَقطْ ، وَلا يَجبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الدِّيَةِ لأَهْلِهِ ، لأَنَّهُمْ مُحارِبونَ للإِسْلام والمُسْلِمينَ .

وَقَدْ يَكونُ هذا المَقْتولُ مِنْ قومٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ وَهُدْنَةٌ ؛ أَيْ : عاهَدُوكُمْ عَلى السِّلْمِ فَلا يُقاتِلونَكُمْ ، فَالواجِبُ عَلَيْكُمْ في قَتْلِ المُعاهَدِ خَطَأً ، كَالواجِبِ عَلَيْكُمْ في قَتْلِ المُؤْمِنِ وَهُوَ دِيَةٌ تَدْفَعونَها إلى أَهْلِ المَقْتولِ ، تَعْويضاً لَهُمْ عَنْ حَقِّهِمْ ، وَعِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ . وَدِيَةُ الكافِرِ هِيَ نِصْفُ دِيَةِ المُسْلِم .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الحُكْمَ فيمَنْ لَمْ يَجِدِ الرَّقَبَةَ ، إمّا لأَنَّهُ لا يَمْلِكُ المالَ لِيَشْتَرِيَها ، أَوْ لِعَدَمِ وُجودِها بِسَبَبِ انْتِهاءِ عَهْدِ الرِّقِّ ، كَما هُوَ الحالُ في أَيّامِنا ، فَعَلَيْهِ صِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ ، لا يُفْطِرُ بَيْنَهُما أَبَداً إلاّ بِعُذْرٍ شَرْعِيٍّ ، وَقَدْ شَرَعَ اللهُ تَعالى هَذِهِ الكَفّارَةَ لِيَتوبَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَيُّها النّاسُ وَيُطَهِّرَ نُفوسَكُمْ مِنَ التَّهاوُنِ في أَرْواحِ النّاسِ وَدِمائِهِمْ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ، أَيْ : كانَ سُبْحانَهُ وتَعالى وَما زالَ عَليماً بالنفوسِ وما فيها ، حَكيماً في كُلِّ ما شَرَعَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَقَضاهُ .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ القَتْلِ الخَطَأ ، انْتَقَلَتْ إلى الحديثِ عَنِ القَتْلِ العَمْدِ ، فَبَيَّنَتْ أَنَّ جَزاءَ مَنْ يَقْتُلْ مُتَعَمِّداً جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، أَيْ : ماكِثاً فيها مُدَّةً طَويلَةً لا يَعْلَمُ مِقْدارَها إلاّ اللهُ ، وَغَضَبُ اللهِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَهَيَّأَ لَهُ عَذاباً عَظيماً . فالعَذابُ كَما رَأَيْنا مادِيٌّ وَهُوَ جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، وَمَعْنَوِيٌّ وَهُوَ غَضَبُ اللهِ عَلَيْهِ وَطَرْدُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وفي هذا تَهْديدٌ وَوَعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ عامِداً مُتَعَمِّداً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّفْسُ الإِنْسانِيَّةُ مِنَ المُحَرَّماتِ الّتي لا يَجوزُ التَّعَرُّضُ لَها أَبَداً .

٢ـ قَتْلُ المُؤْمِنِ خَطَأً ، يوجِبُ عَلى الإِنْسانِ كَفّارَةً لِما ارْتَكَبَهُ ، وَدِيَةً يَدْفَعُها لأَهْلِ المَقْتولِ تَطْييباً لِنُفوسِهِمْ .

٣ـ التَّكافُلُ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، والتَّعاوِنُ ، حَيْثُ أَوْجَبَ سُبْحانَهُ دِيَةَ القَتْلِ الخَطَأ عَلى عاقِلَةِ القاتِلِ .

٤ـ القَتْلُ العَمْدُ ذَنْبٌ عظيمٌ يَرْتَكِبُهُ الإِنْسانُ ، فَيوجِبُ جَزاءً عَظيماً مِنَ اللهِ تعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَدِّدِ الضَّروراتِ الخَمْسَ .

٢ـ يَنْقَسِمُ القَتْلُ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ ، اذْكُرْها .

٣ـ عَرِّفِ القَتْلَ الخَطَأَ ، وهاتِ مِثالاً عَلَيْهِ .

٤ـ ما جَزاءُ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٥ـ ماذا يَتَرَتَّبُ عَلى مَنْ قَتَلَ خطأً كُلاً مِمَّنْ يَلي :

أ ـ المُؤْمِنُ الَّذي يعيشُ في بِلادِ المُسْلِمينَ .

ب ـ المُؤْمِنُ الَّذي يَعيشُ في بِلاد الكُفْرِ ولا يُعْرَفُ إِسْلامُهُ .

ج ـ الشَّخْصُ الَّذي يعيشُ في بِلادٍ بَيْنَ أَهْلِها وَبَيْنَ المُسْلِمينَ عَهْدٌ وَصُلْحٌ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الضَّروراتِ الخَمْسَ الَّتي شَرَعَ اللهُ حِفْظَها للإِنْسانِ .

٢ـ فَرِّقْ بَيْنَ هَذِهِ الأَنْواعِ مِنْ حَيْثُ المَعْنى ، واكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ عُقوبَةَ القَتْلِ العَمْدِ كَما جاءَ في سورَةِ البَقَرَةِ .

٤ـ اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ القَتْلِ الخَطَأِ والقَتْلِ العَمْدِ مِنْ حَيْثُ العُقوبَةُ والدِّيَةُ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ السَّابِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ السَّابِعُ والعِشْرونَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ
لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ
كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ضَرَبْتُمْ في سَبيلِ اللهِ : سِرْتُمْ لِلسَّفَرِ أَوْ لِلجِهادِ .

تَبَيَّنوا : تَثَبَّتوا .

أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ : انْقادَ واسْتَسْلَمَ لَكُمْ .

مَغانِمُ كَثيرَةٌ : رِزْقٌ وَفَضْلٌ كَثيرٌ .

الضَّرَرِ : المَرَضِ .

الحُسْنَى : الجَنَّةَ .

التَّفْسيرُ :

عَنِ ابنْ عَبّاسٍ قالَ : مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنى سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ يَسوقُ غَنَماً لَهُ ،

فسَلَّم عَلَيهِمْ ، فقالوا : ما سَلَّمَ علَيْنا إلاّ لِيتعوَّذَ مِنّا ، فعَمَدوا إلَيْهِ فقَتَلوهُ وأتَوْا بِغَنَمِه النَّبيَّ ﷺ فنَزَلَتْ هذه الآيَةُ[1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

يُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ المُؤْمنينَ ، مُنادِياً لَهُمْ بهذا النِّداءِ المُحبَّبِ إلى نُفوسِهِمْ لإلْهابِ مَشاعِرِهِمْ وَحَثِّهِمْ عَلى الالتِزام بما أُمِروا بِهِ ، وَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، إذا سِرْتُمْ في الأَرْضِ لِلغَزْوِ وَجِهادِ الأَعْداءِ وَإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أَيْ : تَأنَّوا في قَتْلِ مَنْ اشْتُبِهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ أَهُوَ مُسْلِمٌ أَمْ كافِرٌ ، وَتَثَبَّتوا مِنْ خَبَرِهِ ولا تُعَجِّلوا في قَتْلِه ، ولا تَقولوا لِمَنِ انْقادَ لَكُمْ واسْتَسْلَمَ ، وَلَمْ يُقاتِلْكُمْ وَأَظْهَرَ إسلامَهُ ، ونَطَقَ بالشَّهادَتَيْنِ ، لا تقولوا لَهُ لَسْتَ مُؤْمِناً ، وَلكِنَّكَ نَطَقْتَ بالشَّهادَتَيْنِ خَوْفاً مِنَ القَتْلِ ، وذَلِكَ لأَنَّ عِلْمَ السَّرائِرِ للهِ تعالى وَحْدَهُ . إنَّهُ لا يَنْبَغي لَكُمْ أَنْ تَقْتُلوهُ طَمَعاً في مَتاعِ الدُّنْيا وَحُطامِها ، وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى عِندَهُ الرِّزْقُ العظيمُ ، وَالنِّعَمُ الّتي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنه قالَ للقاتل : « فهَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِه فعلِمْتَ ما في قَلْبِه »[2] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمنين : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : إنَّكُمْ أَوَّلُ ما دَخَلْتُمْ الإسْلامَ وَنَطَقْتُمْ بالشَّهادَتَيْنِ حُقِنَتْ دِماؤُكُمْ ، وَلَمْ يَبْحَثْ أَحَدٌ أَوْ يَسْأَلْ عَمّا في قُلوبِكُمْ ، أَكانَ مُوافِقاً لِما نَطَقْتُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ أَمْ لا ؟

لَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعالى علَيْكُمْ بأَنْ عَصَمَ دِماءَكُمْ وَلَمْ يَأْمُرْ بِتَفَحُّصِ سَرائِرِكُمْ ، فعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَصَرَّفوا مَعَ الدّاخِلينَ في الإسْلام كَما فُعِلَ بِكُمْ ، وَأَنْ تَكْتَفوا بالظّاهِرِ .

وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بالتَّبَيُّنِ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَفي هذا ما فيهِ مِنَ المُبالَغَةِ والتَّحْذيرِ لِلْمُؤْمنينَ ، وَالمَعْنى : إذا كانَ الأَمْرُ كذلِكَ فَتَبَيَّنوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وداوِموا عَلى شُكْرِها ، وَقيسوا أَحْوالَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَاقْبَلوا ما تَرَوْنَهُ وَتَسْمَعونَهُ مِنْ ظاهِرِ هَؤُلاءِ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ إنَّهُ تَعالى خَبيرٌ بأَعْمالِكُمْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمّا في نُفوسِكُمْ ، فيُحاسِبُكُمْ عَلَيْه ، إنْ كانَ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وَإنْ كانَ شَرّاً فَشَرٌّ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٢٢٩ حديث رقم ٢٠٢٣ وذكره الحافظ في الفتح ٨/ ٢٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن برقم ٣٩٣٠ .

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ القتالَ في سبيلِ الله تعالى منْ أعظمِ الأعْمالِ الّتي يُتقرّبُ بها إلى اللهِ تعالى ، وَلِذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتوِيَ عنْدَ اللهِ تعالى القاعِدونَ عَنِ الجهادِ في سبيلِهِ سُبْحانَهُ وتعالى بأمْوالِهِمْ بُخْلاً وحِرْصاً عَلَيْها ، وبأَنْفُسهِمْ جُبْناً وخوْفاً ، مع المُجاهِدين الّذين بَذلوا أَمْوالَهُمْ وأَنْفُسَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تعالى . إن القاعدينَ عَنِ الجهادِ لا يُمْكنُ أنْ يكونوا مُتساوِين مع المُجاهِدينَ ، إلاّ أُولَئِكَ الّذينَ قَعَدوا عَنِ الجهادِ بِسَببِ عِلّةٍ أَصابَتْهُمْ ، فأقْعَدَتْهُمْ عن القتالِ مِنْ عَرَجٍ أوْ عَمىً أَوْ ضَعْفٍ .

لَقَدْ فضَّلَ اللهُ تعالى المُجاهِدينَ بأمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ على القاعِدينَ عَنِ الجهادِ بِسَبَبِ الضَّرَرِ دَرجَةً لا يَعْلَمُ قَدْرَها إلاّ اللهُ تعالى ، فقَدْ بَذلوا أَنْفُسَهُمْ وأَرْواحَهُمْ وأمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَلِذا فَقَدْ أَكْرمَهُمْ اللهُ تَعالى بِالثّوابِ العاجِلِ في الدُّنْيا مِنَ الغَنيمةِ والظَّفرِ والذِّكرِ وَدَفْعِ شرِّ الأَعْداءِ .

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أيْ : وعدَ اللهُ تعالى كُلاً مِمَّنْ جاهَدَ في سَبيلِهِ تَعالى وَقَعَدَ عَنْ الجهادِ بِسَبَبِ العَجْزِ ، وَهْو يتمنّى أنْ لوْ كانَ قادِراً لِيُشارِكَ بالجِهادِ ، لَقَدْ وَعَدَهُمُ المَثوبَةَ الحُسْنى ، وَهِيَ الجَنَّةُ لِحُسْنِ عَقيدتِهِمْ وَصِدْقِ نِيَّتِهِمْ .

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إنَّ الله تعالى فضَّلَ المُجاهِدينَ عَلى الّذينَ قَعَدوا عَنِ الجهادِ بِغَيْرِ عُذْرٍ أَوْ بِدونِ سببٍ بالأَجْرِ العَظيمِ وَالثّوابِ الجزيلِ ، وَالمَنْزِلَةِ الرَّفيعَةِ . وَهذا الأَجْرُ هُوَ دَرجاتٌ عَظيمَةٌ ، أيْ : مَنازِلُ رَفيعَةٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، والمَغْفِرَةُ مِنَ اللهِ تَعالى لِما كانَ مِنْهُمْ مِنْ ذُنوبٍ ، والرَّحْمَةُ ، وَهِيَ ما يَخُصُّهُمْ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وإحْسانِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ وهْوَ يَسيرُ إلى تبوكَ « إنَّ بالمَدينَةِ أَقْواماً ما سِرْتُمْ مِنْ سَيْرٍ ، ولا قَطَعْتُمْ مِنْ وادٍ إلاّ وَهُمْ مَعكُمْ فيهِ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ ، وَهُمْ بِالمَدينَةِ ؟ قالَ : حَبَسَهُمُ العُذْرُ »[1] .

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤١٦١ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ حُرْمَةُ دِماءِ المُسْلِمينَ ، فَمَنْ نطق بالشَّهادَتَيْنِ فقَدْ عصَمَ دمَهُ ومالَهُ وعِرْضهُ .

٢ـ عَدَمُ قَبولِ الأُمورِ والأَخْبارِ دونَ تَثَبُّتٍ وَتيَقُّنٍ .

٣ـ المُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تعالى لهُمْ أَجْرٌ عَظيمٌ عِندَ اللهِ تَعالى ، وقَدْ فضَّلهُمُ اللهُ تَعالى على القاعِدينَ عَنِ الجِهادِ .

٤ـ القاعِدونَ عَنِ الجِهادِ بِسَبَبِ ضَرَرٍ ، لهُمْ أَجرٌ عِنْدَ اللهِ تعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قالَ تَعالى : ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ في سَبيلِ اللهِ فتَبيَّنُوا﴾ ما سببُ نُزولِ هذهِ الآيَةِ ؟

٢ـ لِماذا خاطَبَ اللهُ المُؤْمنينَ بهذا النِّداءِ ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾ ؟

٣ـ بِماذا مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمنينَ بقَوْلِه : ﴿فمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ ؟

٤ـ لِماذا كانَ القِتالُ مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمالِ الّتي يَتَقَرَّبُ بِها المُؤْمِنُ إلى اللهِ تَعالى ؟

٥ـ ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ﴾ ما المقْصودُ هُنا بالحُسْنى ؟

٦ـ فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ عَلى القاعِدينَ ، بيِّنْ هذا التَّفْضيلَ على كُلٍّ مِنْ :

أ ـ أَهْلِ الضَّرَرِ وأَصْحابِ الأعْذارِ الّذينَ قعدوا .

ب ـ القاعِدينَ بِغَيْرِ عُذْرٍ أَوْ ضَرَرٍ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يُبيِّنُ كيْفَ يَعْصِمُ الإسْلامُ دمَ مَنْ يدْخُلُ فيهِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ عَلى حَثِّ الرَسولِ ﷺ على الجِهادِ وحَثِّ النَّفْسِ عليهِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والعِشْرونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ
عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن
يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَوَفَّاهُم : تَأْخُذُهُمْ أَخْذاً وافِياً كامِلاً لا نَقْصَ فيهِ، ويُقْصَدُ بِهِ هُنا الوَفاةُ عِنْدَ المَوْتِ.

مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ : لا نَقْوَى عَلى إقامَةِ شَعائِرِ دينِنا .

مَأْواهُمْ : مَسْكَنُهُمْ .

حيلَةً : طَريقاً لِلخَلاصِ مِنْ تَسَلُّطِ الكافِرينَ .

مُراغَماً : مَكاناً لِلْهِجْرَةِ وَمَأْوىً يُصيبُ فيهِ الخَيْرَ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ ، وَالقاعِدينَ عَنِ الجِهادِ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ أُولَئِكَ الَّذينَ يَقْطُنونَ في دارِ الكُفْرِ ، وَهُمْ مُسْلِمونَ ، وقَدْ أَذَلَّهُمُ الكُفَّارُ ، وَاسْتَضْعَفوهُمْ وَمَنَعوهُمْ مِنْ إقامَةِ شَعائِرِ دينِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُهاجِروا إِلى دارِ الإِسْلامِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ الّذين توفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وقبضتْ أرْواحهُمْ حينَ انْتهتْ آجالُهُمْ ، حالةَ كوْنِهمْ قدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ رضاهُمْ بالذُّلِّ وَالهوانِ ، وبِسَببِ إقامَتِهِمْ في أرْضٍ لا يَسْتطيعونَ فيها مُباشَرَةَ تَعاليمِ دينِهِمْ وَنُصْرَتَهُ وَإِظهارَ شَعائِرِهِ ، إنَّ هؤلاءِ تَسْأَلُهُمُ الملائكةُ سُؤالَ توبيخٍ وَتَقْريعٍ في أيِّ شيْءٍ كُنْتُمْ مِنْ أَمْرِ دينِكُمْ ؟ أَكُنْتُمْ في عِزَّةٍ أَمْ ذِلَّةٍ ؟ وكيْفَ رضيتُمْ أنْ تظَلُّوا في دارِ الكُفْرِ معَ الذينَ أذَلُّوكُمْ وَأَهانوكُمْ ؟ وَسَخِروا مِنْ دينِكُمْ ؟

وَلَكِنْ بماذا أَجابوا المَلائِكَةَ ؟ قالوا : كُنّا مُسْتَضْعَفين في الأَرْضِ ، لَقَدِ اعْتَذَروا بهذا العُذْرِ الواهي عَنْ تَقْصيرِهِمْ ، فقالوا : لَقَدْ كُنّا في الدُّنْيا مُسْتَضْعَفينَ ، اسْتَضْعَفَنا أَهْلُ الشِّرْكِ في أَرْضِنا وَبِلادِنا ، وَأَذَلُّونا حَتّى عَجَزْنا عَنِ القيامِ بواجباتِ الدِّينِ . إنَّ هذا الاعْتذارَ قَبيحٌ يَدُلُّ على هَوانِهِمْ وَضَعْفِ نُفوسِهِمْ .

وَهَلْ قَبِلَتِ المَلائِكَةُ هذا العُذْرَ ؟ بالطَّبْعِ إنَّها لَمْ تَقْبَلْ ؟ فبماذا رَدَّتْ على هؤلاءِ المُسْتَضْعَفينَ ؟ لَقَدْ قالَتْ لَهُمْ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ والاسْتفْهامُ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ ، وَذلكَ أَنَّ الأَرْضَ الّتي خَلَقَها اللهُ تَعالى واسِعَةٌ ، فَكانَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَرْحَلوا إلى قُطْرٍ آخرَ منَ الأَرْضِ ، يَقْدِرونَ فيه على إقامَةِ دينِهِمْ وَتَحْريرِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الانْجرافِ خلْفَ الكافرينَ .

إنَّ أُولئِكَ الّذينَ اسْتُضْعِفوا مِنْ قِبَلِ المُشْرِكينَ ، وَقبِلوا بالذُّلِّ وَظلَموا أَنْفُسَهُمْ مأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَتْ مَصيراً لَهُمْ . إنَّ الإنْسانَ الّذي لا يَتمكَّنُ مِنْ إقامَةِ دينِهِ كما يَجِبُ وكما يَنْبَغي في بلدِهِ وجبَتْ عَلَيْهِ الهِجْرَةُ إلى بَلَدٍ آخرَ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ ذلكَ .

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ .

وَقَدِ اسْتَثْنى سُبْحانَهُ وتعالى مِنْ هذا المَصيرِ السّيِّءِ أَصْنافاً ثلاثَةً : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ إنَّهُمْ الرِّجالُ الّذينَ عَجزوا عنِ الهِجْرةِ لِضعْفِهِمْ أوْ مرضِهِمْ أوْ شَيْخوخَتِهِمْ ، وَالنِّساءُ اللّاتي لا يَسْتَطِعْنَ الخُروجَ ، وَالوِلْدانُ الّذينَ لَمْ يَبْلُغوا الحُلُمَ ، ولا يَسْتَطيعونَ الهِجْرةَ بِمُفْرَدِهِمْ .

وَقَدْ قالَ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ فَقَدْ ضاقَتْ بِهِمُ الحِيَلُ ، فلَمْ يَسْتَطيعوا الهِجْرةَ إمّا لِلْعَجْزِ كَمَرَضٍ ، وَإِمّا لِلْفَقْرِ ، وَإِمّا لِلْجَهْلِ بِمَسالِكِ الأَرْضِ ، فلَوْ خَرجوا لَهلَكوا ، أُولئِكَ عسى أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُمْ وَيَتجاوَزَ عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، فلا يُؤاخِذُهُمْ على إقامَتِهِمْ في دارِ الكُفْرِ . وفي هذا بيانٌ منَ اللهِ تَعالى بِأَنَّ تَرْكَ الهِجْرَةِ مِنْ دارِ الكُفْرِ أَمْرٌ خَطيرٌ ، فَلابُدَّ أَنْ يُهاجِرَ المُسْلِمُ ولَوْ باسْتِعْمالِ الحِيَلِ ،

وَعلَيْه أَنْ يُحدِّثَ نَفْسَهُ دائماً بالهجْرَة ، ويَترَصَّدَ كُلَّ فُرْصة لها وبخاصَّة إذا مُنع منْ إقامة دينه .

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

إنَّ الهجْرَةَ منْ دارِ الكُفْر فيها إعْلاءٌ لكَلمَة الله تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ مَنْ يُهاجرْ بقَصْد إرْضاء الله تعالى ، وإقامة دينه كما يَجبُ وكما يُحبُّ يجدْ مُراغماً كثيرا ، والمُراغَمُ : المَتَحَوَّلُ والمُتَزَحْزَحُ ، فهُو اسْمُ المَوْضع الّذي يُراغَمُ فيه ، وقدْ اشْتُقّ منَ الرَّغام ؛ التُّراب ؛ ويُقالُ رَغمَ أَنْفُ فُلانٍ ، أَيْ : لصقَ بالتُّراب ، وقدْ جاءتْ هذه الكلمةُ لتُبيِّنَ أنَّ هذا الّذي أرْغَمتْ قُرَيْشٌ أنْفَهُ فأذلّتْهُ واسْتَضْعَفَتْهُ ، لوْ هاجر فإنَّهُ سيُرْغمُ أُنوفَ قُرَيْش لأنَّهُ سيصيرُ في مَنَعَة منْهُمْ .

إنَّ مَنْ يُهاجرْ تاركاً دارَ الكُفْر منْ أَجْل إعْلاء كَلمة الله تعالى وإعْزاز دينه ، يَجدْ في الأرْض أماكنَ كثيرةً يأْمَنُ فيها مَكْرَ أَعْداء الله تعالى وظُلْمَهُمْ ، ويجدُ فيها كذلك كثيرا منَ الخيْر والنِّعْمَة والسَّعة في الرزْق ما يكونُ سَبيلاً يُرْغمُ به أُنوفَ مَنْ كانوا يَسْتضْعفونَهُ .

وبَعْدَ أنْ وَعَد اللهُ سُبْحانَهُ مَنْ يَخْرُجُ في سَبيله مُهاجرا بالعزّة والخيْر الوَفير ، تحدَّثَ عَمَّنْ يَخْرُجُ مُهاجراً في سَبيله سُبْحانَهُ ، ولَكنَّهُ يَموتُ في الطَّريق قَبْلَ أنْ يَصلَ إلى المكان الّذي يأْمَنُ فيه على دينه ، وأنَّ هذا قدْ وَجَبَ أَجْرُهُ على الله تعالى ، ولمْ يَذْكرْ سُبْحانَهُ ماهيّةَ هذا الأجْر بلْ تَرَكَهُ مُبْهَماً (أَجْرُهُ) ليَدُلَّ على عَظَمَته ويُؤكِّدَ ثُبوتَهُ ، ولله تعالى أنْ يوجب على نفْسه ما يشاءُ وهذا تَفَضُّلٌ وكَرَمٌ منْهُ تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فيَغْفرُ لأمْثال هؤلاء المهاجرين ويَرْحَمُهُمْ رَحْمَةً واسعةً منْهُ سُبْحانَهُ ، نَسْأَلُ اللهَ تعالى أنْ يَرْحَمَنا جميعاً رَحْمةً تُغْنينا عنْ رحْمة منْ سواهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروس وعبَر كثيرة ، منْها :

١ـ وجوبُ الهجْرَة منَ البَلَد الّتي لا يَسْتَطيعُ المُسْلمُ أنْ يُقيمَ شعائر دينه فيها .

٢ـ مَنْ خرَجَ للهجْرَة في سَبيل الله وَماتَ في الطَّريق أَعْطاهُ اللهُ تعالى أَجْراً عَظيماً .

٣ـ يَجبُ على جَماعَة المُسْلمينَ أنْ تكونَ لَهُمْ دَوْلَةٌ قويّةٌ تَنْشُرُ دَعْوَةَ الإسْلام وتُقيمُ أَحْكامَهُ وحُدودَهُ وتَحْمي دُعاتَهُ وأَهْلَهُ .

التَّقويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مِنْ خِلالِ هذهِ الآياتِ وَرَدَ حِوارٌ بيْنَ المَلائكةِ ومَنْ يَتوفَّوْنَهُمْ ، اذْكُرْ هذا الحِوارَ ، وماذا نَسْتَفيدُ مِنْهُ ؟

٢ـ ما حُكْمُ مَنْ أقامَ بدارِ الكُفْرِ وَعَجزَ عنِ القيامِ بأُمورِ دينِه ؟

٣ـ اسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنَ الّذينَ هاجروا وَتركوا ديارَهُمْ ولَمْ يَرْجعوا إلى دارِ الإيمانِ ثَلاثةً عَفا اللهُ عَنْهُمْ وَتجاوَزَ عنْهُمْ ، اذْكُرْهُمْ .

٤ـ قالَ تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ اشْرَحْ هَذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ .

٥ـ ماذا نَسْتفيدُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورتَيْنِ لِما يُجْبَرُ عَلَيْهِ المُسْلِمونَ في بِلادِ الكُفْرِ اليَوْمَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حديثاً يَدُلُّ عَلى أنَّ الإنْسانَ يُحاسَبُ عَلى نِيَّتِه .

فَكِّرْ :

ـ اذْكُرِ الفَرْقَ بَيْنَ مَنْ يُضطرُّ لأكْلِ الحرامِ فَيأْكُلُهُ مُضطرّاً ، وَمَنْ يَعْصي اللهَ ، ويُعَطِّلُ أَحْكامَ دينِهِ لِيُرْضِيَ الكُفّارَ الّذينَ يَعيشُ مَعَهُمْ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والعِشرونَ

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ : سافَرْتُمْ فيها .
جُناحٌ : تَضْييقٌ وَإِثْمٌ .
يَفْتِنَكُمْ : يُؤْذوكُمْ بِالقَتْلِ وَبِغَيْرِهِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

شَرَعَ اللهُ تَعالى مِنَ الأَحْكامِ ما فيهِ تَيْسيرٌ عَلى المُسْلِمينَ ، وَرَفَعَ الحَرَجَ وَالمَشَقَّةَ عَنْهُمْ . لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ أَحْكامِ مَنْ سافَرَ لِلْجِهادِ ، أَوْ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَأَرادَ أَنْ يُصَلِّيَ

وَلَكِنَّهُ خاف أَنْ يُفْتَنَ فيها ، فَأَباحَ لَهُمْ سُبْحانَهُ قَصْرَ الصَّلاةِ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ كَيْفَ يُؤَدُّونَها في حالِ الجِهادِ وَالخَوْفِ مِنْ مُباغَتَةِ العَدُوِّ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمنينَ : إذا سافَرْتُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ أَوْ إِثْمٌ في أَنْ تَقْصُروا الصَّلاةَ ، أَيْ : أَنْ تُنْقِصوا مِنْها تَخْفيفاً مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً .

إِنْ خِفْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ يَتَعرَّضَ لَكُمُ العَدُوُّ بِما تَكْرَهونَهُ حينَ تُسافِرونَ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ أَنْ تَقْصُروا مِنَ الصَّلاةِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الكافِرينَ كانوا وَما يَزالونَ أَعْداءً لَكُمْ ، يُظْهِرونَ العَداوَةَ ، وَما يُخْفونَهُ لَكُمْ في صُدورِهِمْ مِنْ حَسَدٍ وَحِقْدٍ وَكَراهِيَةٍ أَكْبَرُ وَأَشَدُّ مِمَّا يُظهِرونَهُ لَكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَحْذَروهُمْ .

إِنَّ القَصْرَ في الصَّلاةِ لِلمُسافِرِ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَما يُحِبُّ أَنْ تُؤْتى عَزائِمُهُ ، وَالمَسافَةُ الَّتي تُبيحُ القَصْرَ لِلمُسافِرِ قدَّرَها العُلَماءُ بـ (٨١ كم) ، فَإذا سافَرَ الإِنْسانُ سَفَراً يَقْطَعُ فيهِ هَذِهِ المَسافَةَ ، فَيُباحُ لَهُ القَصْرُ في الصَّلاةِ .

لَقَدْ أَباحَ اللهُ تَعالى قَصْرَ الصَّلاةِ لِلمُسافِرِ سَواءٌ أَكانَ في حالَةِ أَمْنٍ أَمْ حالَةِ خَوْفٍ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ قَيَّدَ هُنا القَصْرَ بِقَوْلِهِ ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لأَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الغالِبِ ، فَقَدْ كانَ المُؤْمِنونَ لا يَأْمَنونَ في أَسْفارِهِمْ ، بَلْ إِنَّهُمْ كانوا لا يُسافِرونَ إلاَّ لِغَزْوٍ أَوْ جِهادٍ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحاديثُ الكَثيرَةُ الَّتي تَدُلُّ عَلى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَقْصُرُ وَهُوَ آمِنٌ .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ كَيْفِيَّةَ صَلاةِ الخَوْفِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ إذا كُنْتَ في جَماعَتِكَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وَأَرَدْتَ أَنْ تُقيمَ الصَّلاةَ فيهِمْ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْسِمَ جَماعَتَكَ إِلى قِسْمَيْنِ :

القِسْمُ الأَوَّلُ : يَقِفونَ لِيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَهَؤُلاءِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلوا أَسْلِحَتَهُمْ مَعَهُمْ وَهُمْ يُصَلّونَ ، حَتَّى لا يُباغِتَهُمُ العَدُوُّ وَلَيْسَ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَكونوا عَلى اسْتِعْدادٍ لِلقِتالِ .

القِسْمُ الثَّاني : يَقِفونَ في مُواجَهَةِ العَدُوِّ وَراءَ الطَّائِفَةِ الَّتي تُصَلّي ، مِنْ أَجْلِ حِراسَتِهِمْ خَوْفاً مِنَ الاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ .

﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ أَيْ إذا سَجَدَ الَّذينَ يُصَلُّونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَكُنِ الَّذينَ

يحرسونَهُمْ خَلْفَهُمْ ، إذْ أَحْوَجُ ما يَكونُ المُصلُّونَ لِلْحِراسَةِ حينَ السُّجودِ ، فإذا أنْهى النَّبيُّ ﷺ الرَّكعةَ الأُولى بَقِيَ جالِساً ، ويَقومُ المُصلُّونَ لِيُتِمُّوا الرَّكْعَةَ الثّانِيَةَ ويُسَلِّموا ، ثُمَّ تَأْتِي الطّائِفَةُ الثّانِيَةُ الّذينَ لَمْ يُصَلُّوا ويَقِفونَ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ يَقومُ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ رَكْعَةً ، ويَبقى جالِساً ، حَتّى يَقوموا هُمْ ويُتِمُّوا لأنْفُسِهِمُ الرَّكْعَةَ الثّانِيَةَ ، ويُسَلِّموا مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وعَلى هٰذِهِ الطّائِفَةِ الثّانِيَةِ أنْ تُصَلِّيَ كَذٰلِكَ ، وَهُمْ يَحْمِلونَ أَسْلِحَتَهُمْ ، وَالطّائِفَةُ الّتي صَلَّتْ تَحْرُسُهُمْ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى الطّائِفَةَ الثّانِيَةَ بِالحَذَرِ وَلَمْ يَأْمُرِ الطّائِفَةَ الأُولى ، وَالحِكْمَةُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ العَدُوَّ لا يَتَنَبَّهُ في أَوَّلِ الصَّلاةِ لِبَدْءِ المُسْلِمينَ فيها ، فَهُوَ عِنْدَما يَرى المُسْلِمينَ قَدِ اصْطَفّوا يَظُنُّهُمْ قَدِ اصْطَفّوا لِلْقِتالِ ، فَإِذا رَآهُمْ سَجَدوا عَلِمَ أَنَّهُمْ يُصَلّونَ ، وَلِذا يُخْشى أَنْ يَأْتِيَ وَيَهْجُمَ عَلى الطّائِفَةِ الثّانِيَةِ عِنْدَ قِيامِها لِلصَّلاةِ ؛ وَلِذا أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِالحَذَرِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ عِلَّةَ أَخْذِ الحَذَرِ وَالسِّلاحِ ، فَقالَ : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ إِنَّ عَدُوَّكُمْ يَتَمَنّى أَنْ تَغْفَلوا وَلا تَتَنَبَّهوا لأَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمُ الّتي لا تَسْتَغْنونَ عَنْها كَالمَلابِسِ وَالأَطْعِمَةِ ، وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْمِلونَ عَلَيْكُمْ حَمْلَةً واحِدَةً قَوِيَّةً شَديدَةً لِيَقْتُلوا مِنْكُمْ مَنْ يَسْتَطيعونَ قَتْلَهُ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَكونوا في أَقْصى دَرَجاتِ الحَذَرِ وَالتَّيَقُّظِ .

وَقَدْ رَخَّصَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِبَعْضِ المُقاتِلينَ أَنْ يَضَعوا السِّلاحَ وَلا يَحْمِلوهُ فَقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ أَيْ لا حَرَجَ عَلَيْكُمْ وَلا إِثْمَ أَنْ تَضَعوا أَسْلِحَتَكُمْ وَلا تَحْمِلوها ، إذا كانَ حَمْلُها يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ، وَذٰلِكَ في حالِ المَطَرِ حَيْثُ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ حَمْلُهُ مَعَ ثِقَلٍ في ثِيابِهِمْ ، أو خَوفاً على السِّلاحِ أَنْ يَصْدَأَ مِنَ الماءِ ، وكَذٰلِكَ إذا كُنْتُمْ مَرضى بِسَبَبِ جِراحٍ أَصابَتْكُمْ أو غَيرِ ذٰلِكَ ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَحْمِلوا السِّلاحَ ، وَلٰكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْخُذوا حِذْرَكُمْ ، وَأَنْ لا تَغْفَلوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ وأَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ لَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَذاباً يُذِلُّهُمْ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، أَمّا في الدُّنْيا فَيَكونُ بِنَصْرِ المُؤْمِنينَ عَلَيْهِمْ ، وَإِذْهابِ قُوَّتِهِمْ ، وَأَمّا في الآخِرَةِ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً عَظيماً في نارِ جَهَنَّمَ يُذِلُّهُمْ وَيُهينُهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ واقِعيَّةُ هٰذا الدِّينِ في أَحْكامِهِ ، حَيْثُ أَباحَ قَصْرَ الصَّلاةِ لِلْمُسافِرِ تَخفيفاً عَنْهُ وَرَحْمَةً بِهِ .

٢ـ مَشْروعِيَّةُ صَلاةِ الخَوْفِ عِنْدَ خَوْضِ المُسْلِمينَ لِلمَعْرَكَةِ مَعَ العَدُوِّ .

٣ـ تنبيهُ المُسْلِمينَ على أَخْذِ الحيطةِ والحَذَرِ في كُلِّ أُمورِهِمْ وَفي كلِّ أَزْمانِهِمْ حتّى لا يُفاجِئَهُمُ العَدُوُّ وَيُباغِتَهُمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسْئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ كَيْفَ تَتِمُّ صَلاةُ الخَوْفِ .

٢ـ ما مَسافَةُ السَّفَرِ الَّتي تُحِلُّ لِلْمُسْلِمِ قَصْرَ الصَّلاةِ ؟

٣ـ ما رَأْيُكَ فيمَنْ يُصَلّي الصَّلاةَ الرُّباعِيَّةَ أَرْبعاً وَهُوَ مُسافِرٌ ؟

٤ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ عِبادَهُ المُصَلّينَ بِالحَذَرِ عِنْدَ صَلاتِهِمْ في أَثْناءِ القِتالِ ؟

٥ـ ماذا أَعَدَّ اللهُ لِلكافِرينَ ؟

٦ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ كَيْفِيَّةَ صَلاةِ الخَوْفِ ، اذْكُرْها مُؤيِّداً قَوْلَكَ بِالدَّليلِ .

٧ـ مَتى أَباحَ اللهُ لِلمُقاتِلينَ وَضْعَ السِّلاحِ وَالأَمْتِعَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ كَيْفَ تُقْصَرُ الصَّلاةُ إِذا كانَتْ رُباعِيَّةً كَالعَصْرِ ، أَوْ ثُلاثِيَّةً كَالمَغْرِبِ ؟ اكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَمْراً آخَرَ يَسَّرَ اللهُ فيهِ عَلى المُسْلِمينَ في السَّفَرِ .

٣ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ المَوْجودَةِ في مَكْتَبَةِ المَدْرَسَةِ ، واكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ صَلاةِ الخَوْفِ : حُكْمُها ، حِكْمَةُ مَشْروعِيَّتِها ، كَيْفِيَّتُها ، وَضَعِ المَوْضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

تَعَلَّمْ :

عَنْ يَعْلَى بن أُمَيَّةَ قالَ : قُلْتُ لِعُمَرَ بنِ الخَطّابِ : إِنَّ اللهَ يَقولُ ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وَقَدْ أَمِنَ النّاسُ ، فَقالَ : عَجِبْتُ مِمّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذلِكَ فَقالَ : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِها عَلَيْكُمْ ، فَاقْبَلوا صَدَقَتَهُ »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٦٨٦ .

الدَّرْسُ الثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّلاثونَ

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن
تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كِتاباً مَوْقوتاً : فَرْضاً مُؤَقَّتاً بِأَوْقاتٍ مُحَدَّدَةٍ .

تَهِنوا : تَضْعُفوا .

ابْتِغاءَ : طَلَبَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ كَيْفَ تَكونُ صَلاةُ الخَوْفِ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبَيِّنَ ماذا عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَفْعَلوهُ بَعْدَ أَدائِهِمْ لِلصَّلاةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

أَيْ : إِذا فَرَغْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ أَداءِ صَلاةِ الخَوْفِ كَما أَمَرْتُكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَذْكُروا اللهَ تَعالى

وَتُداوموا عَلى ذَلكَ ، وَذَلكَ بأَنْ تَتَذَكَّروا وَعْدَهُ سُبْحانَهُ بالنَّصْرِ في الدُّنْيا ، وَنَيْلَ ثَوابِهِ في الآخِرَةِ ، وَأَنْ تَذْكُروهُ سُبْحانَهُ بأَلْسِنَتِكُمْ بالحَمْدِ وَالتَّهليلِ وَالتَّسْبيحِ وَالتَّكْبيرِ وَالدُّعاءِ في جَميعِ أَحوالِكُمْ ، سواءٌ أَكُنْتُمْ قائِمينَ أَمْ قاعِدينَ أَمْ مُضْطَجِعينَ عَلى جُنوبِكُمْ ، وَذَلِكَ لأَنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعالى يُقَوّي القُلوبَ وَيُثَبِّتُها وَيَجْعَلُها تَطْمَئِنُّ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

لَقَدْ أُمِرَ المُسْلِمونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى في كُلِّ حالٍ في السِّلْمِ والحَرْبِ وَالخَوْفِ وَالأَمْنِ ، وَيَكونُ المُسْلِمُ في حالَةِ الخَوْفِ وَمُلاقاةِ العَدُوِّ أَحْوَجَ ما يَكونُ إِلى عَوْنِ اللهِ تَعالى وَتَأْييدِهِ وَنَصْرِهِ ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلى اللهِ تَعالى بأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلى عَدُوِّهِمْ .

وَإِذا وَضَعَتِ الحَربُ أَوْزارَها وَاطْمَأْنَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَسَكَنَتْ قُلوبُكُمْ وَذَهَبَ عَنْكُمْ الخَوْفُ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الصَّلاةَ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ ، بأَرْكانِها وَشُروطِها وَخُشوعِها ، وَذَلِكَ لأَنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلى المُؤْمنينَ فَرْضاً مُحَدَّداً بأَوْقاتٍ لا يَجوزُ مُجاوَزَتُها ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ أَدائِها في أَوْقاتِها .

وَمَا زالَتِ الآياتُ في سِياقِ قِتالِ المُسْلِمينَ لِلمُشْرِكينَ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

لا تَضْعُفوا في طَلَبِ القَوْمِ الَّذينَ قاتَلوكُمْ وَناصَبوكُمُ العَداءَ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَعِدُّوا لِقِتالِهِمْ . وَذَلِكَ لأَنَّ مَا يُصيبُكُمْ مِنْ آلامٍ وَجِراحٍ قَدْ أَصابَ أَعْداءَكُمْ ، وَهُمْ مَعَ هَذا يَصْبِرونَ ، فَمالَكُمْ لا تَصْبِرونَ ، وَأَنْتُمْ أَوْلى مِنْهُمْ بالصَّبْرِ ، لأَنَّكُمْ تَرْجونَ بِقِتالِكُمْ وَصَبْرِكُمْ رِضا اللهِ تَعالى وَإِعْلاءَ كَلِمَتِهِ وَحُسْنَ مَثوبَتِهِ ، وَتَرْجونَ كَذَلِكَ نَصْرَ اللهِ تَعالى أَوْ الشَّهادَةَ في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ ، وَهذا ما لا يَرْجونَهُ هُمْ ، فَإِنَّهُمْ يُقاتِلونَ وَلا رَجاءَ لَهُمْ في شَيْءٍ إِلاَّ إِرْضاءَ الشَّيْطانِ وَنُصْرَةَ باطِلِهِمْ ، وَالحُصولَ عَلى عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ زائِلٍ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ كانَ وما زالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَليماً بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْمالِكُمْ ، حَكيماً في كُلِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُسْلِمينَ بالتِزامِ الحَقِّ في كُلِّ شُؤُونِهِمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

إِنَّا قَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ القُرآنَ يا مُحَمَّدُ إِنْزالَ حَقٍّ وَصِدْقٍ لِكَيْ تَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ في قَضاياهُمْ بما عَلَّمَكَ اللهُ تَعالى مِنَ الأَحْكامِ ، وَلاَ تَكُنْ خَصيماً لِلْخائِنِ تُدافِعُ عَنْهُ وَتَنْحازُ إِلَيْهِ . إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ

يا مُحَمَّدُ أَنْ لا تَتَهاوَنَ في تَحَرِّي الحَقِّ ، وأَلاَّ تَغْتَرَّ بِحُجَّةِ الخائنينَ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ خُصومةً بِبابِ حُجْرَتِه فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقالَ : « أَلا إِنَّما أَنا بَشَرٌ ، وَإِنَّما أَقْضي بِنَحوِ مِمّا أَسْمَعُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّما هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَحْمِلْها أَوْ لِيَذَرْها »[1] .

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

اسْتَغْفِرِ اللهَ تَعالى يا مُحَمَّدُ مِمَّا يُعْرَضُ لَكَ مِنْ شُؤونِ البَشَرِ ، وَذلِكَ بِالمَيْلِ إِلى مَنْ يَكونُ عِنْدَهُ قُوَّةٌ في الجَدَلِ ، أَوْ المَيْلِ إِلى مُسْلِمٍ لأَجْلِ إِسْلامِهِ ، وَفي هَذا زِيادَةُ حِرْصٍ عَلى إِحْقاقِ الحَقِّ ، وَالتَّشَدُّدِ فيهِ ، إِنَّ اللهَ كانَ غَفوراً رَحيماً .

وَيَقُولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٧] لا تُخاصِمْ وَتُدافِعْ عَنْ هؤلاءِ الَّذينَ يَخونونَ أَنْفُسَهُمْ ، أَيْ : يَخونونَ غَيْرَهُمْ ، وَقَدْ جُعِلَتْ خيانَةُ غَيْرِهِمْ خيانَةً لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّ ضَرَرَ الخيانَةِ عائِدٌ إِلَيْهِمْ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٧] أَيْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ يَبْغُضُ مَنِ اعْتادَ الخِيانَةَ وَأَلِفَتْ نَفْسُهُ اقْتِرافَ السَّيِّئاتِ ، وَقَدْ قيلَ : (إِذا عَثَرْتَ مِنْ رَجُلٍ عَلى سَيِّئَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّ لَها أَخَواتٍ) . إِنَّ مَنْ خانَ مَرَّةً هانَتْ عَلَيْهِ الخيانَةُ في كُلِّ مَرَّةٍ ، إِنَّ اللهَ تَعالى لا يُحِبُّ هَذا الخَوّانَ الأَثيمَ ، وَإِنَّما يُحِبُّ أَهْلَ الأَمانَةِ وَالاسْتِقامَةِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُداوَمَةُ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّهُ يَجْلو الصَّدأَ عَنْ قَلْبِ الإِنْسانِ .

٢ـ الحِرْصُ عَلى أَداءِ الصَّلاةِ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصةٍ بِأَرْكانِها وَشُروطِها وَآدابِها وَخُشوعِها ، والحِرْصُ عَلى أَنْ تُؤْتِيَ تِلْكَ الصَّلاةُ ثِمارَها فَتَنْهى المُصَلِّيَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ وَالبَغْيِ .

٣ـ الحَثُّ عَلى الصَّبْرِ عِنْدَ مُلاقاةِ العَدُوِّ وَقِتالِهِ ، لأَنَّ المُؤْمِنينَ عَلى حَقٍ وَيُدافِعونَ عَنِ الحَقِّ ، أَمَّا عَدُوُّهُمْ فَهُوَ عَلى باطِلٍ .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، باب من خاصم في باطل وهو يعلمه ، حديث رقم ٢٣٢٦ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُؤْمنينَ بَعْدَ قضائِهِمُ الصَّلاةَ ؟

٢ـ متى يكونُ ذِكْرُ اللهِ تعالى ؟ وكَيْفَ يكونُ ؟

٣ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ تعالى المُؤْمنينَ بِذِكْرِهِ ؟

٤ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ﴾ ؟

٥ـ لِماذا أَمَرَهُمُ اللهُ تعالى بِعَدَمِ الضَّعْفِ عِنْدَ قِتالِ المُشْرِكينَ ؟

٦ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُؤْمنينَ في كُلِّ شُؤونِهِمْ ؟

٧ـ ما المَقْصودُ بـ ﴿الْخَائِنِينَ﴾ ؟ وَبِمَ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ تُجاهَهُمْ ؟

٨ـ قيلَ : (إذا عَثَرْتَ مِنْ رَجُلٍ على سَيِّئَةٍ فاعْلَمْ أَنَّ لَها أَخَواتٍ) ما المَقْصودُ بِهذا القَوْلِ ؟ وعلامَ يَدُلُّ ؟

٩ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ أَنَّ المُسْلمينَ والكافِرينَ في قِتالِهِمْ يَشْتَرِكونَ في شَيْءٍ ، وَيَخْتَلِفونَ في شَيْءٍ ، وَضِّحْ ذلكَ بالتَّفْصيلِ .

نَشاطٌ :

ـ وَضِّحْ مَعْنى الحديثِ الشَّريفِ الواردِ في تَفْسيرِ الآيةِ (١٠٥) ، وَاكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما تَسْتَفيدُهُ مِنْهُ .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الحادي والثَّلاثونَ

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ
ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ
يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا
مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَكْسبْ : ما يَجُرُّ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ مَضَرَّةً .

إِثْماً : ذَنْباً .

خَطيئَةً : ذَنْباً غَيْرَ مَتَعَمَّدٍ .

يرْمِ بِهِ بَريئاً : يَتَّهِمْ بَريئاً أَوْ يَنْسِبِ الذَّنْبَ إِلَيْهِ .

احْتَمَلَ : كَلَّفَ نَفْسَهُ أَنْ تَحْتَمِلَ .

بُهتاناً : كَذِباً عَلى الغَيْرِ بِما لَيْسَ فيهِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لاَ يُخاصِمَ وَيُدافِعَ عَنِ الَّذينَ يَخونونَ غَيْرَهُمْ ، وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّهُ

يَبْغُضُ الخَوَّانَ الأَثيمَ ، وَيُحِبُّ الأَمينَ المُسْتَقيمَ ، وقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ أَحْوالَ الخائِنينَ .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ .

إنَّ هَؤُلاءِ الخائِنينَ يَسْتَتِرونَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ حينَ يَقْتَرِفونَ المَعاصِيَ والآثامَ حَياءً مِنْهُمْ وَخَوْفاً مِنْ ضَرَرِهِمْ ، وَلا يَسْتَتِرونَ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلا يَسْتَحيونَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ إيمانِهِمْ ، إذ لَوْ كانَ عِنْدَهُمْ إيمانٌ لَشَعروا بِرَقابَةِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وَلاسْتَحْيَوْا مِنْهُ سُبْحانَهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى تَكْرارِ الذَّنْبِ ، إنَّهُمْ يَرْتَكِبونَ الذُّنوبَ ، وَهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّ اللهَ تَعالى مَعَهُمْ في كُلِّ حَرَكاتِهِمْ وَسَكَناتِهِمْ . مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ فيمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ أَقْوالٍ وَأَعْمالٍ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمالِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ يُضْمِرونَ وَيُدَبِّرونَ لَيْلاً ما لا يَرْضاهُ اللهُ مِنَ القَوْلِ ، تَبْرِئَةً لأَنْفُسِهِمْ ، وَرَمْيِ غَيْرِهِمْ بِجَريمَتِهِمْ . وَقَدْ تَوَعَّدَهُمْ اللهُ تَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أَيْ حافِظاً لأَعْمالِهِمْ ، مُحيطاً بِها إحاطَةً تامَّةً لا يَغيبُ عَنْ عِلْمِهِ شيءٌ مِنْ تَصَرُّفاتِهِمْ وَسَيُحاسِبُهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ .

وَقَدْ حَذَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى مِنْ مُساعَدَةِ الخائِنينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

هاأَنْتُمْ أَيُّها المُدافِعونَ عَنِ الخائِنينَ قَدْ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ في الدُّنْيا وأَرَدْتُمْ تَبْرِئَتَهُمْ ، فَمَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ مِنْكُمْ أَنْ يُدافِعَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ أَمامَ اللهِ تَعالى ، بَلْ مَنْ يَكونُ عَلَيْهِمْ وَكيلاً يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ . يَقومُ عَلى تَدْبيرِ أُمورِهِمْ وَالدِّفاعِ عَنْهُمْ ، لا شَكَّ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ مِنْكُمْ أَنْ يُجادِلَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ . وَلا أَنْ يَكونَ وَكيلاً بِالخُصومَةِ لَهُمْ .

وَها : حَرْفُ تَنبيه ، جاءَ لِتَنْبيهِ المُخاطَبينَ عَلى خَطَئِهِمْ : المُجادَلَةِ . وَالاسْتِفهامُ في قَوْلِهِ : ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ﴾ إنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَيْ لا أَحَدَ يُجادِلُ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ رَغَّبَ سُبْحانَهُ وَتَعالى الخائِنينَ في التَّوْبَةِ مِنْ ذُنوبِهِمْ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

مَنْ يَعْمَلْ عَمَلاً سَيِّئاً يُؤْذي بِهِ غَيْرَهُ ، أَوْ يَظلِمْ نَفْسَهُ بِارْتِكابِ المَعاصي ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَغْفِرِ اللهَ تَعالى بِأَنْ يَتوبَ إلَيْهِ تَوْبَةً صادِقَةً ، يَجِدِ اللهَ تَعالى غَفَّاراً لِذُنوبِهِ ، رَحيماً مُتَفَضِّلاً عَلَيْهِ بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ ، وَفي هَذا بَعْثٌ لِلخائِنِ عَلى الاسْتِغْفارِ وَالتَّوْبَةِ .

وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ ﴾ لأَنَّ التَّائِبَ المُسْتَغْفِرَ يَجِدُ أَثَرَ المَغْفِرَةِ في نَفْسِهِ بِكَراهَةِ الذَّنْبِ ، ويَجِدُ أَثَرَ الرَّحْمَةِ بِالرَّغْبَةِ في الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ الَّتي تُطَهِّرُ النَّفْسَ .

إنَّ الأفْعال السيئة يعودُ ضررُها على فاعلِها وحْدَهُ ، وهذا ما جاءت الآياتُ لِتُؤكِّدَهُ :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

من ارتكبَ إثْما من الآثام الّتي نَهى اللهُ تعالى عنِ ارْتكابِها ، وَهْو يَظُنُّ أنَّهُ قَدْ كَسبَهُ وَانْتُفعَ بهِ ، فإنْ كَسْبهُ وفعْلَهُ هذا وبالٌ على نَفْسهِ وضررٌ لا نَفْعَ فيه ، إنَّ هَذا الآثِمَ سَتُصيبُهُ عاقِبَةُ إثْمِهِ في الدُّنْيا مِنْ فضيحَةٍ ومهانَةٍ لهُ بَيْن النّاسِ ، ومِنْ خِزْيٍ في الآخرةِ . وقدْ خُتِمَت الآيةُ بقَوْلِهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهْو سُبْحانهُ بِعِلْمِهِ قدْ وضعَ لِلنّاسِ أحْكاماً وَحدَدَها لَهُمْ ، فَلا يَجوزُ لَهُمْ تَجاوُزُها ، وَبِحكْمتِهِ رتَّبَ عِقابا بحَقِّ المُتجاوِزين .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

ومنْ يَكْتسبْ منْكُمْ ذنْبا خطأً أوْ عمْدا ، صَغيرا أوْ كَبيرا وَيَنْسِبُهُ إلى بَريءٍ لَمْ يَرْتَكِبْهُ ، وَيَزْعُمُ أنَّهُ هوَ الّذي اكْتَسَبَهُ ، فقدْ كلَّفَ نَفْسهُ وتحمّلَ بسَببِ فِعْله هذا ﴿بُهْتَانًا﴾ أيْ كَذِباً يَجْعَلُ مَنْ رُمِيَ بِهِ في حيْرَةٍ ودَهْشَةٍ ، وتحمّلَ كَذَلِكَ ذنْباً واضحا لا خفاءَ فيهِ يُؤدّي إلى غَضَبِ اللهِ تَعالى .

والسُّؤالُ هُنا : مَا الفرْقُ بَيْنَ الخطيئَةِ والإثْمِ ؟ إنَّ الخطيئَةَ ـ كَما يَرى بَعْضُ العُلَماءِ ـ هِيَ الذُّنوبُ الّتي يَرْتَكِبُها صاحبُها عَن اسْتهانةٍ وعدمِ اكْتراثٍ ، فَهْو لكثْرةِ ذُنوبِهِ ، صارَ يَفْعَلُها بلا مُبالاةٍ بها ، أمّا الإثْمُ فهُوَ الذَّنْبُ الّذي يرْتَكِبُهُ الإنْسانُ عنْ تعمُّدٍ وَإصْرارٍ ، فيُؤدّي بهِ إلى الإبْطاءِ في التَّوَجُّهِ إلى اللهِ تَعالى بالاسْتغْفارِ والتَّوْبَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الشُّعورُ بِمُراقبَةِ اللهِ تَعالى دائما ، حتّى يَحْسِبَ الإنْسانُ على نَفْسهِ حَرَكاتِهِ وَسَكَناتِهِ وَأعْمالَهُ وَأقْوالَهُ .

٢ـ الإيمانُ الصّادِقُ يَمْنعُ صاحبَهُ منَ الوُقوعِ في الذَّنْبِ وَالإصْرارِ عَلَيْهِ .

٣ـ إذا حكَمَ الحاكِمُ لأحدٍ بشَيْءٍ ، فلا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ وَهْوَ يَعْلَمُ أنَّهُ لَيْسَ لَهُ حَقٌّ فيهِ ، وأنَّ هَذا الحقَّ لِغَيْرِه .

٤ـ الحثُّ عَلى اسْتغْفارِ اللهِ تَعالى ، والتَّوْبَةُ النَّصوحُ للهِ تَعالى .



التَّقويمُ :

أجِبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ تحدّثتِ الآيةُ الكريمةُ عنْ صفةٍ منْ صفاتِ الخائنينَ . اذْكرْها .

٢ـ ما الدّليلُ على أنّ المنافقينَ لا يستحيونَ منَ اللهِ تعالى ؟

٣ـ بِمَ حذّرَ اللهُ المؤمنينَ الّذينَ يُدافعونَ عنِ الخائنينَ ؟

٤ـ منْ رحْمةِ اللهِ تعالى أنّهُ يفتحُ بابَ التّوبةِ أمامَ الجميعِ ، بِمَ رغّبَ اللهُ أولئكَ الخائنينَ ؟

٥ـ ما سرُّ قولِهِ تعالى : ﴿يجدِ اللهَ غفوراً رَحيماً﴾ ؟

٦ـ بيّنتِ الآياتُ أنّ الأفعالَ السّيّئةَ يعودُ ضررُها على فاعلِها ، وضّحْ ذلكَ .

٧ـ ما الفرْقُ بيْنَ الخطيئةِ والإثْمِ ؟

٨ـ فسّرْ كلاًّ ممّا يلي :

أـ ﴿يُبيِّتونَ ما لا يَرْضى منَ القوْلِ﴾ .

ب ـ ﴿أم مَنْ يكونُ عليْهِمْ وكيلاً﴾ .

ج ـ ﴿ومنْ يعْملْ سُوءاً أوْ يظْلِمْ نفسهُ﴾ .

د ـ ﴿ومن يكْسِبْ خطيئةً أو إثْماً ثُمّ يرْمِ بهِ بريئاً﴾ .

هــ ﴿بُهْتاناً وإثْماً مُبيناً﴾ .

نَشاطٌ :

ـ ارْجعْ إلى كِتابِ رياضِ الصّالحينَ واستخرجْ منهُ حديثاً شريفاً يُبيّنُ فيهِ الرّسولُ ﷺ الفرْقَ بينَ الغيبةِ والبُهْتانِ . اكْتُبْ هذا الحديثَ على لوْحةٍ كرْتونيّةٍ ، وضعْها على لوْحةِ الإعْلاناتِ في غُرْفةِ الصّفِّ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّاني والثَّلاثونَ

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نَجْواهُمْ	النَّجْوى : حديثُ السِّرِّ .
مَعْروفٍ	ما تَعْرِفُهُ النُّفوسُ وتتلقَّاهُ بالقَبول .
ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ	طلَباً لمرْضاة الله .
يُشاقِقْ	يُعادي ويُخالِفُ .

التَّفسيرُ :

إنَّ فَضْلَ اللهِ ورحْمَتَهُ عظيمَةٌ على رَسولِهِ ﷺ وعلى أُمّته ، فقدْ صرف عَنْهُ وعَنْ أتْباعِهِ أُولَئِكَ الَّذينَ يَطْمَعون في إضْلالِهِ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ كانَ فَضْلُ اللهِ عَظيماً على سَيِّدنا مُحمَّدٍ أنْ صَرفَ عَنْهُ كَيْدَ هؤُلاءِ الأشْرارِ سريعا ، فَقَدْ جاءَهُ الوَحْيُ بِبَيانِ الحَقِّ ، وَإِقامَةِ العَدْلِ بيْنَ الخلْقِ جَميعا ، فقَدْ حاولَ أُولَئكَ الكاذِبونَ لإِبْعادِ التُّهْمَةِ عَنْهُمْ أَنْ يُضِلّوا رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الحقِّ ، ولَكِنَّ اللهَ أَطْلَعهُ على حَقيقَةِ ما يُضْمِرونَ وعَصَمهُ مِنَ اتِّباعِهِمْ .

فَهؤُلاءِ الخائِنونَ لا يُضِلُّونَ بانْحِرافِهِمْ عَنِ الطَّريقِ السَّوِيِّ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وَهُمْ لَنْ يَضُرُّوا النَّبِيَّ ﷺ ، لأَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَمِنِ اتِّباعِ الهوى .

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ الكَريمَ ، وعَلَّمَهُ الحِكْمَةَ ، حَيْثُ عَلَّمهُ سُبْحانَهُ وَتعالى مِنَ الكِتابِ والشَّريعَةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ .

وَتُخْتَمُ الآيَةُ ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ فقَدْ أَرْسلَهُ سُبْحانَهُ للنَّاسِ كافَّةً وجعلهُ خاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَاخْتَصَّهُ بِنِعَمٍ كَثيرةٍ ، وَهَذا كُلُّهُ مِن فضْلِ اللهِ تَعالى عليْهِ .

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ .

كَانَتِ الآياتُ وَلا تَزالُ تَتحَدَّثُ عَنِ الخائنينَ ، فبَيّنَ سُبْحانَهُ وتعالى ما جُبِلَ عليْهِ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ إِخْفاءِ الأَموالِ وَالأَعْمالِ الَّتي فيها شرٌّ ومَضَرَّةٌ ، وَالتَّناجي بها ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ لا خَيْرَ في كثيرٍ مِمَّا يَتَناجى بِهِ أُولَئِكَ الَّذينَ يُسِرُّونَ الحديثَ وهُمْ الخائنونَ ، وذلِكَ لأَنَّهُمْ يَتناجَوْنَ فيما هُوَ شَرٌّ وَباطِلٌ . ثُمَّ تُبَيِّنُ الآيَةُ الكَريمَةُ أَنَّ الخَيْرَ في التَّناجي بالأَمْرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكرِ ، وَذلِكَ مِثْلُ مَنْ يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِصَدَقَةٍ يُخْرِجُها مِنْ مالِهِ لأَحدِ النَّاسِ المُحْتاجينَ ، إنَّ الصَّدَقَةَ الَّتي يُخْرِجُها الإِنْسانُ تَكونُ سَبَباً في تَزْكِيَةِ مالِهِ ، وحُسْنِ ثوابِهِ وَنشْرِ المحبَّةِ وَالموَدَّةِ بيْنَ النَّاسِ ، وَهَذِهِ الصَّدَقَةُ مِنَ الخَيْرِ أَنْ تَكونَ سِرّاً ، وَذلِكَ لأَنَّ إِظْهارَها قَدْ يُؤْذي المُتَصدَّقَ عليْهِ . قالَ تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

وَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بالمَعْروفِ وَهُوَ لَفْظٌ عامٌّ يَعُمُّ كُلَّ أَعْمالِ البِرِّ ، فمِنَ المَعْروفِ أَنْ تَلقى أَخاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ ، وَمِنَ المَعْروفِ أَنْ تُعْطِيَ كُلَّ صاحِبِ حَقٍّ حَقَّهُ ، وَلكِنْ يُشْتَرطُ في المعروفِ تَرْكُ الامْتِنانِ بِهِ ، وَتَرْكُ الإِعْجابِ بِفِعْلِهِ لأَنَّهُما يُحْبِطانِ الأَجْرَ ، وَالأَمْرُ بِالمعروفِ كذلكَ لا بُدَّ فيهِ مِنَ المُسارَّةِ ، لأَنَّ ذلِكَ أَبْعَدُ عَنِ الإِيذاءِ .

وَمَنْ يَأْمُرْ غَيْرَهُ بِالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَهِيَ فريضَةٌ اجْتِماعيَّةٌ ، إِذْ لا بُدَّ مِنَ الإِصْلاحِ بَيْنَ الْمُتَنازِعينَ في الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ ، وَذلِكَ لأَنَّ التَّنازُعَ يُؤَدِّي إِلى انْتِشارِ العَداوَةِ وَالمَفاسِدِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] وَالإِصْلاحُ يَتَطَلَّبُ كَذلِكَ النَّجوى ، لأَنَّ في إِظْهارِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِهِ كثيراً مِنَ الشَّرِّ الَّذي يُؤْذي الْمُتَنازِعينَ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

أَيْ مَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الأَفْعالَ مِنَ الطَّاعاتِ وَالتَّناجي بها قاصدا رضا الله تعالى وَحُسْنَ ثوابِهِ ، فَإِنَّ الله تَعالى سَوْفَ يُؤْتيهِ الثَّوابَ العَظيمَ وَالأَجْرَ الجزيل .

وَهذا ما أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِمَنْ يَتَناجى بِالخَيْرِ ، أَمَّا الَّذين يَتناجَوْنَ بِالشَّرِّ فَقَدْ تَوَعَّدَهُمْ اللهُ تَعالى فَقال :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ .

وَالْمُشاقَّةُ : الْمُعاداةُ ، وَسُمِّيَتْ كَذلِكَ ، لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الْمُتَعادينَ يكونُ بَعيداً عَنِ الآخَرِ ، فَكَأَنَّ كُلَّ واحِدٍ يَكونُ في شِقٍّ غَيْرِ شِقِّ الآخَرِ ، فَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسولَ وَيُظْهِرِ العَداوَةَ لَهُ مِنْ بَعْدِ ما ظَهَرَتْ لَهُ الهِدايَةُ عَلى لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ وَقامَتِ الحُجَجُ عَلى صِدْقِهِ ، وَمَعَ ذلِكَ يَتَّبِعُ سَبيلَ الضَّلالِ وَالكُفْرِ ، وَلاَ يَتَّبِعُ سَبيلَ الْمُؤْمِنينَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتْرُكُهُ وما اخْتارَ لِنَفْسِهِ مِنْ ضَلالٍ ، وَيَكِلُهُ إِلى مَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ بَيانٌ لِسُنَّةِ اللهِ في عَمَلِ الإِنْسانِ ، فَقَدْ أَعْطاهُ اللهُ الإِرادَةَ الْمُسْتَقِلَّةَ ، وَالعَمَلَ بِاخْتِيارِهِ ، فَالوِجْهَةُ الَّتي يَتَوَلاَّها هَذا الإِنْسانُ وَيَخْتارُها يُوَلِّيهِ اللهُ إِيَّاها ، وَيَجْعَلُهُ يَسيرُ في الطَّريقِ الَّتي اخْتارَها ، وَلاَ يَجِدُ في نَفْسِهِ ما يُجْبِرُهُ عَلى تَرْكِ مَا اخْتارَهُ لِنَفْسِهِ ، فَمَنِ اخْتارَ لِنَفْسِهِ طَريقَ الضَّلالِ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ ، وَجَعَلَهُ يَسيرُ في هَذا الطَّريقِ الَّذي اخْتارَهُ ، وَمَنِ اخْتارَ طَريقَ الهِدايَةِ يَسَّرَهُ اللهُ تَعالى لَهُ كَذَلِكَ ، وَهَيَّأَ لَهُ مِنَ الأَسْبابِ الَّتي تُيَسِّرُ لَهُ هَذا الطَّريقَ .

إِنَّ مَنِ اخْتارَ طَريقَ الضَّلالِ ، قَدْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ نارَ جَهَنَّمَ يُصْلى فيها ، وَيُشْوى كَما تُشْوى الشَّاةُ ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ مَكاناً لِمَنْ صارَ إِلَيْها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَثُّ عَلى التَّناجي بِفِعْلِ الخَيْراتِ مِنْ صَدقَةٍ وَمَعْروفٍ وَإِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ .

٢ـ ابْتِغاءُ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى إنَّما يَكونُ بالإخْلاصِ وَعَدَمِ الرِّياءِ .

٣ـ خَلَقَ اللهُ تَعالى الإِنْسانَ وَجَعَلَ لَهُ إرادَةً وَاسْتِقْلالاً ، فَالعاقِلُ الَّذي يَخْتارُ طَريقَ الحَقِّ ، وَيَبْتَعِدُ عَنْ طَريقِ الضَّلالِ

٤ـ مَنْ عادى الرَّسولَ ﷺ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لهُ عَذاباً شَديداً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ لَقَدْ كانَ فَضْلُ اللهِ عَظيماً عَلى نَبيِّهِ ﷺ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٢ـ لِماذا أَنْكَرَ اللهُ تَعالى عَلى الخائِنينَ في نَجواهُمْ ؟

٣ـ ما النَّجْوى الَّتي جَعَلَ اللهُ فيها الخَيْرَ كُلَّهُ ؟

٤ـ لِماذا كانَتِ الصَّدَقَةُ سِرّاً خَيْراً مِنَ الصَّدَقَةِ جَهْراً ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِالمَعروفِ وَالإِصْلاحِ بَيْنَ النّاسِ ؟

٦ـ كَيْفَ يَكونُ الخَيْرُ في النَّجوى في المَعروفِ وَالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ ؟

٧ـ بِمَ تَوَعَّدَ اللهُ تعالى الّذينَ يَتناجَوْنَ بالشَّرِّ ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بالمُشاقَّة ؟

نَشاطٌ :

١ـ اخْتَصَّ اللهُ تَعالى النَّبيَّ ﷺ بِأُمورٍ لَمْ يَخْتَصَّ بِها أَحَداً مِنَ الأَنْبياءِ . اذْكُرْ ثَلاثَةً مِنْها واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ مَنِ الَّذي يَقومُ بالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ في ظَنِّكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هَلْ يَتَعارَضُ الإيمانُ بِالقَدَرِ مَعَ كَوْنِ الإِنْسانِ مُخَيَّراً ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .



رُوِيَ أنّ رجُلا من الأنْصار سرق درْعا مِنْ جاره في جراب فيه دقيق ، فجعَل الدّقيق ينْتشِرُ من خرْق فيه فخبّأها عند يهوديّ ، فالتُمست الدّرْعُ عنْد السّارق فلمْ توجدْ ، وحلف ما أخذها وما لهُ بها من علم . فتركوهُ واتّبعوا أثرَ الدّقيقِ حتّى انْتهوا إلى منْزِل اليهوديّ فأخذوها ، فقال اليهوديُّ : دفعها إليّ فلانٌ - السّارقُ - وشهد لهُ ناسٌ من اليهود ، فقالتْ عشيرةُ السّارق : انْطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ ، فسألوهُ أنْ يُجادل عن صاحبهمْ وشهدوا ببراءته ، وسرقة اليهوديّ للدّرْع . فهَمّ رسولُ اللهِ أنْ يفْعلَ ، فأنْزلَ اللهُ الآياتِ تُبيّنُ الحقّ . وحمى اللهُ تعالى نبيّهُ ﷺ من الدّفاع عن الخائن ، واتّهام البريء .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًاۢ
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ
ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ
فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ
وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَدْعونَ	يَتَوَجَّهونَ بالعِبادَةِ وَالدُعاءِ .
شَيْطاناً مَريداً	شَيْطاناً عاتِياً مُتَمَرِّداً عَلى الحَقِّ .
لَعَنَهُ	طَرَدَهُ وأَبْعَدَهُ .
وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ	أَجْعَلُهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الشَّيءَ .
فَلَيُبَتِّكُنَّ	فَلَيُقَطِّعُنَّ .
غُروراً	باطِلاً .
مَحيصاً	مَهْرَباً .



التَّفْسِيرُ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ .

تَحَدَّثَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ عَمَّنْ يُعادي الرَّسولَ ﷺ ، وَلا شَكَّ أَنَّ مُعاداةَ الرَّسولِ كُفْرٌ مَحْضٌ ، وَذَنْبٌ عَظيمٌ ، وَبَيَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى يغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ لِلإِنْسانِ إِلاَّ هَذا الذَّنْبَ العَظِيمَ الّذي هُوَ الشِّرْكُ والكُفْرُ ، فَإِنَّهُ تَعالى لاَ يَغْفِرُهُ أَبَداً لِمَنْ ماتَ عَلَيْهِ ، وَلِذا فَإِنَّ مَنْ يُشْرِكْ باللهِ تَعالى فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ، وَذَلِكَ أَنَّ الشِّرْكَ فيهِ فَسادٌ لِلأَرْواحِ وَضَلالٌ لِلْعُقولِ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ .

وَقَدْ مَرَّتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنْ قَبْلُ في دَرْسٍ سابِقٍ ، فَقَدْ جاءَتْ في أَثْناءِ الحَديثِ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، فَبَيَّنَتْ أَنَّهُمْ مُشْرِكونَ ، حَيْثُ يَدَّعي اليَهودُ أَنَّ عُزيراً ابنُ اللهِ تَعالى ، وَهُمْ يَصِفونَ اللهَ تَعالى بِصِفاتِ البَشَرِ كَذَلِكَ ، وَلا يُؤْمِنونَ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهَذا كُلُّهُ كُفْرٌ ، وَشِرْكٌ مَعَ اللهِ تَعالى . أَمّا النَّصارى فَهُمْ يَقولونَ إِنَّ المَسيحَ ابنُ اللهِ تَعالى ، وَيَدَّعونَ أَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ ، أَوْ أَنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ . . . فَهَؤُلاءِ إِنْ ماتوا عَلى الشِّرْكِ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ أَبَداً .

أَمّا هذِهِ الآيَةُ فَقَدْ جاءَتْ تَتَحَدَّثُ عَنِ الكافِرينَ الوَثَنِيينَ ، الَّذينَ يَعْبُدونَ الأَصْنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إِلى اللهِ تَعالى ، وَهَؤُلاءِ كَذلِكَ إِنْ ماتوا عَلى الشِّرْكِ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ يَغْفِرَ جَميعَ الذُّنوبِ دونَ الشِّرْكِ ، فَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ باللهِ وَتابَ وَأَنابَ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ ذُنوبَهُ ، وَيَمْحوها ، وَالمُشْرِكُ الَّذي لا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ شِرْكَهُ قَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ، وَبَعُدَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ بُعْداً كَثيراً ، وَلَكِنْ لِماذا كانَ المُشْرِكونَ عَلى ضَلالٍ ؟ جاءَتِ الآيَةُ لِتُجيبَ عَنْ هَذا التَّساؤُلِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

وَإِنْ النَّافِيَةِ بِمَعْنى ما ، أَيْ : ما يَدْعونَ إِلاَّ أَصْناماً مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، أَيْ : يَتَوَجَّهونَ إِلَيْها لِقَضاءِ حَوائِجِهِمْ ، وَهَذِهِ ما هِيَ إِلاَّ أَوْثانٌ لا تَمْلِكُ لِنَفْسِها ضَرّاً وَلا نَفْعاً ، وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنِ الأَصْنامِ بِالإِناثِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُشْرِكينَ سَمّوا أَصْنامَهُمْ بِأَسْماءِ الإِناثِ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ بِالإِناثِ المَلائِكَةُ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُشْرِكينَ كانوا يَدَّعونَ أَنَّ المَلائِكَةَ بَناتُ اللهِ تَعالى ، وَكانوا يَعْبُدونَها ، فَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

إنَّ هؤلاء المُشْرِكينَ الّذينَ يَعْبُدونَ الأصْنامَ في ضلالٍ ، فهُمْ يعْبدونَ ما لا يضُرُّ ولا ينْفعُ ، بلْ لا يمْلكُ لنفْسهِ شيْئًا ، وَإنَّ منْ ضلالِهِمْ أنّهُمْ يصْنعونَ الأصْنامَ ويقومونَ بعبادتِها ، مع أنَّ الصّانعَ أكْرمُ وأفضلُ منَ المصْنوعِ .

إنّهُمْ يطيعونَ شيْطانًا عاتيًا متَجرِّدًا منْ كُلِّ خيْرٍ ، فهذا الشّيْطانُ ملعونٌ مطْرودٌ منْ رحْمةِ اللهِ تعالى ، وقدْ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآياتِ خطرَ هذا الشّيْطانِ ليُحذّرَ النّاسَ منْهُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ .

١ـ لقَدْ أقْسَمَ هذا الشّيْطانُ الملْعونُ مؤكّدًا قسَمَهُ متوعّدًا بَني آدمَ : ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ والنّصيبُ المفْروضُ هُوَ ما للشيْطانِ في نفْسِ كُلِّ إنْسانٍ منَ الاسْتعْدادِ للشّرِّ . وكُلُّ إنسانٍ منْ بَني آدمَ يشْعُرُ منْ نفْسهِ بوسْوسةِ الشّيْطانِ ، فهُوَ يأمُرُ بالشّرْكِ ، ويأمُرُ بالمعْصيةِ والرِّياءِ وغيْرِ ذلكَ .

٢ـ وتَوعّدَ الشّيْطانُ كذلكَ بَني آدمَ بما ذكرَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ .

أي : لأُضلّنّهُمْ عَنْ طريقِ الحقِّ ، فأجْعلُهُمْ يسيرونَ في طريقِ الباطلِ ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أيْ أجْعلُهُمْ يلْهونَ خلْفَ الأمانيِّ الفارغةِ ، وذلكَ بأنْ يجْعلَهُمْ يجْرونَ وراءَ اللّذّاتِ العاجلةِ الفانيةِ ، ويجْعلُهُمْ يُسوّفونَ بالتّوْبةِ والعملِ الصّالحِ .

٣ـ وتَوعّدَ الشّيْطانُ بني آدمَ كذلكَ ما يُبيّنُهُ اللهُ تعالى بقوْلهِ : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ إنّهُ يأمُرُهُمْ بما فيهِ ضلالُهُمْ ، وهُوَ تقْطيعُ آذانِ الأنْعامِ ، وقدْ كانوا يفْعلونَ ذلكَ للأصْنامِ ، حَيْثُ حرّموا على أنْفسِهمُ الانْتفاعَ ببعْضِ الأنْعامِ ، فكانتِ النّاقةُ إذا ولدتْ خمْسةً وكانَ الخامسُ ذكَرًا قطَعوا أذُنَها وشقّوها شقًّا واسعًا علامةً على أنّهُمْ حرّموا على أنْفُسِهمُ الانْتفاعَ بها ، وجعلوها للأصْنامِ ، وسمّوها بحيرَةً .

٤ـ وتوعّدَ الشّيْطانُ بني آدمَ بما يُبيّنُهُ اللهُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ وتغْييرُ خلْقِ اللهِ تبْديلُهُ ، وقدْ يكونُ التّغْييرُ مادّيًا . ذكَرَ العُلماءُ أنّهُ يدْخُلُ فيهِ الوشْمُ ، ونقولُ يدْخُلُ فيهِ كذلكَ تغْييرُ الشّعرِ والبَشرةِ ، ويدْخُلُ فيهِ كذلكَ التّلاعُبُ بالجيناتِ البشَريّةِ .

وقدْ يكونُ التّغْييرُ معْنويًا ويُقْصدُ بهِ تبْديلُ الفطْرةِ الّتي فطرَ اللهُ النّاسَ عليْها . وقدْ أخْرجَ الإمامُ مُسْلمٌ عَنْ عيّاضٍ أنّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فيما قالَهُ ربُّهُ : « وإنّي خلَقْتُ عبادي حُنفاءَ فاجْتالتْهُمُ الشّياطينُ عَنْ دينِهِمْ ، وحرّمتْ عليْهِمْ ما أحْللْتُ لهُمْ . وقالَ عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ : « كُلُّ مولودٍ

تولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ .

إنّ منْ يتبعْ الشيطان ووسوستهُ وإغواءهُ ، ويتركْ طريق الحق والهُدى ، فقد خسر خسراناً عظيماً في الدّنيا والآخرة ، فهو يتخبّطُ في عمله على غير هُدى من الله ، وهذا الشّيطانُ الّذي اتّبعهُ في الدُّنيا سيتبرأُ منهُ في الآخرة ، ويقولُ لهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

إنّ هذا الشّيطان يعدُ أوْلياءهُ الوُعود الباطلَة ، ويُمنّيهمْ الأمانيّ الكاذبة : يعدُهُمُ الغِنى والثّروة بإغرائهمْ بلعب القمار والسّرقة والغصب ، ويعدُهمْ بنسيان الهُموم مع المُتعة بإغرائهمْ بشُرْب الخمر ، فهُو يُبيّنُ للنّاس الضّلال والمعاصي وما يعدُهمْ هذا الشّيطانُ إلاّ باطلا يغْترُّون به ، فهُمْ يظُنُّون أنّ في الزّنى والقمار وشُرب الخمر ، لذّة ومُتْعة ، ولكنّها في الحقيقة مُتْعةٌ زائلةٌ لا تدوم ، ثُمّ تكون بعدها الآلامُ الطّويلةُ ، الّتي تكونُ عواقبُها وخيمة في الدُّنيا والآخرة .

إنّ أتباع الشّيطان الّذين استجابوا لوسوسته وإغوائه سيكونُ مأواهمْ جهنّمُ ، الّتي لا يستطيعون الهرب منها أبداً ، فهُمْ مُنغمسون فيها أبداً تحيطُ بهمْ منْ كلّ جانب .

لقدْ حذّرت الآياتُ الكريمةُ من الشّيطان ، سواء كان شيطانَ الجنّ أمْ شيطان الإنْس ، فهو لا يحبُّ الخير للإنسانِ أبداً ، فالعاقلُ العاقلُ الّذي لا تخْدعُهُ وعودُ الشّيطانِ وأمانيه ، ولا ينْساقُ خلْف وساوسه وضلاله .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منها :

١ ـ إنّ الله تعالى يغفرُ للإنسان الذّنوب الّتي يُذنبها إذا تاب منها ، إلاّ الشّرْكُ فإنّهُ سُبحانهُ لا يُمكنُ أنْ يغفرهُ للإنسان إذا مات عليه .

٢ ـ الشّيطانُ عدوٌّ مُبينٌ للإنْسانِ ، وأقسمَ أنْ يقْعُدَ لهُ بالمرْصاد ليُضلّهُ ويُغويهُ عنْ طريق الحقّ .

٣ ـ عبادُ الله المُخلصون همْ وحْدهُمْ الّذين لنْ يكونَ للشّيطانِ سُلطانٌ عليْهمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ١٢٩٢ .

٤ـ الشَّيْطانُ يُزَيِّنُ لأَتْباعِهِ الباطِلَ وَيُغْرِيهِمْ بِهِ ، وَلَكِنْ كُلُّ مَا يُغْرِيهِمْ بِهِ ذو مُتْعَةٍ عاجِلَةٍ فانِيَةٍ يَعْقُبها آلامٌ وَعواقِبُ وَخيمَةٌ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إِلاَّ ذَنْباً واحِداً ، ما هُوَ ؟ وَما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٢ـ لِمَ ذَكَرَ اللهُ هَذا النَّصَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ في مَوْضِعَيْنِ مِنَ السُّورَةِ ؟

٣ـ لِماذا كانَ المُشْرِكونَ عَلى ضَلالٍ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِكَلِمَةِ : ﴿إِنَاثاً﴾ ؟

٥ـ لَقَدْ تَوَعَّدَ الشَّيْطانُ بَني آدَمَ بِأُمورٍ ، اذْكُرْ هَذِهِ الأُمورَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيَةِ الكَريمَةِ .

٦ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ ؟

٧ـ ما نَتيجَةُ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّيْطانَ وَوَسْوَسَتَهُ ؟

٨ـ كَيْفَ يُمَنِّي الشَّيْطانُ النَّاسَ بِالأَمانِيِّ الباطِلَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ أَسْماءَ ثَلاثَةٍ مِنَ الأَصْنامِ الَّتي كانَتْ في الجاهِلِيَّةِ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ المائِدَةِ الَّتي تُبَيِّنُ ما حَرَّمَهُ المُشْرِكونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الحَيواناتِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والثَّلاثونَ

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ
نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ
وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وَعْدَ اللهِ حَقّاً : ثابِتاً واقِعاً لا مَحالَةَ .

قيلاً : قَوْلاً .

سُوءاً : قَبيحاً .

التَّفسيرُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

إنَّ الَّذينَ يَتَّبعونَ الشَّيْطانَ وَوَساوِسَهُ وَباطِلَهُ ، لَهُمْ جَهَنَّمُ لا يَسْتَطيعونَ مِنْها مَهْرَباً ، أَمَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ وَلَمْ يَتَّبِعوا وَساوِسَ الشَّيْطانِ ، وَأَخْلَصوا أَعْمالَهُمْ للهِ تَعالى ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ

تعالى جنَّاتٍ تجري مِنْ تحْتِها الأنْهارُ ، ماكِثين فيها أبَدا ، إنَّ هذا الوعْد الّذي وعدكُمْ اللهُ بهِ أيّها المؤْمنونَ هُوَ الوَعْدُ الحقُّ الّذي لا رَيْبَ فيهِ ، وَهُوَ سُبْحانهُ يعطيكُمْ بفضْله وجودِهِ وواسِع كَرمِه ، ومَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ قوْلا ووعْدا . والاستفهامُ في الآيةِ يُفيدُ النّفْي ، أي : لا أحد أصْدَقُ قوْلا مِن اللهِ .

وبعْدَ أنْ بيّنَ سُبْحانهُ وتعالى أنّ الشّيْطانَ يعِدُ أوْلياءَهُ ويُمَنّيهِمْ ، ذكرتِ الآياتُ ما كان الشّيْطانُ يُمَنّيهِ لأهْلِ الكتابِ ، فقال سُبْحانهُ :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

والصّحيحُ أنّ الآيةَ عامّةٌ .

يقولُ سُبْحانهُ وتعالى : لَيْس فضْلُ الدّينِ وشرفُ أهْلِهِ أنْ يقولَ القائلُ : إنَّ ديني أفْضَلُ وأكْملُ ، بلْ عليهِ أنْ يَعْمَل بما يهْديهِ إليْهِ دينُهُ ، لأنّ الجزاءَ إنّما يكونُ على العَمَلِ ، فليْس الدّينُ بالتّحَلّي ولا بالتّمنّي ولكنْ ما وقَر في القلْبِ وصدّقتْهُ الأعْمالُ ، فلَيْسَ كُلُّ مَن ادّعى شيْئا حصَل لهُ بمُجرّدِ دعْواهُ ، ولا كُلّ مَنْ قالَ إنّهُ على الحقِّ سُمِعَ قوْلُهُ لمُجرّدِ ذلكَ حتّى يكونَ لهُ بُرْهانٌ مِن اللهِ تعالى ، وقدْ أكّدَ سُبْحانهُ هذا الأمْرَ بقوْلِه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ لأنّ الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، وهذا الجزاءُ يكونُ في الدُّنْيا والآخرةِ .

ويُرْوى أنّ الآيةَ لمّا نزلتْ شقّ ذلكَ على المُسْلمين فجاءوا إلى النّبيّ ﷺ يشْكون ، فقالَ لهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ : « سدّدوا وقاربوا فإنّ كُلّ ما أصابَ المُسْلمَ كفّارةٌ لهُ حتّى الشّوْكةِ يُشاكُها والنّكْبةِ يُنكَبُها »[1] .

إنّ كُلّ ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنْ مصائبَ في الدُّنْيا مِنْ أمْراضٍ وأسْقامٍ وفقْرٍ وهَمٍّ يُكفّرُ اللهُ بها الخطايا ويَرْفعُ بها مِنْ درجاتِ المُسْلمِ . إنّ مَنْ يعْمَلُ سُوءاً ، يسْتحِقُّ العقابَ عليْهِ ولا يَجِدُ لهُ مِنْ دونِ اللهِ وَلِيّاً يتوَلّى أمْرهُ ويَدْفعُ العِقابَ عنْهُ ، ولا نصيراً ينْصُرُهُ ، لا مِنَ الأنْبياءِ ولا مِنْ غيْرِهِمْ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

وَمَنْ يعْمَلِ الأعْمالَ الصّالِحَةَ الّتي تُصْلِحُ نَفْسَهُ وأخْلاقَهُ ، سَواءٌ كان العامِلُ ذكَراً أمْ أُنْثى ما د م

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء : رواه الطبراني عن عائشة ، وأصله عند مسلم بلفظ : ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له درجة ومحيت عنه خطيئة ، انظر : كشف الخفاء والالباس عما دار من الحديث على ألسنة الناس ٣/ ٤٠٢ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ ما جَزاءُ المُؤْمنينَ الَّذينَ لَمْ يَتَّبعوا سُبُلَ الشَّيْطانِ ؟

٢ـ ما المَقصودُ بقولِهِ تَعالى : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ؟

٣ـ لِماذا شَقَّ الأَمْرُ على المُؤْمنينَ عِنْدَ نُزولِ قَوْلِهِ تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ ؟

٤ـ لِمَ حَصَرَتِ الآيَةُ الحُسْنَ في الدِّينِ ؟

٥ـ الدِّينُ الحَقُّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ أَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ-القِسْمُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَسْتَفْتونَكَ يطْلُبونَ مِنْكَ الفُتْيا .

كُتِبَ لَهُنَّ فُرِضَ لَهُنَّ .

أَنْ تَقوموا أَنْ تَعْدِلوا .

بالقِسْط بالعَدْلِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ تحَدَّثَتِ الآياتُ السَابِقَةُ عَمَّنْ يَجْعَلُ مَعَ اللهِ شَريكا ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ هَؤُلاءِ إِنَّما يَتَّبعونَ الشَّيْطانَ ، وَبيَّنَتْ أنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ الَّذي يَتَضَمَّنُ النيَّةَ الصَّادِقَةَ الخالِصَةَ للهِ تَعالى ، وَالعَمَلَ الصَّالِحَ . وَقَدْ خَتَمَ سُبْحانَهُ وَتَعالى الحَديثَ عَنْ هَذِهِ الأُمورِ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ ﴾

فَكُلُّ ما في السَماواتِ وَالأَرْضِ مُلْكٌ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَهُوَ خالِقُها ، وَلا يَخْرُجُ مِنْ مَلَكوتِهِ شَيءٌ مِنْها ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُحيطٌ بِما خَلَقَهُ لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وَسَيُجازي سُبْحانَهُ الَّذينَ أَساءوا بِما

عَمِلوا وَسَيُجازي الَّذينَ أَحْسَنوا الحُسْنى ، وما دامَ هُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ إِذاً وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ وَالخُضوعِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِالنِّساءِ . كانَ الصَّحابَةُ يَسْأَلونَ الرسولَ كَثيراً عَنِ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِهِنَّ ، حَتَّى يُنَفِّذوا مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمُ الشَّرْعُ مِنْ حَيْثُ مُعاشَرَتُهُنَّ وَوِلايَتُهُنَّ وَميراثُهُنَّ وَغَيْرُ ذَلِكَ .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أَيْ : يَطْلُبُ مِنْكَ أَصْحابُكَ يَا مُحَمَّدُ الفُتْيا في شَأْنِ النِّساءِ ، أَيْ : بَيانَ ما أُشْكِلَ وَغَمُضَ مِنْ أَحْكامِهِنَّ ، فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : إِنَّ اللهَ تَعالى يُبَيِّنُ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ عَنْهُ في شَأْنِهِنَّ بِما يوحيهِ اللهُ تَعالى في القُرْآنِ ، وَيُفْتيكُمْ سُبْحانَهُ في شَأْنِهِنَّ بِما يُتْلى عَلَيْكُمْ في الكِتابِ مِمَّا نَزَّلَ عَلَيْكُمْ قَبْلُ في أَحْكامِ مُعامَلَةِ يَتامى النِّساءِ .

لَقَدْ كانَتْ عادَةُ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، إِذا كانَتْ اليَتيمَةُ تَحْتَ وِلايَتِهِمْ ، أَنَّهُمْ لا يُعْطونَها ما كُتِبَ لَها مِنَ الإِرْثِ ، وَكانوا يَرْغَبونَ في نِكاحِها لِجَمالِها والتَّمَتُّعِ بِأَمْوالِها ، وَكانَ بَعْضُهُمْ يَمْتَنِعُ عَنْ نِكاحِ بَعْضِ هَؤُلاءِ اليَتامى مِنَ النِّساءِ لِكَوْنِهِنَّ قَبيحاتٍ ، وَلا يُنْكِحوهُنَّ كَذَلِكَ لِأَحَدٍ لِيَسْتَأْثِروا بِأَمْوالِهِنَّ ، وَهَكَذا إِنْ كانَتِ اليَتيمَةُ جَميلَةً تَزَوَّجَها وَأَكَلَ مالَها ، وَإِنْ كانَتْ قَبيحَةً مَنَعَها مِنَ الزَّواجِ حَتَّى تَموتَ فَيَرِثُها وَيَأْخُذُ أَمْوالَها .

وَيُفْتيكُمْ سُبْحانَهُ فيما يُتْلى عَلَيْكُمْ كَذَلِكَ في شَأْنِ المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ الَّذينَ كُنْتُمْ لا تُعْطونَهُمْ نَصيبَهُمْ مِنَ الميراثِ ، فَأَمَرَكُمُ اللهُ بِتَوْريثِ الذُّكورِ وَالإِناثِ صِغاراً وَكِباراً .

وَيُفْتيكُمُ اللهُ تَعالى أَنْ تَقوموا عَلى شُؤونِ اليَتامى وَأَنْ تَهْتَمّوا بِهِمْ ، وَتُعامِلوهُمْ بِالعَدْلِ عَلى أَكْمَلِ الوجوهِ .

إِنَّ هَذا الَّذي تَلاهُ عَلَيْكُمْ في كِتابِهِ يَنْبَغي أَنْ يَمْنَعَكُمْ أَنْ تَفْعَلوا مَعَهُنَّ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى مِمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ .

أَيْ : ما تَفْعَلوا مِنْ خَيْرٍ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ ذَكَرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، أَوْ بِغَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ كانَ عَليماً مُحيطاً بِهِ ، وَسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى خَيْرَ الجَزاءِ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتُرَغِّبَ في الإِحْسانِ إِلى النِّساءِ وَإِلى المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ ،

وَالإِحْسانِ إِلى اليَتامى ، وَقَدْ قالَ ﷺ : « أَنا وَكافِلُ اليَتيمِ في الجَنَّةِ كَهاتَيْنِ »[1] وَرَفَعَ إِصْبَعَيْهِ : السَّبَّابَةَ والوسْطَى .

وَرُوِيَ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها في قَوْلِهِ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أَنَّها قالَتْ : « هُوَ الرَّجُلُ تَكونُ عِنْدَهُ يَتيمَةٌ هُوَ وَلِيُّها وَوارِثُها ، فَأَشْرَكَتْهُ في مالِهِ حَتَّى العَذَقِ ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَها وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَها رَجُلاً فَيُشْرِكُهُ في مالِهِ بِما شَرَكَتْهُ فَيَعْضُلَها »[2] .

وَعَنْها أَنَّها قالَتْ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتيمَتِهِ الَّتي في حِجْرِهِ حينَ تَكونُ قَليلَةَ المالِ وَالجَمالِ ، فَنُهوا أَنْ يَنْكِحوا مَنْ رَغِبوا في مالِها وَجَمالِها مِنْ يَتامى النِّساءِ إِلاَّ بِالقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ ، أَيْ : إِذا كُنَّ قَليلاتِ المالِ والجَمالِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، لأَنَّهُ هُوَ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

٢ـ الحَثُّ عَلى إِعْطاءِ النِّساءِ حُقوقَهُنَّ ، وَعَدَمُ ظُلْمِهِنَّ ، وَالعَدْلُ مَعَهُنَّ .

٣ـ الحَثُّ عَلى الإِحْسانِ إلى اليَتيمِ وَحِفْظِ حُقوقِهِ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ؟

٢ـ ما مَعْنى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ؟

٣ـ لِمَ كانَ الصَّحابَةُ يُكْثِرونَ مِنَ السُّؤالِ وَالفُتيا عَنِ النِّساءِ ؟

٤ـ ما السُّلوكُ الَّذي كانَ يَتَّبِعُهُ الرِّجالُ في الجاهِلِيَّةِ تِجاهَ يَتامى النِّساءِ ؟

٥ـ ما الحُكْمُ الَّذي بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ في شَأْنِ المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ ؟

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب فضل من يعول يتيماً ، حديث رقم ٥٦٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب ويستفتونك في النساء ، حديث رقم ٤٣٢٤ .

٦ـ لَقَدْ بَيَّنَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها المَقْصودَ بقوْله ﴿ويَسْتَفْتُونك في النِّسَاءِ﴾ ، إلى قَوْله ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ، هاتِ ما ذَكَرَتْهُ في ذلكَ .

نَشاطٌ :

ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ في مَطْلَعِ سورَةِ النِّساءِ عَنِ إباحةِ التَّعدُّدِ شَريطةَ العَدْلِ . اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ وَالثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ وَالثَّلاثونَ

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا
وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟
كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خافَتْ	تَوَقَّعَتْ مَكْروهاً .
نُشوزاً	تَرَفُّعاً عَنْ زَوْجِهِ .
إِعْراضاً	مَيْلاً وَانْحِرافاً .
جُناحَ	إِثْماً وَحَرَجاً .
الشُّحَّ	البُخْلَ .
كالمُعَلَّقَةِ	لَيْسَتْ بِذاتِ زَوْجٍ أَوْ مُطَلَّقَةً .
مِنْ سَعَتِهِ	مِنْ غِناهُ .
واسِعاً	غَنِيّاً .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ السَّابِقِ عَمَّا سَأَلوهُ عَنِ النِّساءِ ، وَفي هَذهِ الآياتِ مَزيدُ بَيانٍ لأَحْكامِهِنَّ . فَبَدَأَتِ الآيَةُ الحَديثَ هُنا عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجَيْنِ ، وَما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ بَيْنَهُما مِنْ خِلافٍ وَشِقاقٍ .

وَقَدْ ذَكَرَتْ سورَةُ النِّساءِ مِنْ قَبْلُ حُكْم نُشوزِ المَرْأةِ ، وخُروجِها عَنْ طاعةِ زَوْجِها ، وهُنا نتحدّث عنْ نُشوزِ الرَّجُلِ ، فيَقولُ اللهُ سُبحانَهُ :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

وَالمَقْصودُ بالنُّشوزِ هُنا : اسْتِعْلاءُ الرَّجُلِ على زَوْجِهِ ، ومُجافاتُهُ لها وذلِك بأنْ يمنَعها نفسَهُ ونفقَتَهُ ، وَالمَوَدَّةَ والرَّحْمَةَ . ويقْصَدُ بالإعراضِ : التَّقليلُ مِنْ مُحادثَتِها ، وعدمُ مُؤانستِها وإدخالِ السُّرورِ عَلَيْها .

ومَعْنى الآيَةِ : إنْ خافتِ امْرأةٌ مِنْ زوجِها ترَفُّعاً عَنْ صُحْبَتِها أَوْ إعْراضاً بحَيْثُ صارَ يَنْصرِفُ عَنْ مُحادَثَتِها وَمُؤانَسَتِها ، ففي هذِهِ الحالِ لا بَأْسَ وَلا حَرَجَ وَلا إثْمَ عَلى الزَّوْجَيْنِ أَنْ يُصْلِحا بيْنهُما صُلْحاً ، أَيْ يَتَّفِقا عَلى الصُّلْحِ فيما بَيْنَهُما ، إبْقاءً لِرابطَةِ الزَّوْجيَّةِ ، وَذلِكَ كأَنْ تتَنازَلَ لَهُ عَنْ بعْضِ حقِّها في النَّفَقَةِ أَوْ المَبيتِ مَعَها .

رُوِيَ عنِ ابنِ عَبّاسٍ قالَ : « خشِيَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ إحْدى زَوْجاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُطلِّقَها رسولُ اللهِ ﷺ فقَالَتْ : « يا رَسولَ اللهِ ، لا تُطَلِّقْني واجْعَلْ يَوْمي لِعائشَةَ »[1] .

إنَّ الصُّلْحَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ خيْرٌ مِن الفُرْقةِ أَوْ سوءِ العِشْرَةِ ، لأَنَّ رابطَةَ الزَّوْجيَّةِ مِنْ أعظَمِ الرَّوابطِ وَأحقِّها بالحِفْظِ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ وَهِيَ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ ، جاءَتْ في بيانِ ما جبل اللهُ تعالى عَلَيْهِ الإنْسانَ ، فَقَدْ جُبِلَتْ عَلى الحِرْصِ عَلى ما تمْلِكُ ، فالمَرْأَةُ تحْرِصُ عَلى حقِّها وَلا تكادُ تتنازَلُ عَنْهُ ، وَالرَّجُلُ كذلِكَ فَهُوَ حريصٌ عَلى أَمْوالِهِ لا يَتنازَلُ عنْها ، فجاءَتْ هذه الآيَةُ لِتُذَكِّرَهُمْ بالتَّسامُحِ فيما بيْنَهُمْ ، مِنْ أَجْلِ الإبقاءِ على الحياةِ الزَّوْجيَّةِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي إنْ تُحْسِنوا أَيُّها الرِّجالُ في أقوالِكُمْ وأَفْعالِكُمْ إلى نِسائِكُمْ ، وَتتَّقوا اللهَ فيهِنَّ بأَنْ تَتْرُكوا التَّرفُّعَ عَلَيْهِنَّ وَالإعراضَ عَنْهُنَّ وَتَصْبِروا عَلى ما تَرْضَوْنَهُ مِنْهُنَّ ، إنْ تفْعَلوا ذلِكَ ، فإِنَّ اللهَ تعالى خبيرٌ بهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ دقائِقَ الأُمورِ وَخفاياها ، وَسَيُجْزيكُمْ سُبْحانَهُ بِما تَسْتَحِقّونَ .

وفي هَذا تَوْجيهٌ لِلْمُسْلِمينَ إلى أَنَّ الحياةَ الزَّوْجيَّةَ لا يُقْصَدُ بها التَّمتُّعُ فقط دون مُراعاةِ أَهمِّ أُسُسِها ، وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] . إنَّ أَهَمَّ أُسُسِ الحَياةِ الزَّوْجيَّةِ تَكْوينُ النَّسْلِ ، وَإِصْلاحُ الذُّرِّيَةِ ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع ، حديث رقم ٣٠٤٠ ، وأبو داود في السنن ، حديث رقم ٢١٣٥ .

فليحرص المسلمُ على هذه الأمور حتى تسير الأمورُ كما ينبغي . ولا يظلم المرأة حقوقها .

إنّ العدْل التام بيْن النساء أمرٌ مُستحيلٌ ، ولذا قال سُبحانه :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

أي : لنْ تستطيعوا أنْ تعْدِلوا بيْن زوْجاتِكمْ وأنْ تساووا بينهنّ عدْلا كاملا ، مهْما حرصْتمْ على ذلك ، لأنكمْ تميلون في محبّتكمْ إلى واحدة منهنّ ، وهذا الميْلُ القلْبيّ لا يمْلكُهُ المرءُ ، ولذا فإنّ الله تعالى خفّف عنْكمْ ولمْ يُؤاخذْكمْ عليْه ، وقد كان رسولُ الله يقسمُ بين نسائه فيعْدلُ ، ثمّ يقولُ : « اللّهُمّ هذا قسمي فيما أمْلكُ فلا تلُمْني فيما تمْلكُ ولا أمْلكُ »[1] . يعْني بذلك الميْلَ القلْبيّ .

وإذا كان الأمْرُ كذلك وثبت أنّكمْ لا تستطيعون أنْ تعْدلوا بينهنّ عدْلا كاملا فلا تميلوا كلّ الميْل إلى إحداهُنّ ، وتبالغوا في إرْضائها ، والإقْبالِ عليها وتعْرضوا عن الأُخْرى وتهْجُروها ، فتصيرُ كأنّها ليْستْ متزوّجة وليستْ مُطلّقة ، وقدْ سمّاها القرْآنُ (المُعلّقة) أيْ لا هي ذاتُ زوْج تنالُ حُقوقها الكاملة منْهُ ولا مُطلّقةٌ ترْجو الله أنْ يرْزُقها زوْجا آخر . إنّ الّذي يغْفرُهُ لكمْ سُبْحانهُ وتعالى ما لا يدْخُلُ في اخْتياركمْ ، ولكنّهُ سُبْحانهُ لا يغْفرُ ما يكونُ فيه تقْصيرٌ منْكمْ عنْ تعمُّد وإهْمال .

وختم سُبْحانهُ الآية بقوْله : ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أيْ : بعْد ما بدرَ منْكمْ من التفْرقة بيْن الزّوْجات وعدم المساواة بيْنهُنّ ، إنْ تُصلحوا وتعْدلوا في قسْمتكُمْ بيْنهُنّ ، وتُعاشروهُنّ بالمعروف ، وتتّقوا الله فيهنّ فلا تظلموهُنّ ، فإنّ الله تعالى يغْفرُ لكُمْ ما بدر منْكمْ منْ ذنوب في تقْصيركُمْ بحقّهنّ .

إنّ الدّين يحْرصُ على استمرار الحياة الزّوْجيّة ، ولذا فقدْ حثّ على الصّلْح بيْن الزّوْجيْن ، ولكنّ هذا الصُّلْح بينهْما قدْ يتعذّرُ ، وقدْ يكونُ في الفُرْقة بيْنهما خيْرٌ ، ولذا قال سُبْحانهُ :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

إنْ يتفرّقْ هذان الزّوْجان اللّذان يحْرصان على إقامة ما حدّهُ الله في أُمور الزّوْجيّة ، ولنْ يسْتطيعا ذلك أيْ : لمْ يستطع الرجُلُ الصّبْر على المرأة ، أوْ هي لمْ تسْتطعْ كذلك الصّبْر عليْه ، فإنّ الله تعالى جعل لهُما في الطّلاق ما يُغْني كُلا منْهُما عنْ صاحبه بسعة فضْله سُبْحانهُ وإحْسانه ، فقدْ يُسخّرُ للْمرْأة زوجا خيْرا منْهُ ويُهيىءُ لهُ امرأة أُخْرى تُرْضيه وتقومُ بشُؤون أوْلاده وبيْته ، وذلك أنّ الله تعالى كانَ ولا يزالُ واسع الفضْل والغنى والرّحْمة ، حكيما فيما شرعهُ منْ أحْكام فيها مصْلحةٌ لعباده .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب في القسمة بين النساء .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ الزَّوْجَيْنِ عَلى أَنْ يُحْسِنا العِشْرَةَ الزَّوْجِيَّةَ ، وَأَنْ يَصْبِرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما على ما يَكونُ مِنْ صاحِبِهِ مِنْ هَفَواتٍ .

٢ـ يَجوزُ لأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ بَعْضِ حُقوقِهِ لِلآخَرِ ، وَذَلِكَ بِقَصْدِ الإِبْقاءِ على الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ .

٣ـ العَدْلُ الكامِلُ بَيْنَ النِّساءِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ ، وَلِذا فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى بِالإِنْسانِ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْهُ على ما لاَ يَمْلِكُهُ وَهُوَ المَيْلُ القَلْبِيُّ ، أَمّا ما يَمْلِكُهُ فَهُوَ مُؤاخَذٌ عَلَيْهِ وَمُحاسَبٌ .

٤ـ الأَيّامُ سِجالٌ بَيْنَ النّاسِ ؛ يَومٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ عَلَيْهِمْ ، يَوْمُ نَصْرٍ ، وَيَوْمُ هَزِيمَةٍ ، ولَكِنَّ العاقِبَةَ لِلْمُتَّقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِنُشوزِ الرَّجُلِ ؟

٢ـ كَيْفَ تَخافُ المَرْأَةُ نُشوزَ الرَّجُلِ ؟

٣ـ مَا الحُكْمُ في حالِ نُشوزِ الرَّجُلِ ؟

٤ـ بَيِّنِ المَقْصودَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ .

٥ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ الرِّجالَ تِجاهَ النِّساءِ في مُعامَلَتِهِنَّ ؟

٦ـ العَدْلُ التّامُ بَيْنَ النِّساءِ مُسْتَحيلٌ ، وَضِّحْ هذِهِ العِبارَةَ .

٧ـ مَا المَقْصودُ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿فَلاَ تَميلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ ؟

٨ـ إِنَّ كَثيراً مِنَ الرِّجالِ يَعيشونَ مَعَ نِسائِهِمْ في نَكَدٍ وَضيقٍ ، حَتّى لاَ يُطَلِّقَها فَيَخْسَرَ مالاً كَثيراً ، وَلا يَسْتَطيعُ الزَّواجَ مَرَّةً أُخْرى ، بِمَ وَعَدَ اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ هُمْ وَنِساءَهُمْ إذا افْتَرَقا ؟



نَشاطٌ :

١ـ تَحدَّثَتْ أَوائِلُ سُورَةِ النِّساءِ عَنْ إِباحَةِ التَّعدُّدِ شَرِيطَةَ العَدْلِ ، اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ مَعاجِمِ اللُّغَةِ المَوْجودَةِ في مَدْرَسَتِكَ ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْهُ مَعْنى كُلٍّ مِنَ البُخْلِ وَالشُّحِّ ، وَتَبَيَّنِ الفَرْقَ بَيْنَهُما ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّابِعُ والثّلاثونَ

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ
بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

مَعاني المُفْرداتِ :

وَصَّيْنا : أَمَرْنا .

يُذْهِبْكُمْ : يُفْنيكُمْ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلنّاسِ ما تُحقِّقُ بِهِ مَصالِحُهُمْ مِنَ الأَحْكامِ ، كَالعَدْلِ والإِحسانِ إِلى اليَتامَى ، وَالعَدْلِ مَعَ النِّساءِ وَعَدَمِ ظُلْمِهِنَّ ، فَالواجِبُ عَلى المُسْلِمِ الالتِزامُ بِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى لَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ القادِرُ عَلى إِثابَتِهِمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ لِكُلِّ ما في الكَوْنِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطانِهِ ، فَعَلى النّاسِ أَنْ يَخْشَوْهُ سُبْحانَهُ وَيَتَّقوهُ ، وَلِذا قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ .

للهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ خَلْقاً وَمُلْكاً ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُدَبِّرُ الكَوْنِ إِيجاداً

وعداما ، وإحياء وإماتة ، فلا يتعذَّرْ عليه إغْناءُ أحدٍ بعْد فقْره ، وقَدْ جاءتْ هذه الآيةُ بعْد قوْله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ، ليُنبِّه الخلْقَ إلى أنَّ الزَّوجيْن إذا أرادا الفرْقة وخافا منْ ذَلكَ لما يترتَّبُ عليْه منْ تبعاتٍ ماليّة ، عليْهما عنْد ذلكَ أنْ يتوجّها إلى الله وحدهُ الذي لهُ مُلكُ الكوْن كلّه ، ولَنْ يتعذَّرَ عليْه سُبْحانهُ أنْ يُغْنِيَهُما ويُغْني كُلَّ صاحبِ حاجة ، وأنْ يمُنّ على كلّ منَ الزّوجيْن بالصّاحبِ والأنيسِ المُناسبِ .

لقدْ أمر ربُّكمْ مالكُ السماواتِ والأرْض وما فيهما ، الّذين كانوا منْ قبْلكُمْ منَ اليهود والنّصارى وغيْرهمْ منَ الأمم ، أمرهُمْ بتقوى الله تعالى ، وأمركُمْ أنتُمْ كذَلك يا أُمّة مُحمّدٍ ﷺ بتقوى الله تعالى وبمُراقبته وخشْيته والتزام أوامره واجْتناب نواهيه ، وتطْبيق شرائعه سُبْحانهُ وتعالى .

وإنْ تكْفُروا أيّها النّاسُ بعْدَ هذا بأنْعُم الله تعالى وتجْحدوا فضْلهُ سُبْحانهُ وإحْسانهُ ، فعليْكُمْ أنْ تعلموا وتتيقّنوا أنّهُ سُبْحانهُ مالكُ المُلْك والملكوت ، لنْ يضُرّهُ كُفْرُكُمْ وإتْيانُكُمْ المعاصي ، كما أنّهُ لا ينْفعُهُ شُكْرُكُمْ وتقواكُمْ ، ولكنّهُ سُبْحانهُ وصّاكُمْ بما وصّاكُمْ به رحْمةً بكُمْ لا حاجةً إليْكُمْ ، فهُو سُبْحانهُ كانَ وما يزالُ غنيّاً عنْ كُلّ شيْءٍ ، مُسْتحقّاً لأنْ يحْمدهُ الحامدونَ ، وفي الحديث القُدْسيّ : « يا عبادي إنّكُمْ لنْ تبْلُغوا ضرّي فتضُرّوني ، ولنْ تبْلُغوا نفْعي فتنْفعوني ، ولوْ أنّ أوّلكُمْ وآخركُمْ وإنْسكُمْ وجنّكُمْ كانوا على أتْقى قلْب رجُلٍ واحدٍ منْكُمْ ما زادَ في مُلْكي شيْئاً ، يا عبادي ، لوْ أنّ أوّلكُمْ وآخركُمْ وإنْسكُمْ وجنّكُمْ كانوا على أفْجرِ قلْبِ رجُلٍ منْكُمْ ما نقص ذلكَ منْ مُلْكي شيْئاً ، يا عبادي ، لوْ أنّ أوّلكُمْ وآخركُمْ وإنْسكُمْ وجنّكُمْ قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعْطيْتُ كُلّ واحدٍ مسْألتهُ ما نقص ذلك ممّا عنْدي إلاّ كما يُنْقصُ المخيطُ إذا أُدْخلَ البحْر ، يا عبادي ، إنّما هي أعْمالُكُمْ أُحْصيها لكُمْ ثُمّ أُوفّيكُمْ إيّاها ، فمنْ وجد خيْرا فليحْمد الله ، ومنْ وجد غيْر ذلكَ فلا يلومنّ إلاّ نفْسهُ »[1] .

وأكّد سُبْحانهُ هذا الأمْر بقوْله :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾

فكما أنّهُ سُبْحانهُ قادرٌ على أنْ يُغْنيَ كُلاًّ منْ سعته ، لأنّ مُلْكَ الكوْن كلّه بيده ، فهُو سُبْحانهُ غنيٌّ عن الخلْق كُلّهمْ وعنْ تقْواهُمْ ، ومُلْكُ ما في السّماواتِ والأرْضِ بيده سُبْحانهُ ، وكفى به سُبْحانهُ قيّماً وكفيلاً بأمْر العباد ، كفل لهُمْ أرْزاقهُمْ وأقْواتهُمْ وسائر شُؤونهمْ .

إنّ الله سُبْحانهُ عظيمُ السُّلْطانِ والقُدْرة والغنى ، وما يدُلُّ لذلكَ أنّهُ سُبْحانهُ وتعالى قالَ :

---

(١) رواه مسلم في الصحيح ، باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٢٥٧٧ .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

أَيْ : إِنْ يُرِدْ سُبْحانَهُ وَتَعالى إِفْناءَكُمْ وَاسْتِئْصالَكُمْ مِنَ الوجودِ ، وَيوجِدُ مَكانَكُمْ أَقواماً آخَرينَ يَحِلُّونَ مَحَلَّكُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وَتَعالى قادِرٌ عَلى ذَلِكَ ، لأَنَّ كُلَّ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ داخِلٌ تَحْتَ قَبْضَتِهِ خاضِعٌ لِسُلْطانِهِ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَفْعَلْ ، وَلَمْ يُرِدِ اسْتِئْصالَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ لِحِكَمٍ وَمَصالِحَ أَرادَها سُبْحانَهُ لا لِعَجْزٍ مِنْهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَديرٌ عَلى إِفْنائِكُمْ وَإِيجادِ خَلْقٍ آخَرَ ، كَما اسْتَأْصَلَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ وَجاءَ بِكُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

إِنَّ الَّذي بِيَدِهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَما فيهِما ، يَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَوَجَّهوا إِلَيْهِ سُبْحانَهُ بِأَعْمالِكُمْ ، وَتَقْصِدُوا ثَوابَهُ وَنَعيمَهُ ، وَتَخْشَوْا عِقابَهُ وَنِقْمَتَهُ ؛ لأَنَّ مَنْ كانَ مِنْكُمْ حَريصاً في حَياتِهِ وَسَعْيِهِ عَلى نَعيمِ الدُّنْيا مِنْ مالٍ وَجاهٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَمْلِكُ نَعيمَ الدُّنْيا وَخَيْراتِها وَيَمْلِكُ كَذَلِكَ نَعيمَ الآخِرَةِ ، إِنَّ العاقِلَ هُوَ الَّذي يَطْلُبُ النَّعيمَيْنِ مَعاً ، وَلا يَقْصُرُ طَلَبَهُ عَلى نَعيمِ الدُّنْيا وَحْدَها ، وَقَدْ عَلَّمَنا اللهُ تَعالى أَنْ نَدعوهُ بِقَوْلِنا : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] ، وَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ، سَميعاً لأَقْوالِ العِبادِ ، بَصيراً بِجَميعِ أَحْوالِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَخْشَوْهُ وَيُراقِبوهُ في أَقوالِهِمْ وأَفْعالِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

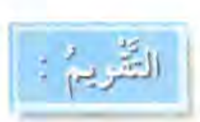
تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قُدْرَةُ اللهِ تَعالى على إِغْناءِ الفَقيرِ ، وَإِيناسِ وَحْشَةِ الإِنسانِ .

٢ـ اللهُ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ طاعَةِ المُطيعينَ وَعِصْيانِ العاصينَ ، فَهُوَ الغَنِيُّ الحَميدُ .

٣ـ إِنَّ كلَّ ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ خاضِعٌ لِسُلْطانِ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى اسْتِئْصالِ الأُمَّةِ وَالإِتيانِ بِأُمَّةٍ أُخْرى تَحِلُّ مَحَلَّها ، كَما فَعَلَ بالأُمَمِ السَّابِقَةِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ اسْتِئْصالَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِحِكَمٍ وَمَصالِحَ أَرادَها سُبْحانَهُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ مَا صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ بما ذُكِرَ مِنْ أَحْكامٍ ؟

٢ـ بِمَ تَوَعَّدتِ الآياتُ الَّذينَ يَكْفُرونَ باللهِ تَعالى ؟

٣ـ لِمَ جاءَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ في المرَّةِ الثَّانيَةِ في الآياتِ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآيَةُ عَظيمَ قُدْرَةِ اللهِ ، وَسُلْطانِهِ وَغِناهُ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٥ـ فَسِّرْ كُلاً مِمَّا يلي :

أـ ﴿وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ .

ب ـ ﴿وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ .

ج ـ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ .

د ـ ﴿فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالأَخْرَةِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ اسْتَخْلِصْ ما في الحَديثِ مِنْ عِبَرٍ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ سَمَّى النَّبيُّ تِلْكَ المَرْتَبَةَ الَّتي يَصِلُ إِلَيْها الإِنْسانُ ، أَيْ مُراقَبَةُ اللهِ تَعالى بِالإِحْسانِ ، ما المَقْصودُ بِهِ ؟ اكْتُبِ الحديثَ الدَّالَ عَلى ذَلِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورةُ النِّساءِ القِسْمُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ
تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ
ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ
كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

القِسْط : العَدْلِ .

تَلْووا : مِنَ اللَّيِّ : وَهُوَ الدَّفْعُ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِالعَدْلِ مَعَ اليَتامَى وَالمُسْتَضْعَفينَ والنِّساءِ ، وَلَكِنَّ العَدْلَ لَيْسَ مَطلوباً مَعَ هَؤُلاءِ فقطْ ، إِنَّما هُوَ مَطْلوبٌ بَيْنَ النَّاسِ جَميعاً ، فَفيهِ حِفْظٌ لِلنِّظامِ في المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ . وَهُنا يُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُؤْمنينَ ، وَيُناديهِمْ بِهَذا النِّداءِ المُحَبَّبِ إِلى نُفوسِهِمْ ، لإِلهابِ مَشاعِرِهِمْ ، وَحَثِّهِمْ عَلى الالْتِزامِ آمِراً إِيَّاهُمْ بِقَوْلِهِ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

كونوا مُواظِبينَ عَلى إِقامَةِ العَدْلِ فيمَا بَيْنَكُمْ ، وَلْتَجْعَلوا العِنايَةَ بِإِقامَةِ العَدْلِ كَما يَنْبَغي صِفَةً ثابِتَةً

راسخة في نفوسكُمْ ، فلَنْ تتحقَّقَ الصِّفةُ فيكُمْ إذا أقمْتُمْ العَدْلَ مرّةً أوْ مرّتيْنِ ، وإنّما عَلَيْكُمْ أنْ تداوموا على ذلكَ في جميعِ أحْوالِكُمْ ومعَ جميعِ الخلْقِ كذلكَ .

والعَدْلُ كما يكونُ في الحُكْمِ بيْنَ النَّاسِ ، يكونُ في العمَلِ وذلكَ كالقيامِ بحُقوقِ الزَّوْجةِ أوْ الزَّوْجاتِ ، والعدْلِ بيْنَ الأوْلادِ ؛ كبيرِهِمْ وصَغيرِهِمْ ، ذكرِهِمْ وأُنْثاهُمْ وغيْرِ ذلكَ .

وأمرَهُمْ سُبْحانَهُ أنْ يكونوا ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ ومَعْنى ذلكَ : أنْ تتحرّوْا الحقَّ الّذي يرْضاهُ اللهُ تعالى ، ويأمُرُ بهِ مِنْ غيرِ مُحاباةِ أحدٍ على أحدٍ ، ولَوْ كانَتِ الشَّهادةُ على أنْفُسِكُمْ ، أيْ : إنِ الحَقُّ لَمْ يَثْبُتْ لَكُمْ ، وإنّما لغيْرِكُمْ ، وقَدْ قالوا : (مَنْ أقرَّ على نفْسِه بحَقٍّ فقدْ شهِدَ علَيْها ، لأنَّ الشَّهادةَ إظْهارٌ للحقِّ) ، ولَوْ كانتِ الشَّهادةُ أيْضاً على والدِيْكُمْ وأقْربِ النّاسِ إليْكُمْ كأوْلادِكُمْ ، وإخْوانِكُمْ ، فإنّهُ ليْسَ منَ البرِّ ولا صلةِ الرَّحمِ أنْ يَشْهدَ الإنْسانُ لآخرينَ بحقٍّ لمْ يَثْبُتْ لهُمْ ، والنَّاسُ مأْمورونَ بالتّعاونِ على البرِّ والتّقوى ، وليْسَ على الإثْمِ والعُدْوانِ وهضْمِ النَّاسِ حقوقَهُمْ .

ولقدْ كانَ النَّاسُ في الجاهليّةِ يقفونَ معَ الغنيِّ في شَهادتِهِمْ ضدَّ الفقيرِ ، ولِذا نبّهَ سُبْحانَهُ وتعالى على هذهِ القضيّةِ بقوْلِه تعالى : ﴿ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾ أيْ إنْ يكُنْ هذا الّذي تشْهدونَ معهُ ترْجونَ منهُ مالاً ، أوْ فقيراً تترحّمونَ عليْهِ لِفقْرِهِ ، أو لا تأبهونَ لهُ ولِحالِه ، فلا تمْتنِعوا عنِ الشَّهادةِ . فإنَّ اللهَ تعالى أوْلى بهما ، أيْ أعْلَمُ بما فيهِ صَلاحُهُما ، وعليْهِ فإنَّ مرْضاةَ كُلِّ واحدٍ منَ الغنيِّ والفقيرِ ليْستْ خيْرًا لكُمْ ولا لهما منْ مرْضاةِ اللهِ تعالى ، ولسْتُمْ أعْلَمُ بمصْلحتِهما منَ اللهِ تعالى أوْ الوالدَيْنِ أوْ على ذي قرابتِكَ ، وأشْرافِ قوْمِكُمْ فإنّما كانتِ الشَّهادةُ للهِ وليْستْ للنَّاسِ ، والعدْلُ ميزانُ اللهِ في الأرْضِ وبهِ يرُدُّ اللهُ منَ الشَّديدِ على الضَّعيفِ ، ومنَ الكاذبِ على الصَّادقِ ، ومنَ المُبْطِلِ على المُحقِّ .

﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾ أيْ : لا تتّبعوا أهْواءَكُمْ لئلاّ تعْدِلوا عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ ، وقدْ قالَ تعالى : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ﴾ [المائدة : ٨] ، فلا يحْمِلنّكُمْ الهوى والعصبيّةُ وبُغْضُ قوْمٍ على غيْرِ وُجْهتِها أوْ تُعْرِضوا عنْها فلا تُقيموها ، فاللهُ سُبْحانهُ وتعالى عليمٌ بخفايا نفوسِكُمْ وسيُجازيكُمْ على أعْمالِكُمْ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾

وانتُقِلَتِ الآياتُ لتأمُرَ المُؤْمنينَ بالثَّباتِ على دينِهِمْ ، والعمَلِ بهَدْيِ كتابِهِمْ وإقامةِ الشَّهادةِ بالحقِّ ، فقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ وهُنا خِطابٌ آخرُ للمُؤْمنينَ ؛ أيْ : اثْبُتوا على إيمانِكُمْ ، وازْدادوا في الإيمانِ طُمأْنينةً ويقيناً ، وآمنوا برسولِه خاتَمِ النَّبيّينَ وبالقُرْآنِ الّذي نزّلَهُ علَيْهِ ، وبالكُتُبِ الّتي

نَزَّلَها عَلى رُسُلِهِ مِنْ قَبْلِهِ . وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ سُبْحانَهُ بِالإِيمانِ ، تَوَعَّدَهُمْ عَلى الكُفْرِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ وَهَذِهِ هِيَ أُسُسُ الدِّينِ ؛ الإِيمانُ بِاللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى رَبّاً وَخالِقاً وَإِلَهاً مَعْبوداً لا مَعْبودَ سِواهُ سُبْحانَهُ ، وَالإِيمانُ بِمَلائِكَتِهِ الَّذينَ هُمْ عِبادٌ مُكْرَمونَ لا يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلونَ مَا يُؤْمَرونَ ، وَالإِيمانُ بِكُتُبِهِ الَّتي أَنْزَلَها عَلى رُسُلِهِ لِهِدايَةِ البَشَرِيَّةِ ، وَالإِيمانُ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ جَميعِهِمْ ، لا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَالإِيمانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ ، وَما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وَعِقابٍ . وَمَنْ كَفَرَ بِواحِدٍ مِمّا ذُكِرَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَريقِ الهُدى ، وَبَعُدَ عَنِ السَّبيلِ القَويمِ بُعْداً كَبيراً .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الضَّلالِ آمَنوا في الظّاهِرِ نِفاقاً ، وَكانَ الكُفْرُ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلى قُلوبِهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الرُّجوعِ إِلى الكُفْرِ مَرَّةً أُخْرى ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَموا حَقيقَةَ الإِيمانِ ، وَلا ذاقوا حَلاوَتَهُ ، قالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾ .

فَالآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ تَكَرُّرِ الكُفْرِ مِنْهُ بَعْدَ الإِيمانِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الإِيمانَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَقْعٌ في قُلوبِهِمْ ، فَلَمْ يَفْقَهوا حَقيقَةَ الإِيمانِ وَلا ذاقوا حَلاوَتَهُ ، وَكانوا مُذَبْذَبينَ مُضْطَرِبينَ في أَحْوالِهِمْ مِنَ الإِيمانِ إِلى الكُفْرِ ، ثُمَّ مِنْ إِيمانٍ إِلى كُفْرٍ وَهَكَذا ، وَهَؤُلاءِ لا يُرْجى مِنْهُمُ الاهْتِداءُ إِلى الخَيْرِ ، وَهُمْ يَسْتَحِقّونَ أَنْ يَمْنَعَ اللهُ تَعالى عَنْهُمْ رَحْمَتَهُ وَرِضْوانَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِحْسانَهُ ، إِنَّ المَغْفِرَةَ لِلذَّنْبِ إِنَّما تَكونُ بِالتَّوْبَةِ الصّادِقَةِ وَالعَمَلِ الصّالِحِ ، وَهَؤُلاءِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ذَلِكَ أَبَداً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ المُسْلِمِ عَلى الاتِّصافِ بِالعَدْلِ ، بِحَيْثُ يَكونُ خُلُقاً ثابِتاً راسِخاً فيهِ .

٢ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى الشَّهادَةَ بِالحَقِّ دائِماً ، وَلَوْ كانَتْ عَلى نَفْسِهِ أَوِ الوالِدَيْنِ أَوِ الأَقْرَبينَ .

٣ـ الغِنى وَالفَقْرُ يَجِبُ أَنْ لا يَكونا سَبَباً في شَهادَةِ الزُّورِ ؛ الشَّهادَةِ الباطِلَةِ .

٤ـ دَعْوَةُ المُسْلِمِ إِلى الثَّباتِ عَلى دينِهِ ، وَالإِكْثارِ مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ لِيَزْدادَ إِيماناً إِلى إِيمانِهِ .

التَّقْويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلةِ التاليةِ :

١ـ هلِ العدْلُ مطْلوبٌ بيْنَ النّساءِ اليتامى والضّعفاءِ فقط ؟

٢ـ ما السِّرُّ في اخْتيارِ كلمةِ ﴿قوّامين﴾ ؟

٣ـ فسِّرْ قوْلَهُ : ﴿شُهداءَ للهِ﴾ .

٤ـ ما الحِكْمةُ منْ قوْلِهِ ﴿إن يكُنْ غنيا أوْ فقيرا﴾ ؟

٥ـ على مَنْ أُمِرَ الإنْسانُ بإقامةِ الشّهادة ؟

٦ـ أَمرَ اللهُ تعالى المُؤْمنين بالثّباتِ على دينِهِمْ ، هاتِ نصَّ الآيةِ الّتي أَمرتْ بذلِكَ .

٧ـ ما أُسُسُ الدِّينِ الحنيفِ الّتي ذكرتْها الآيةُ ؟

٨ـ مَنِ المقْصودُ بقوْلِهِ تعالى : ﴿إن الّذينَ آمنُوا ثُمَّ كفَرُوا . . . . .﴾ ؟ وعلامَ يدُلُّ فِعْلُهُمْ هذا ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ مَجالا لا بُدَّ وأنْ يتحقّقَ العدْلُ فيهِ واكْتُبْهُ في دفْترِكَ .

فكِّرْ :

قالَ تعالى : ﴿يا أيُّها الّذينَ آمنوا آمِنوا﴾ ماذا تفْهمُ مِنْ هذهِ الآيةِ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ بالتّفْصيلِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ القِسْمُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ
مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم
مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **أَيَبْتَغونَ** : أَيَطْلُبونَ .
- **يَتَرَبَّصونَ** : يَنْتَظِرونَ .
- **فَتْحٌ** : نَصْرٌ .
- **نَسْتَحوِذْ** : الاستِحْواذُ : الاسْتيلاءُ على الشَّيْءِ .



التَّفسيرُ :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

بَدَأَتِ الآياتُ الكَريمَةُ تَتَحدَّثُ عَنِ المُنافِقينَ ، وَتَشُنُّ الحَمْلَةَ عَلَيْهِمْ ، فَبَدأَتْ بِتَبْشيرِهِمْ بالعَذابِ الأَليمِ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَ سُبْحانَهُ كَلِمَةَ التَّبشيرِ بَدَلَ (الإنذارِ) تَهَكُّماً بِهَؤُلاءِ المُنافِقينَ وَتَوْبيخاً لَهُمْ ، إِذِ

البشارة تكونُ غالبا في الأخبار السارّة ، ولكنّه استعملها أيضا في الأخبار السيّئة ، فيقولُ سُبْحانَهُ وتعالى لنبيّه مُحمّد ﷺ : أنذرْ هؤلاء بالعذاب الأليم .

وتبدأُ الآياتُ الكريمةُ الحديث عن طبيعة المُنافقين ، فيقولُ سُبحانهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

إنّ من صفات هؤلاء المُنافقين أنّهمْ يتّخذون الكافرين أوْلياء لهُمْ وأنْصارا ويتْركون ولاية المُؤْمنين ، اعْتقادا منْهُمْ أنّ النّصر سيكونُ للكافرين .

وقد وبّخهُمْ سُبْحانهُ على فعْلهمْ فقال : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ والاسْتفهامُ إنْكاريّ تعجّبيّ منْ هؤلاء المُنافقين ، لماذا تركوا ولاية المُؤْمنين ، وما الّذي دفعهُمْ إلى مُوالاة الكافرين ؟ أيطْلبون العزّة والقوّة والمنْفعة منْ عنْد الكافرين ؟ إذا كان هذا هُو هدفُهُمْ ، فقدْ خابوا وخسروا ، فإنّ العزّة لله تعالى ، فالعزّةُ والقُوّةُ والمنعةُ والنُّصْرةُ لهُ سُبْحانهُ وحْدهُ ، وعليْهمْ أنْ يطْلُبوها منْهُ سُبْحانهُ وحْدهُ ، ومن اعْتزّ بغيْر الله تعالى ذلّ .

وانْتقلت الآياتُ لتنْهى المُؤْمنين عنْ مُخالطة أولئك الّذين يسْتهْزئون بآيات الله تعالى :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ .

لقدْ نزّل اللهُ عليْكُمْ ـ أيّها المُؤْمنون ـ في مكّة المُكرّمة أنّكُمْ إذا سمعْتُمُ الكافرين يسْتهْزئون بآيات الله تعالى ، فعليْكُمْ أنْ تتْركوا مجالسهُمْ ، وأنْ تُعْرضوا عنْهُمْ ، حتّى يتكلّموا في حديث غيْره . قال تعالى في سورة الأنْعام : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، إنّ هذا تحْذيرٌ لأفْراد المُجْتمع المُسْلم ، ولا يخْلو مُجْتمعٌ من المُنافقين والعابثين الّذين يتّخذون قضايا الإسْلام هُزُوا وسُخْرية ، إمّا بدافع الحقْد على أصْحابها ، وإمّا كراهيّة أنْ تسْتقرّ في المُجْتمع مثْلُ هذه القضايا ، وهؤلاء إذا جالسهُمْ أحدٌ من المُسْلمين كان في ذلك تشْجيعٌ لهُمْ ، وهذا أمْرٌ لا ينْبغي ، فإنّ صاحب الحقّ والمبْدأ يجبُ عليْه أنْ يكون عنْدهُ غيْرةٌ على الحقّ الّذي يُؤْمنُ به ، وعليْه أنْ يغْضب لما يسْمعُ من انْتهاكات وسُخْرية ، ولوْ أنّ كُلّ واحد منّا أعْرض عنْ مثْل هؤلاء لكفّوا عنْ خوْضهمْ ولهْوهمْ واسْتهْزائهمْ بآيات الله ، إنّ منْ يرْضى مثْل هذا ولا يُقاومُهُ بمُجرّد الإعْراض ، يقولُ سُبْحانهُ : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ إنّكُمْ إذا شاركْتُموهُمْ في هذه المجالس ، مع هذا الخوْض في الآيات والاسْتهْزاء بها ، تكونون مثْلهُمْ ، فالسّاكتُ عن الباطل شريكٌ فيه .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ إنَّهُمْ كما اجْتَمَعوا على الاسْتِهزاءِ بآياتِ اللهِ في الدُّنْيا ، سيجْتمعون في العِقابِ يوْمَ القيامَة .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لبيانِ بَعْضِ أَحْوالِ المُنافقين ، لقدْ جاءتْ لِتُبيِّنَ أنَّ المُنافِقين قوْمٌ انْتِهازِيّون ، يَسْتَغِلُّونَ كُلَّ حادِثٍ يَحْدُثُ في المُجْتَمع ، ويتربّصون الفُرصَ لينتفعوا بكُلِّ ما فيها ، وترى أنَّ لَهمْ القُدْرَةَ في تَقْديمِ الأَعْذارِ لِيَعْتَذِروا عمّا كان مِنْهُمْ ، إنَّهُمْ ينْتَظِرون ما يَحْدُثُ لِلْمُؤْمنينَ مِنْ خيْرٍ أوْ شرٍّ ، فإذا نالَ المُؤْمنينَ مِنَ اللهِ تعالى فتْحٌ ونصْرٌ ، قالوا لَهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ معكُمْ ؟ أيْ ألمْ نُشارِكْكُمْ في الضَّراءِ ، أَلَمْ نتْرُكْ أَهْلينا وقوْمَنا لنعيش معكُمْ ، ونُقوّي جمْعَكُمْ ، فنحْنُ نسْتحِقُّ أنْ نُشارِكَكُمْ في الغَنيمَةِ .

أمّا إذا دارَتِ الدَّوائِرُ على المُسْلمين وكان لِلكافِرين نصيبٌ مِن الغلبَةِ والقُوَّةِ قالوا لهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنين . والاستحواذُ كما عَرَفْنا : الاسْتيلاءُ على الشَّيْءِ ، فهؤُلاءِ يَتودَّدون إلى الكافِرينَ ويَقولونَ لَهُمْ : إنّا كُنّا مُسْتحوذين على أمْرِكُمْ أيْ مالكين لهُ ، قادِرين على التَّصَرُّف فيه ، فَنَحْنُ لَمْ نَتَصرَّفْ إلاّ بما فيه مصْلحتُكُمْ ، وذلك مِنْ تخْذيلِ المُؤْمنينَ عنْكُمْ ، وإفْشاءِ أسْرارِهِمْ إليْكُمْ ، وتَرْويجِ الفِتَنِ ، فاسْتَفَدْتُمْ ممّا فعلْنا ، وكانَ النَّصْرُ لَكُمْ ، فنحْنُ شُركاؤُكُمْ فيه .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنْ نَصْرِ المُؤْمنين بالفَتْح ، وعنْ نصْرِ الكافِرينَ بالنَّصيب ، لِيُبيِّنَ سُبْحانَهُ أنَّ العاقِبَةَ إنَّما تَكونُ لِلْحَقِّ دائماً ، وأنَّ الباطِلَ سيُهْزَمُ أمامَهُ مَهْما كان ، فقدْ يكونُ هُناكَ نَصيبٌ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِلباطِلِ ، ولكِنْ دائماً - إنْ شاء اللهُ - يَنْتَهي بغلبَةِ الحقِّ ما دام أهْلُهُ مُتَّبِعين لِسُنَّةِ اللهِ تعالى .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بقَوْلِه تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فهْو سُبحانَهُ يحْكُمُ بيْنَ المُؤْمنينَ الصّادقينَ ، والمُنافِقينَ الَّذينَ يُظْهِرون الإيمانَ ويُبْطِنونَ الكُفْرَ ، حُكْماً يليقُ بكُلِّ فريقٍ مِنْهُمْ بما يَسْتَحِقُّونَ مِنْ ثَوابٍ أَوْ عِقابٍ ، إنَّ المُؤْمنينَ ما داموا مُتمسِّكينَ بدينِهِمْ مُتَّبِعين لأمْرِ اللهِ ونَهْيِه ، مُسْتَعِدِّينَ دائماً لِقتالِ الكافِرينَ بإعْدادِ العُدَّةِ والعَتادِ ، فإنَّهُ لَنْ يكونَ لِلكافِرين على المُؤْمنين سُلْطانٌ ، وما غُلِبَ المُسْلمونَ في أيّامنا إلاّ بسَببِ تَرْكِهِمْ هَدْيَ كتابِهِمْ وتَرْكِهِمْ أوامِرَ دينِهِمْ ، ولِذا أَذَلَّهُمُ اللهُ بَعْدَ عِزِّهِمْ ، وَهَزَمَهُمْ بعْدَ النَّصْرِ الَّذي كانَ لَهُمْ ، فلا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منْها :

١ـ تَحْريمُ مُوالاةِ المُؤْمنينَ للكافِرين ، وَذلكَ أَنَّ المُؤْمنينَ بعضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ ، وَالكافرين بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ .

٢ـ المُسْلمونَ أَعِزّاءُ ما داموا مُتَمَسِّكينَ بِكتابِ اللهِ تعالى ، سائِرينَ على نَهْجِهِ القَويم .

٣ـ حُرْمَةُ مُجالَسَةِ الَّذينَ يَسْتَهْزِئونَ بآياتِ اللهِ تعالى ، أَوْ يفْعلونَ المُنْكَراتِ ، لأَنَّ في مُجالَسَتِهِمْ رِضىً بِما يَفْعَلونَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عنِ الأسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ ما سِرُّ اسْتِخْدامِ كَلِمَةِ التَّبْشيرِ بَدَلَ الإنْذارِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ﴾ ؟

٢ـ مَنِ الَّذينَ يُواليهِمُ المُنافِقونَ ؟

٣ـ بِمَ وَبَّخَ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُنافِقينَ عَنِ الجُلوسِ مع المُنافقين ؟

٤ـ لِمَ نَهَتِ الآياتُ المُؤْمنينَ عَنِ الجُلوسِ مَعَ المُنافِقينَ ؟ وهَلْ مَعْنى ذلكَ أَنَّنا لا يَجوزُ لنا أَبَداً أَنْ نُجالِسَهُمْ ؟

٥ـ مَا مَوْقِفُكَ مِمَّنْ تَسْمَعُهُ يَسْتَهْزِئُ بآياتِ اللهِ تعالى أَوْ بِحُكْمٍ مِنْ أَحْكامِهِ ؟

٦ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ صِفةِ الانْتِهازِيَّةِ عِنْدَ المُنافِقينَ ، وَضِّحْ هَذهِ الصِّفَةَ مِنْ خلالِ الآيَةِ .

٧ـ مَتى يَكونُ النَّصْرُ لِلْمُسْلمينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمنِ الَّتي ذَكَرَتْها سورَةُ الفُرْقانِ وبِخاصَّةٍ ما يُناسِبُ مَعْنى الآيَةِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الَّتي تُبَيِّنُ صِفَةَ كَلِمَةِ الكافِرين ، وصِفَةَ كَلِمَةِ رَبِّ العالَمين .

الدَّرْسُ الأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الأَرْبَعونَ

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ
أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ
وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُسالى : مُتثاقِلينَ مُتَباطِئينَ .

يُراءُونَ النَّاس : الرِّياءُ : العَمَلُ كَيْ يَراهُ النَّاسُ وَيَكونُ قَصْدُهُ رِضاهُمْ .

مُذَبْذَبينَ : الذَّبْذَبَةُ تَعْني الاضْطِرابَ وَالحَرَكَةَ وَعَدَمَ الاسْتِقرارِ على أَمْرٍ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ حَذَّرَ القُرْآنُ كَثيراً مِنَ المُنافِقينَ ، الَّذينَ لا يُظْهِرونَ لِلنَّاسِ حَقيقَتَهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بَعْضَ صِفاتِهِمْ ، وَهَذِهِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفاتٍ أُخْرى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

١ - إِنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللهَ وَرَسولَهُ ﷺ ، حَيْثُ يُظْهِرونَ الإيمانَ وَيُبْطِنونَ الكُفْرَ ، وَمَعَ

أنَّهمْ لا يُمكنُهمْ أنْ يخدَعوا الله ، ولكنْ جعل عملَهُمْ خداعاً لله تعالى لبيان فظاعة فعلهم ، فهُمْ بمُخادعتِهمْ لرَسولِ الله والمُؤمنين كأنَّهمْ يُخادِعون الله تعالى . لقدْ غاب عنْ أذهانِ المُنافقينَ أنّ الله تعالى لا يخفى عليْه شيْءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماءِ ، فهُو يعلمُ السِّرَّ وأخفى ، ولكنَّهمْ قوْمٌ جاهلون نشأوا على النِّفاقِ والخداعِ واسْتمرّوا عليْهِ ، وفي الحقيقة أنّهُ سُبحانَهُ وتعالى خادِعُهمْ ، أيْ مُجازيهمْ على خِداعِهمْ في العاجلِ والآجلِ ، أيْ أنَّهمْ في خداعِهِمْ لِلرَّسولِ ﷺ والمُؤمنينَ يسيرون في طَريقِ الضَّلالِ وَالخِزْيِ .

٢ـ ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ فهُمْ إذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا مُتباطِئين مُتَثاقلينَ ، ليْسَ لَهُمْ أيَّةُ رَغْبَةٍ بها ، لأنَّهُمْ لا يرْجونَ ثوابَ الله ، ولا يخْشوْنَ عِقابَهُ ، وإنَّما هُمْ يخْشَوْنَ النَّاسَ ، وَذَلك أنَّهُمْ يقْصُدونَ بصَلاتِهمْ الرِّياءَ والسُّمْعَةَ والخِداعَ ، وهُمْ لا يذْكرونَ اللهَ في صلاتِهمْ إلاّ ذِكْراً قليلاً ، أوْ وقْتاً قليلاً ، وذلكَ أنَّهُمْ لا يخْشَعونَ ولا يدرونَ ما يقولونَ ، بلْ هُمْ في صَلاتِهمْ ساهونَ لاهونَ ، أوْ أنَّهُمْ لا يُصلُّونَ إلاّ قليلاً ، فهُمْ ما داموا غائبين عنْ أعْيُنِ النَّاسِ لا يُصلُّون ، أمّا إنْ كانوا معَهُمْ فهُمْ يُصلُّونَ مُراءاةً وسُمْعَةً .

٣ـ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

منْ صِفاتِهمْ أنَّهُمْ مُذبْذبون ، مُتَحيِّرون ، لا يَسْتقِرّون على حالٍ ، فهُمْ تارةً يميلون إلى المؤمنين ، وتارةً إلى الكافِرينَ ، وفي هذا عذابٌ لهُمْ في الدُّنْيا ، فإنَّ الاسْتقرار أمْرٌ ضروريٌّ للإنْسانِ في جميعِ أُمورِه ، ولكنَّ هؤُلاءِ لاضْطرابِهِمْ لا يشْعُرون بالاسْتِقْرارِ وَالهُدوءِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بقَولِه تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أيْ : منْ قضتْ سُنَّةُ الله تعالى أنْ يكونَ ضالاً ، سائراً في طَريقِ الباطلِ بما قدَّمَ منْ عمَلٍ ، فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً للهدايةِ ، فإنَّكَ مهْما أتيْتَهُ بالحُجَجِ وَالبراهينِ ، فلَنْ يقْتنِعَ بالحقِّ وَذلكَ لسوءِ اخْتيارِه ، وانْطِماسِ بصيرتِه .

وانْتَقلَتِ الآياتُ لِتنْهى المُؤْمنينَ عنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ .

والوِلايَةُ تكونُ بالنُّصْرَةِ بالقَوْلِ والفِعْلِ ، بما يكونُ فيهِ ضررٌ لِلْمُسْلمين ، وَها نَحْنُ نرى الكثيرينَ ممَّنْ يَدّعونَ الإسْلامَ ، يُوالونَ الكافِرينَ ، فهُمْ يُفْشونَ أسْرارَ المُؤْمنينَ لهُمْ ، وليْسَ هذا فقط ، بَلْ إنَّهُمْ يُنْزِلونَ أقْسى ألْوانِ الأذى وَالعذابِ بالمُؤْمنينَ لإرْضاءِ الكافِرين ، ولا حوْلَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ .

والاسْتفْهامُ في قوْلِه تعالى : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ للإنْكارِ والتّحذيرِ منْ

أَنْ تَقَعَ هَذِهِ المُوالاةُ مِنْهُمْ ، إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِذا اتَّخَذْتُمُ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دونِ المُؤْمِنينَ ، فَقَدْ جَعَلْتُمْ للهِ حُجَّةً في عِقابِكُمْ ، وَفي تَخَلِّيهِ عَنْ نُصْرَتِكُمْ وَرِعايَتِكُمْ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ مَصيرَ المُنافِقينَ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَهُمْ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ ، وَالنّارُ سَبْعُ دَرَكاتٍ ، سُمِّيَتْ كَذَلِكَ لأَنَّها مُتَتابِعَةٌ ، بَعْضُها تَحْتَ بَعْضٍ .

إِنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ ، الَّذينَ نَشَأوا عَلى النِّفاقِ سَيَكونونَ يَوْمَ القِيامَةِ في الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنَ النّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصيراً يُنْقِذُهُمْ مِنْ ذَلِكَ العَذابِ أَوْ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ ، لَقَد كانَتْ نَتيجَةُ النِّفاقِ الدَّرْكَ الأَسْفَلَ مِنَ النّارِ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ جَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالاسْتِهْزاءِ بِالإِسْلامِ وَأَهْلِهِ ، وَجَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالفِسْقِ وَالتَّضْليلِ وَالخِداعِ ، وَإِشاعَةِ الفَواحِشِ في صُفوفِ المُؤْمِنينَ ، فَنُفوسُهُمْ هِيَ أَحَطُّ النُّفوسِ في الدُّنْيا ، فَكانَ مَصيرُهُمُ الدَّرْكَ الأَسْفَلَ مِنَ النّارِ في الآخِرَةِ .

إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسِعَةٌ ، وَلِذا فَإِنَّنا نَجِدُهُ سُبْحانَهُ يَفْتَحُ بابَ التَّوْبَةِ لِلْبَشَرِ جَميعاً ، لِيَدْخُلَهُ مَنْ يُريدُ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ ذُنوبِهِ مِنَ المُنافِقينَ وَغَيْرِهِمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

إِنَّ هَذا الجَزاءَ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُنافِقينَ ، لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلى نِفاقِهِ ، أَمَّا الَّذينَ تابوا وَنَدِموا عَلى ما كانَ مِنْهُمْ وَفَعَلوا بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضَ الأُمورِ مِنْها :

١ـ أَنْ يُصْلِحوا أَعْمالَهُمْ فَيَلْتَزِموا الصِّدْقَ في القَوْلِ وَالعَمَلِ ، مَعَ الأَمانَةِ وَالوَفاءِ بِالوَعْدِ ، وَيُخْلِصوا النُّصْحَ للهِ وَرَسولِهِ ﷺ ، وَيُقيموا الصَّلاةَ خاشِعينَ فيها ، خاضِعينَ للهِ تَعالى .

٢ـ أَنْ يَعْتَصِموا بِاللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكونَ غَرَضُهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَصَلاحِ الأَعْمالِ ، مَرْضاةَ اللهِ تَعالى ، مَعَ التَّمَسُّكِ بِكِتابِهِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِآدابِهِ ، وَالاعْتِبارِ بِمَواعِظِهِ ، وَالانْتِهاءِ عَنْ نَواهيهِ .

٣ـ إِخْلاصُهُمْ للهِ تَعالى بِأَنْ يَدْعوهُ وَحْدَهُ وَلا يَدْعونَ مِنْ دونِهِ أَحَداً لِكَشْفِ ضُرٍّ ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ .

أُولَئِكَ التّائِبونَ الَّذينَ يَفْعَلونَ ما ذُكِرَ يَكونونَ مَعَ المُؤْمِنينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتي اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ ما وَعَدَهُمْ بِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإخْلاصُ في العَمَلِ للهِ تَعالى ، وَالمُؤْمِنُ يَبْعُدُ عَنْ مُراءاةِ النَّاسِ في الصَّلاةِ وَغَيْرِها .

٢ـ التَّحْذيرُ مِنَ المُنافِقينَ ، بِذِكْرِ صِفاتِهِمْ ، لِيَحْذَرَهُمُ المُسْلِمُ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ .

٣ـ عَدَمُ مُوالاةِ الكافِرينَ ، وَنُصْرَتِهِمْ بِما يُؤَدِّي إلى الإضْرارِ بِالمُسْلِمينَ .

٤ـ بابُ التَّوْبَةِ مَفْتوحٌ أمامَ العِبادِ ، لِيَدْخُلَهُ كُلُّ مَنْ يُقْلِعُ عَنْ ذَنْبِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ مِنْ صِفاتِ المُنافِقينَ مُخادَعَتُهُمْ للهِ ، لِماذا جاءَ هٰذا التَّعبيرُ : يُخادِعونَ اللهَ ، وَلَمْ يَقُلْ يُخادِعونَ رسولَ اللهِ ؟

٢ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ؟ وَعَلامَ يَدُلُّ ؟

٣ـ كَيْفَ يُؤَدِّي المُنافِقونَ الصَّلاةَ ؟ وما مَعْنى : ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ؟

٤ـ لِماذا كانَ المُنافِقونَ مُذَبْذَبينَ ؟

٥ـ كَيْفَ تَكونُ المُوالاةُ لِلكافِرينَ ؟ وَلِماذا يَنْهى اللهُ المُؤْمِنينَ عَنْها ؟

٦ـ ما هُوَ مَصيرُ المُنافِقينَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ إنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ لاَ بُدَّ أَنْ يَتْبَعَها أُمورٌ ، ما هِيَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ البَقَرَةِ الَّتي تُبَيِّنُ هٰذِهِ الصِّفَةَ ـ يُخادِعونَ اللهَ ـ لِلمُنافِقينَ .

٢ـ لِلتَّوْبَةِ شُروطٌ ذَكَرَها العُلَماءُ ، هاتِ هٰذِهِ الشُّروطَ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٣ـ تَتَبَّعْ صِفاتِ المُنافِقينَ الَّتي وَرَدَتْ في سورَةِ النِّساءِ ، وَاكْتُبْها عَلى لَوْحَةٍ كَرْتونِيَّةٍ ، وَعَلِّقِ اللَّوْحَةَ في مَكانٍ بارِزٍ في المَدْرَسَةِ .

الدَّرْسُ الحادي والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي والأَرْبَعونَ

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُفَرِّقوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ : يُؤْمِنوا باللهِ ظاهِراً ويَكْفُروا بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

سَبيلاً : طَريقاً .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ مَصيرَ المُنافِقينَ في الآخِرَةِ ، فَهُمْ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النارِ ، أَمَّا الَّذينَ يَتوبونَ مِنْهُمْ ، وَيُصْلِحونَ أَعْمالَهُمْ ، ويَعْتَصِمونَ باللهِ ، وَيُخْلِصونَ دينَهُمْ للهِ ، فَهُمْ مَعَ المُؤْمِنينَ . وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ لَنا جانِباً مِنْ مَظاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ لَهُ سُبْحانَهُ في عَذابِ النَّاسِ وَمُعاقَبَتِهِمْ ، أَيَتَشَفَّى بِهِ مِنَ الغَيْظِ ؟ أَمْ يَسْتَجْلِبُ بِهِ نَفْعاً ؟

أمْ يسْتدْفِعُ بِهِ ضررا ؟ إنّ الله تعالى هُو الغنيّ المتعالي ، فهو سبحانهُ لا يفعلُ بكُمْ شيئاً من العذاب ما دُمْتُمْ تُؤمِنون بالله وتشْكُرونهُ سُبحانهُ ، ولقد اقْتضتْ حكمةُ الله تعالى أنْ لا يُعذّبَ إلاّ منْ يستحِقُّ ذلكَ العذاب .

لقدْ قدّم سُبحانهُ هنا الشُّكر على الإيمانِ ، وذلك لأنّ الشُّكر سببٌ في الإيمانِ ، فالإنْسانُ الّذي يرى نعم الله تعالى ، ويتفكّرُ فيها ، ويُقدّرُها حقّ قدرها ، يزْدادُ إيمانا بِشُكْرِ تِلْك النعم ، والشُّكْرُ إنّما يكونُ بطاعة الله تعالى .

وانْتقلتِ الآياتُ لِتُبيّن حُكْم الجهْر بالسّوءِ من القوْل ، وإبْداء الخيْرِ وإخْفائه ؛ وذلك أنّ الآياتِ السّابِقة ذكرتْ عُيوبَ المُنافقين ومفاسدهُمْ ، وقدْ يظُنُّ بعضُنا أنّ الجهْر بالسُّوءِ ، وذِكْر مساوئ الآخرين أمْرٌ مُباحٌ مُسْتدِلا بذكْرِ القُرْآن لعُيوبِ غيْرِ المُؤمنين ، فجاءتِ الآياتُ هُنا لِتُبيّن للناسِ أنّ الله تعالى لا يُحِبُّ الجهْر بالسُّوء ، فقال سُبحانهُ :

﴿ ۞ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

والسُّوءُ من القوْلِ ، ما يسوءُ منْ يُقالُ فيه وذلكَ بأنْ يذْكُر عُيوبَ الشّخْص ومساوئهُ الّتي تُؤْذي كرامتهُ ، إنّ الله تعالى لا يُحبُّ منْ عِبادِه أنْ يجْهروا فيما بيْنهُمْ بذكْرِ العُيوب والسّيّئاتِ ، لأنّ في ذلك مفاسد كثيرة ، إذ يُشيعُ العداوة بيْن النّاس ، ويَتْبعُ ذلك سفْكُ الدّماءِ ، وأكْلُ حُقوقِ النّاسِ .

إنّ الله تعالى لا يحبُّ لأحد منْ عباده أنْ يجْهر بالأقْوالِ السّيّئةِ ، إلاّ منْ وقع عليْه الظُّلْمُ ، بأنْ ظلمهُ ظالمٌ فجهر بالشّكوى ، ليُرْفع عنْهُ الظُّلْمُ . فمنْ يقولُ السُّوء دون أنْ يكون لهُ ضرورةٌ يبْغضْهُ الله تعالى ولا يحبّهُ ، وأنت تعْلمُ أنّ القُرْآن يأْمُرُ أتْباعهُ دائما بالقوْلِ الطّيّب .

وخُتِمتِ الآيةُ بقوْلِهِ تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ، فهُو سُبحانهُ يسْمعُ قوْل من يجهرُ بالسُّوءِ ولا يخْفى عليْهِ شيءٌ منْ أقوال العِباد وأفْعالِهِمْ ونيّاتِهِمْ ، وأكّدتِ الآياتُ هذا الأمْر بقوْلِهِ سُبحانهُ وتعالى :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

أي إنكُمْ أيّها المُؤمنون يا منْ تفْعلونَ الخيْر منْ طاعة وبِرّ وقوْل حسن إنْ أظْهرتُمُ الخيْر ، أوْ أخفيْتُموهُ بأنْ عملْتُموهُ سرّا ، أوْ إنْ عفوْتُمْ عنْ سوءٍ صدر منْ غيْرِكُمْ ، يُكافئْكُمُ اللهُ تعالى على ذلِك مُكافأة حسنة ، ويتجاوزْ عنْ سيّئاتكُمْ ، فإنّ الله تعالى كان عفُوّا قديرا . يعفو عنِ العُصاةِ مع قُدْرته على مُعاقبتِهِمْ .

وبيّنتِ الآياتُ الكريمةُ أنّ الإيمانَ الصّحيح لا بُدّ لهُ منْ رُكْنيْنِ أساسيّيْنِ لا يُقْبلُ الإيمانُ بدونِهما وهُما : الإيمانُ باللهِ والإيمانُ برُسُلِهِ جميعاً :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ ﴾ .

إِنَّ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الإِيمانِ باللهِ وَالإيمانِ بِرُسُلِهِ يُعَدُّ كافِراً ، لأَنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ عَلى النَّاسِ أَنْ يَعْبُدوهُ بالطَّرِيقَةِ الَّتي شَرَعَها وَالَّتي جاءَ الرُّسُلُ لِبيانِها ، فإِذا جَحَدوا رِسالَةَ الرُّسُلِ وَأَنْكَروها ، فَقَدْ أَنْكَروا شَرْعَ اللهِ تَعالى الَّذي جاءَ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَامْتَنَعوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعالى وَعِبادَتِهِ .

إِنَّ مَنْ يَقولُ مُعانِداً نُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ ونَكْفُرُ بِبَعْضِهِمْ كَما قَالَ اليَهودُ : نُؤْمِنُ بِموسى والتَّوْراةِ وَنَكْفُرُ بما وَراءَ ذَلِكَ ، وَكَما قالَ النَّصارَى : نُؤْمِنُ بعيسى وَالإِنْجيلِ وَنَكْفُرُ بِما سِوى ذَلِكَ ، وَيُريدونَ بِقَوْلِهِمْ هَذا أَنْ يَتَّخِذوا بَيْنَ الإيمانِ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَالكُفْرِ بِبَعْضِهِمْ الآخَرِ طَريقاً لَهُمْ يَسْلُكونَهُ ، وديناً يَتَّبِعونَهُ ، إِنَّ أُولَئِكَ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ سَيَكونُ لَهُمْ عَذابٌ فيهِ ذُلٌّ وَمَهانَةٌ جَزاءَ كُفْرِهِمْ وَجُحودِهِمْ .

هَذا هُوَ شأْنُ وَجَزاءُ الكافِرينَ باللهِ تَعالى وَرُسُلِهِ ، وَتِلْكَ هِيَ عاقِبَتُهُمْ ، فَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلى أَنْ يُؤْمِنَ باللهِ تَعالى ، وَيُؤْمِنَ بِرُسُلِ اللهِ تَعالى جَميعَهُمْ ، وَبِما جاءوا بِهِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ خاتَمِ الأَنْبياءِ وَالمُرْسَلينَ ؛ وَلِذا جاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ شَأْنَ المُؤْمِنينَ ، فَقَدْ بَشَّرَهُمْ اللهُ تعالى بِقَوْلِهِ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ .

أَيْ آمَنوا حَقَّ الإيمانِ ، وَآمَنوا بِرُسُلِهِ جَميعاً ، وَلَمْ يُفَرِّقوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَلَمْ يُفَرِّقوا في الإِيمانِ بَيْنَ رسولٍ وَرَسولٍ ، بَلْ آمَنوا بِهِمْ جَميعاً ، أُولَئِكَ الَّذينَ اسْتَقَرَّ الإِيمانُ الكامِلُ في قُلوبِهِمْ ، وَالَّذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعالى بِتِلْكَ الأَوْصافِ الحَميدَةِ سَوْفَ يُؤْتيهِمُ اللهُ أُجورَهُمُ الَّتي وَعَدَهُمْ اللهُ بِها ، وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُسْلِمُ يُكْثِرُ مِنْ فِعْلِ الخَيْرِ سواءٌ أَكانَ في السِّرِّ أَمْ في الجَهْرِ .

٢ـ المُسلِمُ يَعْفو عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ عَفا عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ زادَهُ اللهُ تَعالى عِزّاً .

٣ـ الإيمانُ باللهِ تَعالى يَتَمَثَّلُ في طاعَتِهِ واتِّباعِ أَوامِرِهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ .

٤ـ الإيمانُ بِحَقٍّ هُوَ الإيمانُ بِرُسُلِ اللهِ تَعالى جَميعاً ، وَعَدَمُ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ .

٥ـ حِفظُ اللِّسانِ ، وَعَدَمُ الجَهْرِ بالسُّوءِ ، وَذِكْرِ مَعايِبِ النَّاسِ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليَةِ :

١ـ هَلْ للهِ تَعالى أيُّ مَنْفَعَةٍ في تَعْذيبِهِ لِلْبَشَرِ ؟

٢ـ لِمَ قَدَّمَتِ الآياتُ الشُّكْرَ عَلى الإيمانِ ؟

٣ـ لماذا نَهَتِ الآياتُ عَنِ الجَهْرِ بالسُّوءِ ؟

٤ـ مَتى يَكونُ الجَهْرُ بالسُّوءِ مُباحاً ؟

٥ـ ما مَصيرُ مَنْ يَعْمَلُ الخَيْرَ وَيَعْفو عَنِ النَّاسِ ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ رُكْنَيْنِ أساسيَّيْنِ لِلإيمانِ ، ما هُما ؟

٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ .

٨ـ بَيِّنْ سَبَبَ كُفْرِ اليَهودِ وَالنَّصارى ، أَيِّدْ إجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيَةٍ مِنْ سورَةِ الفُرْقانِ ، وَتَدَبَّرْ مَعْناها .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ قَبْلَ الأخيرَةِ مِنْ سورَةِ البَقَرَةِ الَّتي تُبَيِّنُ إيمانَ المُؤْمِنينَ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ .

* * *

الدَّرْسُ الثّاني والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّاني والأَرْبَعونَ

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم
مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

جَهْرَةً : عَياناً بالبَصَرِ .

الصَّاعقَةُ : نارٌ مِنَ السَماءِ .

اتَّخَذوا العِجْلَ : جَعَلوهُ إلهاً وَعَبَدوهُ .

سُجَّداً : خاضِعينَ للهِ تَعالى .

ميثاقاً غليظاً : عَهْداً مُؤَكَّداً بِطاعَةِ اللهِ تَعالى .

التَّفْسيرُ :

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ .

إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ ـ كَما جاءَ في الآياتِ السَّابِقَةِ ـ قَدْ كَفروا ، حَيْثُ فَرَّقوا بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَقالوا نُؤْمِنُ

ببعض ونكفر ببعض ، وقد ذكرت هذه الآيات بعض أمورهم التي كانت منهم ، مما يدل على تعنتهم وعلى جهلهم بدين الله تعالى وشرعه .

لقد طلبوا من الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتابا خالصا لهم ، كما أنزل على سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التوراة في الألواح ، وسؤالهم هذا كان على سبيل التعنت والعناد ، وقد بين الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أنهم سألوا موسى عليه الصلاة والسلام أسئلة أكبر من ذلك :

١ـ فقد قالوا له أرنا الله تعالى جهرة ، أي : رؤية ظاهرة بحيث نعاينه ونشاهده بأبصارنا ، فلا تعجب يا محمد من سؤالهم ولا تستنكره ، فكل سؤال سألوه يدل على جهلهم ، وكانت نتيجة ذلك أن أخذتهم الصاعقة بظلمهم ، والصاعقة هي الصوت الشديد في الجو ، ثم يكون منه نار أو عذاب أو موت ، وقد كان من آثار هذا الصوت الشديد أن خروا مغشيا عليهم ، وذلك كله بسبب ظلمهم وعنادهم وخروجهم عن أوامر الله تعالى ، وبسبب جهلهم ، حيث شبهوا الخالق بالمخلوق .

٢ـ ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ وهذه من رذائل اليهود العظيمة ، فهم بعد أن نجاهم الله تعالى من فرعون وأتباعه ، وبدلا من أن يشكروا الله تعالى ، قاموا بعبادة العجل بعد ما جاءتهم البينات ، والدلائل القاطعة على وحدانية الله تعالى ، وصدق أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وبعد أن نجاهم الله تعالى من عدوهم وأغرقه وجنوده ، والأولى بهم أن يعبدوا الله ويشكروه ولكن رحمة الله واسعة ، فقد عفا عنهم بعد أن اتخذوا العجل معبودا لهم من دون الله تعالى ، وأعطى سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بفضله ومنته حجة واضحة ، وسلطة على اليهود بحيث خضعوا له .

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

ومن رذائل اليهود التي تدل على عنادهم ، نقضهم للعهود والمواثيق ، فقد أخذ الله عليهم الميثاق ، بأن يأخذوا ما أنزل الله عليهم ويعملوا به مخلصين لله ، ولكنهم امتنعوا عن العمل بما فيها ، فرفع سبحانه وتعالى الطور فوقهم ، وهو جبل رفعه الله فوق رؤوسهم وألزمهم بالسجود ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي : قيل لهم ادخلوا باب المدينة سجدا ، خاضعين لله تعالى في ذلة و نكسار ، ولكنهم مع ذلك لم يفعلوا ، فقد أمروا بالدخول ساجدين قائلين (حطة) أي : حط عنا خطايانا يا رب ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون : قمحة في شعيرة .

٤ـ ومن رذائلهم كذلك اعتداؤهم في السبت ، فقد أمرهم الله تعالى أن لا يتجاوزوا الحدود ، ولا يعتدوا في السبت ، أي لا يصطادوا الحيتان فيه ، ولكنهم خالفوا أمر الله تعالى ، وكانوا يصيدون في هذا اليوم ، ولكن بطريقة التحايل في ظن منهم أن هذا لا حرج ولا إثم فيه .

لَقَدْ أَخَذَ اللهُ تعالى عليهِمْ عهْداً مُؤكَّداً ، ومُوثّقاً بأنْ يعْملوا بكُلِّ ما أَمَرَهُمْ اللهُ به ، ولكِنّهُمْ نَقَضوا العُهودَ وكَفَروا بآياتِ اللهِ تَعالى ، فهُمْ قومٌ جُبلوا على حُبِّ المُخالَفَةِ .

٥ـ إنَّ رَذائِلَ اليَهودِ وجَرائِمَهُمْ كثيرةٌ ، فاللهُ سُبْحانهُ يَقولُ في بَيانِ ذلِكَ :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

بِسَبَبِ نَقْضِ هؤُلاءِ اليَهودِ لِعُهودِهِمْ ، وبِسَبَبِ أَقوالِهِمْ الكاذِبَةِ ، وكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ تَعالى الكَثيرَةِ ، وبِسَبَبِ قَتْلِهِمْ للأَنْبياءِ عليْهِمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِثْلَ زَكَرِيّا ويَحْيى عَلَيْهِما السَّلامُ ، وبِسَبَبِ قَوْلِهِمْ : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ أيْ : إنَّ قُلوبَنا لا يُمْكِنُ أنْ يَنْفذَ إليْها شَيءٌ مِمّا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ، أَوْ تَتأثَّرَ كَذلِكَ بما جاءَ بِهِ ، بِسَبَبِ كُلِّ هذهِ الأُمورِ فعَلْنا بِهِمْ مَا فَعَلْنا مِنْ لَعْنٍ وغَضَبٍ وضَرَبْنا عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ والمَسْكَنَةَ ، ومَسَخْناهُمْ قِرَدَةً وخَنازير ، وأَزَلْنا مُلْكَهُمْ ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ : قُلوبُنا غُلْفٌ ، أيْ : إنَّهُمْ كاذِبون فيما يَقولونَ ، فَكُفْرُهُمْ لَيْسَ بِسَبَبِ أنَّ قُلوبَهُمْ خُلِقَتْ مُغَطّاةً بِحِجابٍ ، تَحْجُبُ عنْهُمْ إدْراكَ الحَقِّ ، ولكنَّ الحَقَّ أنَّ اللهَ تَعالى طَمَسَ عَلى هذِهِ القُلوبِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأَعْمالِهِمُ القَبيحَةِ ، فهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ خَلَقَ النّاسَ عَلى الفِطْرَةِ ، ولَكِنَّهُمْ أَعْرَضوا عَنِ الخَيْرِ ، واتَّجهوا نَحْوَ الشَّرِّ ، فَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ فصارَتْ لا تُدْرِكُ الحَقَّ ، ولا تُؤْمِنُ باللهِ تَعالى إلاّ قَليلاً مِنَ الإيمانِ الَّذي لا يُعْتَدُّ به ، فقدْ آمَنوا مَثَلاً بِموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولَكِنَّهُمْ كَفَروا بِغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، فَهذا الإيمانُ لا قيمَةَ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإيمانُ الحَقُّ باللهِ تَعالى بِامْتِثالِ أوامِرِهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ .

٢ـ اليَهودُ قَوْمٌ جُبلوا عَلى مُخالَفَةِ أوامرِ اللهِ تَعالى وعَلى الكُفْرِ وكُرْهِ الحَقِّ فَعَلى المُسْلِمينَ أَنْ لا يُسالِموهُمْ وأَنْ لا يَثِقوا بِهِمْ .

٣ـ الدّينُ كُلٌّ مُتَكامِلٌ ، فَلا يَجوزُ الإيمانُ أوِ العَمَلُ بِجُزْءٍ مِنْهُ وتَرْكُ جُزْءٍ آخَرَ .

التَّقويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ معانيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

جَهْرَةً ، الصَّاعقةُ ، ميثاقا غليظا .

٢ـ منْ تَعنُّتِ اليَهودِ زَمنَ النَّبيِّ ﷺ طلبُهُمْ منْهُ أمْرا ما ، ماذا سأل بنو إسْرائيل الرَّسولَ ﷺ ؟

٣ـ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ رَذيلَةِ عبادَةِ العِجْلِ ، تَحدَّثْ عنْ هذِهِ الرَّذيلَةِ .

٤ـ ما المواثيقُ الّتي نَقَضَها اليَهودُ ؟

٥ـ ما مَعنى : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ؟ ولِمَ قالَ اليهودُ هَذا القَوْل ؟

٦ـ بِمَ رَدَّتِ الآياتُ على أُولئكَ الّذين قالوا : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ؟

٧ـ كيْفَ طُبِعَ على قُلوبِ اليَهودِ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ هَذا الطَّبْعِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ تَحَدَّثَتْ سورَةُ البَقرةِ عَنِ اتّخاذِ اليَهودِ لِلْعِجْلِ إلها مِنْ دونِ اللهِ ، وَبَيَّنَتْ مَا أَمَرَهُمْ اللهُ بهِ لِيَتوبَ عَلَيْهِمْ ، اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ في حُدودِ الصَّفْحَةِ عَنْ تحايُلِ اليهودِ على الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ ، مُؤَيِّداً قوْلَكَ بالأَدِلَّةِ القُرْآنِيَّةِ ، وَضَعِ المَوْضوعَ على مَجلَّةِ الحائطِ في المدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ وَالأَرْبَعونَ

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ
إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بُهْتاناً	كذباً وباطلاً .
شُبِّهَ لَهُمْ	أُلْقِيَ على المقْتولِ شبهُ عيسى عليْه الصّلاةُ والسّلامُ .
يَقيناً	علْماً جازماً لا يحْتملُ الشكَّ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

إنَّ رَذائِلَ اليَهُودِ وَجَرائمَهُم كثيرةٌ ، ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ بعْضاً منْها . وتذْكرُ هذه الآياتُ شيْئاً عَظيماً شَنيعاً وهُوَ كُفْرُهُمْ بعيسى عليْه الصّلاةُ والسّلامُ . فقدْ طُبعَ على قُلوبِهمْ بسببِ كُفْرِهمْ بسيّدنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ الّذي بعثَهُ اللهُ تعالى إليْهم ليهْديَهُمْ إلى الحقِّ ، وبسببِ افترائهمْ على أُمّه مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ، الكذبَ ورمْيِهمْ إيّاها بالتُّهمِ الّتي هِيَ بريئةٌ منْها ، حيْثُ اتّهموها بالفاحشةِ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى برَّأَها منْها ، قالَ تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

وقدْ طبع اللهُ تعالى على قلوب اليهود بسبب قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ لقدْ قالوا : إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم . وفي قولهم هذا جرأةٌ على الباطل واستهزاءٌ بآيات الله . لقد وصفوه بأنّهُ رسولُ الله تهكّما واستهزاء بدعوته .

لقدْ ادّعوا أنّهمْ قتلوا سيّدنا عيسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ ، لكنّهمْ في الحقيقة لمْ يقْتُلوهُ ، ولمْ يصْلبوهُ كما زعموا وشاع بيْن النّاس ، ولكنْ وقع لهمْ الشّبهُ ، فظنّوا أنّهمْ صلبوا عيسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ ، وهمْ إنّما صلبوا غيرهُ .

إنّ الّذين اختلفوا في شأن عيسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ منْ أهْل الكتاب ، لفي شكٍّ دائمٍ منْ حقيقة أمْره . فهمْ في حيرة وتردّد ، ليْس لهمْ منْ علْم قطْعيّ الثّبوت ، وإنّما همْ يتّبعون الظّنّ الّذي لا يُغْني من الحقّ شيْئا ، لقد اخْتلف أهْلُ الكتاب في شأن عيسى كثيرا ، فزعم بعْضُهُمْ أنّهُ ابنُ الله ، وزعم آخرون أنّ روحهُ روحٌ لاهوت ، أيْ : إله ، وجسدهُ جسدُ إنْسان ، وزعموا أنّ السّيّدةَ مرْيمَ ولدت الإنسان ثمّ نُفخ فيه روحُ اللاّهوت ، واخْتلفوا كذلك في أمْر قتْله ، هلْ قتلوهُ هُوَ ، أوْ أنّهُمْ قتلوا غيْرهُ ؟ وقدْ ردّ اللهُ تعالى عليْهمْ بقوْله :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

إنّ الحقّ المتيقّن في هذه المسْألة أنّهمْ لمْ يقْتلوهُ ، فقد نجّاهُ اللهُ تعالى منْ مكْرِ اليهودِ ، بلْ إنّ الله تعالى رفع عيسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ إليْه بجسده وروحه ، فقدْ رفعهُ اللهُ إليْه حيّاً منْ غيْرِ موْت .

وقدْ خُتمت الآيةُ بقوْله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهُو سُبْحانهُ لا يغْلبُهُ غالبٌ ، وبعزّته سُبحانهُ وتعالى يُجازي كُلّ إنْسان على عمله ، ولذا عاقب اليهود بما يسْتحقّون منْ إذْلالٍ ومهانةٍ ومسْكنة ولعْنة وغضب ، وتشْريد في الأرْض ، وسيُعاقبُهمْ كذلك يوْم القيامة بما هُمْ أهْلٌ لهُ منَ العذاب الأليم .

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

ذهب أكْثرُ المُفسّرين إلى أنّ المقْصود بالآية الكريمة أنّ كُلّ واحد منْ أهْل الكتاب سوْف يُؤْمنُ بعيسى عليْه الصّلاةُ والسّلامُ عند نُزوله آخر الزّمان ، إيمانا صحيحا ، قبْل أنْ يموتَ عليْه الصّلاةُ

والسَّلامُ ، وسَيكونُ عيسى عليْهِ الصَّلاةُ والسَلامُ على أهْلِ الكِتابِ شَهيداً ، فيشْهَدُ عليْهِمْ بأنَّهُ قَدْ أمَرَهُمْ بعِبادَةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأنَّهُ قَدْ نَهاهُمْ عَنِ الإشْراكِ مَعَهُ آلِهَةً أُخرى .

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « والَّذي نَفْسي بيدِهِ لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنْزِلَ فيكُمْ ابنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً فَيَكْسِرُ الصَّليبَ ، ويَقْتُلُ الخِنْزيرَ ، ويَضعُ الجِزْيَةَ ، ويَفيضُ المالُ حَتَّى لا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَحَتَّى تَكونَ السَّجْدَةُ خيْراً مِنَ الدُّنيا وما فيها » ثُمَّ قالَ أبو هُرَيْرَةَ : اقْرءوا إنْ شِئْتُمْ : « وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِه »[(١)] .

وَيَرى بَعْضُ المُفَسِّرينَ أَنَّ المَقْصودَ بالآيَةِ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْ أهْلِ الكِتابِ عِنْدَما يُدْرِكُهُ المَوْتُ ، سَيَنْكَشِفُ لَهُ الحَقُّ في أمْرِ عيسى عليْهِ السَّلامُ وفي غَيْرِهِ مِنْ أُمورِ الدِّينِ ، فَلْيَعْلَمْ هذا الكِتابِيُّ أنَّ عيسى رَسولُ اللهِ صادِقٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى ، وَلَيْسَ إلها ، أوْ ابْناً للهِ ، وَيُؤْمِنُ بهذا الأمْرِ ، وَلكِنَّ هذا الإيمانَ لَنْ يَنْفَعَهُ أبَداً ، فَقَدْ أخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ أنَّ الرُّوحَ إذا وَصَلَتْ إلى الحُلْقومِ ، فلَنْ يَنْفَعَ نَفْساً إيمانُها ما لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

حَيْثُ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بهذا ، فقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ أنَّهُ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقولُ للهِ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] ما قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ما أمَرْتَني بِهِ ، أنِ اعْبُدوا اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عليْهِمْ شهيداً ما دُمْتُ فيهِمْ ، وكِلا المَعْنَيَيْنِ المَذْكورَيْنِ للآيَةِ صَحيحٌ ، وَاللهُ تعالى أعْلَمُ بمُرادِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرة ، منها :

١ـ إنَّ السَّيِّدَةَ مَرْيَمَ امْرَأَةٌ شَريفَةٌ عَفيفَةٌ ، قَدْ بَرَّأَها اللهُ تَعالى مِمّا اتَّهَمَها اليَهودُ بِهِ .

٢ـ إنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدُ اللهِ ورسولُهُ آتاهُ اللهُ الكِتابَ ، وَبَعَثَهُ إلى بَني إسْرائيلَ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ وَلَمْ يَقْتُلْهُ اليَهودُ .

٣ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يُبادِرَ بطاعَةِ اللهِ وامْتِثالِ أمْرِهِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفاجِئَهُ المَوْتُ ، فلا يَسْتَطيعُ الإيمانَ .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم ، حديث رقم ١٥٥



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقَةُ أَنَّ اللهَ تعالى طبَعَ على قُلوبِ أهْلِ الكتابِ ، لِمَ كانَ هَذا الطَّبْعُ عَلَيْها ؟

٢ـ ما الحَقيقَةُ في شأْنِ اليَهودِ مَعَ سَيِّدِنا عيسى عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ هَلْ قَتَلوهُ ؟ أيِّدْ إجابَتَك بالدَّليلِ .

٣ـ لَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الكِتابِ كَثيراً في شأْنِ عيسى ، بيِّنْ هذا الاخْتلاف .

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وكانَ اللهُ عَزيزاً حكيماً﴾ ؟

٥ـ بيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تعالى : ﴿وإنْ مِّنْ أَهْلِ الْكتابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ به قَبْلَ موْتِه﴾ .

نَشاطٌ :

ـ يَدَّعي أَهْلُ الكِتابِ أنَّ عيسى عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قدْ صُلِب ، ما الَّذي يَقْصِدونَهُ بِهَذِهِ العَقيدَةِ ، اكْتُبْ تَقْريراً حوْلَ هَذِهِ العقيدةِ عنْدَ النَّصارى ، واسْتَعِنْ بتفْسيرِ المنار : الجُزْءِ السَّادِسِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ
ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الَّذينَ هادُوا	هُمُ اليَهودُ .
وَبِصَدِّهِمْ	وَبِمَنْعِهِمْ .
الرَّاسِخونَ	الثَّابِتونَ على الحَقِّ .

التَّفْسيرُ :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

إنَّ رَذائِلَ اليَهودِ وَجرائِمَهُمْ كَثيرَةٌ ، وَنَتيجَةً لِهَذِهِ الجَرائِمِ شَدَّدَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ . لَقَدْ كانَ اليَهودُ ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ بابْتِعادِهِمْ عَنِ الحَقِّ ، وَسَيْرِهِمْ في طَريقِ الباطِلِ . وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ هَذا فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمُ الكَثيرَ مِنَ الطَّيِّباتِ عُقوبَةً لَهُمْ وَتَرْبِيَةً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ عَنْ ظُلْمِهِمْ . وَلَكِنْ ما هِيَ تِلْكَ الطَّيِّباتُ الَّتي حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ ؟

لَقَدْ بَيَّنَتْ سورَةُ الأَنْعامِ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى عَلى اليَهودِ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] .

إنَّ مِنْ ظُلْمِ هَؤُلاءِ اليَهودِ :

١ـ صَدَّهُمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى كَثيراً ، والصَّدُّ هُوَ المَنْعُ ، فَهُمْ قَدْ صَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى حَيْثُ عَصَوْا موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَنَقَضوا العُهودَ الَّتي أَخَذَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَعَبَدوا العِجْلَ وَغَيْرَ ذلِكَ مِنَ الرَّذائِلِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ صَدُّوا النَّاسَ عَنِ اتِّباعِ اللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ بالأَمْرِ بالمُنْكَرِ ، وَالنَّهيِ عَنِ المَعْروفِ ، وَمَنْعِ النّاسِ مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ .

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ .

٢ـ وَإِنَّ مِنْ ظُلْمِ اليَهودِ أَكْلَهُمْ الرِّبا ، فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّباتُ ، بِسَبَبِ أَخْذِهِمُ الرِّبا . وَالحالُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ نَهاهُمْ عَنْهُ عَلى أَلْسِنَةِ أَنْبيائِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَجاءَ تَحْريمُهُ كَذَلِكَ في التَّوراةِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ وَرَدَ في سِفْرِ الخُروجِ : (إِنِّي أَقْرَضْتُ فِضَّةً لِشَعْبي الفَقيرِ الَّذي عِنْدَكَ ، فَلا تَكُنْ لَهُ كَالمُرابي ، لا تَضَعوا عَلَيْهِ رِباً) . وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّباتُ بِسَبَبِ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بالباطِلِ ، أَيْ : بالرَّشْوَةِ وَالخيانَةِ وَالباطِلِ ، هُوَ أَخْذُ المالِ بِلا مُقابِلٍ ، وَقَدْ قالَ سُبحانَهُ عَنِ اليَهودِ : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة : ٤٢] والسُّحْتُ هُوَ الكَسْبُ الحَرامُ ، فَقَدْ كانوا يَكْتُبونَ الكُتُبَ بِأَيْديهِمْ وَيُشَرِّعونَ لِلنَّاسِ وَيَدَّعونَ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

إِنَّ جَرائِمَ اليَهودِ كَثيرَةٌ ، فَقَدِ اسْتَحَقُّوا بِسَبَبِها أَنْ يُعاقَبوا في الدُّنْيا ، بِتَحْريمِ الطَّيِّباتِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقُّوا كَذَلِكَ أَنْ يُعاقَبوا في الآخِرَةِ بالعَذابِ الأَليمِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : هَيَّأْنا وَأَعْدَدْنا لِلَّذينَ كَفَروا مِنْهُمْ عَذاباً مُؤْلِماً مُوجِعاً ، جَزاءَ ظُلْمِهِمْ ، وَخُروجِهِمْ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى .

لَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ وَهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَمْ يَكونوا كُلُّهُمْ كافِرينَ ، بَلْ كانَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَثَبَتَ عَلى إيمانِهِ ، وَلِذَلِكَ جاءَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كانَ مُؤْمِناً ، قالَ تَعالى :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿لَّٰكِنِ﴾ لِلاسْتِدْراكِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَهُمُ العاقِبَةُ السَّيِّئَةُ ، يُسْتَثْنى مِنْهُمْ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ .

١ـ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ والمُؤْمِنونَ ، أَيْ أَهْلُ العِلْمِ الصَّحيحِ بالدِّينِ المُسْتَبْصِرونَ فيهِ ؛ المُتَيَقِّنونَ ، الَّذينَ لا يَتَّبِعونَ الظَّنَّ ، وَلا يَشْتَرونَ بِآياتِ اللهِ تَعالى ثَمَناً قَليلاً ، الَّذينَ أَدْرَكوا حَقائِقَ الدِّينِ ، وَأَذْعَنوا لَها ، وَرَسَخَتْ في نُفوسِهِمْ ، هَؤُلاءِ الرَّاسِخونَ وَالمُؤْمِنونَ ، يُؤْمِنونَ بِما أَنْزَلَ اللهُ

علی النَّبيِّ ﷺ ، أَيْ يُؤْمِنونَ بِالقُرْآنِ الكَريمِ ، وَيُؤْمِنونَ بِما نَزَلَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ كُتُبٍ سَماوِيَّةٍ عَلى الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٢- ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ : وَأَخُصُّ المُقيمينَ الصَّلاةَ ، فَقَدْ جاءَتِ الكَلِمَةُ ﴿والمُقيمينَ﴾ مَنْصوبَةً عَلى المَدْحِ ، وَذلِكَ لِبَيانِ فَضْلِ الصَّلاةِ ، فَإِنَّ الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ، أَيْ : يُؤَدُّونَها عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، في أَوْقاتِها ، وَيُقيمونَ أَرْكانَها كامِلَةً بِما فيها الخُشوعُ ، وَبِحَيْثُ تُؤْتي هذِهِ الصَّلاةُ ثِمارَها المَرْجُوَّةَ مِنْها ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ وَالبَغْيِ ، إِنَّ إِقامَةَ الصَّلاةِ كَما يَنْبَغي مِنْ أَعْظَمِ عَلاماتِ كَمالِ الإيمانِ .

٣- ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى قَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ وَهذِهِ صِفَةٌ ثالِثَةٌ مِنْ صِفاتِ أُولئِكَ الَّذينَ اسْتَثْناهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ سُوءِ العاقِبَةِ في الآخِرَةِ ، فَهُمْ يُطَهِّرونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشُّحِّ وَالبُخْلِ بِأَداءِ الزَّكاةِ المَفْروضَةِ عَلَيْهِمْ ، فَالزَّكاةُ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ ، وَتُحَرِّرُهُمْ مِنْ سَيْطَرَةِ المالِ عَلَيْهِمْ .

٤- ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فَهُمْ يُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى إيماناً حَقّاً ، وَيُؤْمِنونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَما فيهِ مِنْ حِسابٍ وَعِقابٍ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ هاتانِ الصِّفَتانِ ، بَعْدَ ذِكْرِ إِقامَةِ الصَّلاةِ ، وَإيتاءِ الزَّكاةِ ، لِبَيانِ عِظَمِ هذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ ، فَهُما يُرَسِّخانِ الإيمانَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ في نَفْسِ الإِنْسانِ .

إِنَّ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ العَظيمَةِ سَوْفَ يُؤْتيهِمُ اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ أَجْراً عَظيماً ، لا يَعْلَمُ مِقْدارَهُ وَوَصْفَهُ إِلاّ اللهُ تَعالى ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ نَكونَ مِنْهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١- إِنَّ اللهَ تَعالى يُعاقِبُ الظّالِمينَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ بِعُقوباتٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَعُقوباتٍ أُخْرَوِيَّةٍ .

٢- النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ أَمْوالِ النّاسِ بِالباطِلِ سَواءٌ كانَ عَنْ طَريقِ الرِّبا أَمِ الرِّشْوَةِ أَمْ غَيْرِ ذلِكَ .

٣- إِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ عادِلٌ في أَحْكامِهِ ، فَهُوَ لَمْ يَجْعَلْ أَهْلَ الكِتابِ كُلَّهُمْ سَواءً ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمُ الكافِرينَ وَمِنْهُمُ المُؤْمِنينَ الرّاسِخينَ في العِلْمِ .

٤- الحِرْصُ عَلى إِقامَةِ الصَّلاةِ عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، وَإيتاءِ الزَّكاةِ .



أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ مَا سَبَبُ تَحريمِ الطَّيِّباتِ عَلى بَني إِسْرائيلَ ؟

٢ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ ظُلْمِ اليَهودِ ، وَذَكَرَتْ صُوراً لِهذا الظُّلْمِ ، هاتِ واحِدَةً مِنْها .

٣ـ لَقَدْ كانَ مِنَ اليَهودِ أَنَّهُمْ أَكَلوا أَموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ . ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ بِالباطِلِ ؟ وَما الَّذي فَعَلوهُ ؟

٤ـ لِمَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ ؟ وَما الجَزاءُ الَّذي أَعَدَّهُ سُبْحانَهُ لَهُمْ ؟

٥ـ اذْكُرْ صِفاتِ أَهْلِ الكِتابِ المُؤْمِنينَ .

٦ـ ما السِّرُّ في مَجيءِ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ مَنْصوبَةً وَلَيْسَتْ مَرْفوعَةً ؟

٧ـ لِماذا تَقَدَّمَ الوَصْفُ بِإِقامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ عَلى الوَصْفِ بِالإِيمانِ بِاللهِ تَعالى ؟

٨ـ مَا المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لأُولَئِكَ المُؤْمِنينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلى أَنَّ أَخْذَ الزَّكاةِ يُطَهِّرُ وَيُزَكِّي نُفوسَ المُؤْمِنينَ ويُزَكّيها .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ
زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَوْحَيْنا	أَعْلَمْنا في خَفاءٍ .
الأَسْباط	أَوْلادُ سَيِّدِنا يَعْقوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ .
زَبوراً	كِتاباً فيهِ مَواعِظُ وَحِكَمٌ .
تَكْليماً	تَكْليماً خاصّاً دونَ وَساطَةِ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ قَدْ فَرَّقوا في إيمانِهِمْ بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَقالوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، فَآمَنوا بِموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَكَفَروا بعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ واحِدٌ ، وَأَنَّ الوَحْيَ الَّذي نَزَلَ عَلى جَميعِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ كَذَلِكَ واحِدٌ .

يقولُ سُبْحانَهُ وَتعالى لنبيّه ﷺ :

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ .

والوَحْيُ : هُوَ الإعْلامُ عنْ طريقِ الإشارةِ أوِ الإيماءِ أوْ الإلْهام ، ووحْيُ الله إلى أنْبيائِه هُو عرْفانٌ يجدُهُ الشَّخْصُ نَفْسُهُ معَ اليَقينِ بأنَّهُ منْ قِبَلِ الله تعالى بواسطة أوْ بغيْرِ واسطة .

لقدْ أوْحى اللهُ تعالى إلى مُحمَّد ﷺ بكلامِه وأوامرِه ونواهيه وهداياتِه كما أوْحى إلى سيِّدنا نوح علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وإلى سائرِ الأنبياء عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذين جاءوا منْ بَعْدِه ، فأنْت يا مُحمَّدُ لَسْتَ بِدْعا منَ الرُّسُلِ ، وإنَّما أنْتَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ منْ عنْدِ الله تعالى ، تلَقَّيْتَ الرِّسالَةَ من الله ، كما تلقَّاها الرُّسُلُ منْ قَبْلكَ منْهُ سُبْحانَهُ وتعالى .

وَقدْ بَدَأَتِ الآياتُ بنوحٍ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّهُ أوَّلُ رسولٍ بُعِث إلى البشريَّة ، وأوَّلُ منْ أنْذر على الشِّرْكِ ، وأوَّلُ أُمَّةٍ عُذِّبَتْ هيَ أُمَّتُهُ .

وقدْ أوْحى اللهُ تعالى إلى مُحمَّد ﷺ ، كما أوْحى إلى سيِّدنا إبراهيمَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الّذي هُوَ أبو الأنْبياءِ الّذينَ جاؤوا منْ بَعْدِه ، وكما أوْحى إلى إسْماعيلَ وإسْحاقَ عليْهما الصَّلاةُ والسّلامُ وإلى يَعْقوبَ ابنِ إسْحاقَ ، وأبناءِ يعقوبَ عليْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ وَهُمْ اثنا عَشَرَ سبْطاً .

وقدْ أوْحى اللهُ تعالى كذلكَ إلى عيسى وأيُّوبَ ويُونُس وهارونَ وسُليمانَ عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جميعاً . ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ أمّا داودُ عليْهِ السَّلامُ فقدْ أنْزل اللهُ إليْهِ كتاباً هُوَ الزّبورُ ، وليْس هؤلاءِ هُمُ الّذينَ أوْحى اللهُ إليْهِمْ فقطْ ، بلْ إنَّ هُناكَ رُسُلاً كثيرينَ بعثَهُمُ اللهُ تعالى ؛ ولِذا قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

أيْ : أرْسلْنا رُسُلاً منْ غيْرِ هؤلاءِ قصصْنا عليْكَ قِصَصَهُمْ منْ قَبْلِ أنْ تنْزلَ عليْكَ يا مُحمَّدُ هذه الآياتُ ، فقدْ ذُكِرَتْ قِصَصُهُمْ في سورةِ القَصَصِ وهُود والشُّعراءِ وغيْرِها منَ السُّوَرِ المكّيّة : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ ﴾ فلمْ يقُصَّ سُبْحانَهُ وتعالى أخْبارَهُمْ ، لأنَّ القَصْدَ منَ القَصَصِ العبرةُ والعظَةُ وليْس السَّرْدُ التّاريخيُّ ، وقدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وخُتِمتِ الآيةُ بقوْلِه تعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ أيْ كلَّمَهُ تكْليماً خاصّاً دونَ وساطةِ وحْيٍ ، ولكنْ بطريقةٍ لا يعْلمُها إلاَّ اللهُ تعالى .

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

إنَّ هؤُلاءِ الرُّسُل أرْسلهُمْ اللهُ تعالى ، والّذين قصّ علينا قصص بعْضهمْ ، ولمْ يقْصّ علينا قصص بَعْضِهِمُ الآخر ، إنّما أرْسلهُمْ ليكونوا مُبشّرين منْ آمن وعمل صالحاً بالثّواب العظيم ، ومُنْذرين كُلّ مَنْ كَفرَ وَأَجْرَم بعذابٍ أليم من الله تعالى ، إنّهُ سُبْحانهُ وتعالى أرْسلهُم لِحكمة عظيمة ، إذ لوْ لمْ يُرْسِلهُمْ سُبْحانهُ لَكانَ للنّاس على الله حُجّةٌ ، إذ إنّهُمْ سوْف يدّعون بأنّهُمْ إنّما كان منْهُمْ الكُفْرُ والإثْمُ وَالمَعاصي لِجهْلِهمْ بما يجبُ عليْهمْ من الإيمان والعمل الصّالح ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤] .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهُو سُبحانهُ كان ولا يزالُ عزيزاً ، قوياً لا يغْلبُهُ غالبٌ ، حكيماً في أَفعالِهِ وَفي بَعْثه للرُّسُلِ ، وفي تبْشيره وإنذاره ، وفي ثوابه وعقابه .

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

وَمَع كُلِّ ما بيّنهُ اللهُ تعالى ، فإنّ أهل الكتاب يُنكرون نُبُوّة مُحمّد ﷺ ، وقدْ سألوا النّبيّ ﷺ أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابا من السّماءِ ، يُثْبتُ صدْقهُ في دعواهُ ، فهُو سُبْحانهُ يقولُ لنبيّه ﷺ : إنّهُمْ يا مُحمّدُ مَعَ وُضوح الأدِلّة عَلى نُبُوّتك ، لا يشْهدون بما أُنْزل إليْك ، ولكنّ الله تعالى يشْهدُ به ، فإنّهُ سُبْحانهُ أَنْزَلَهُ بِعلْمِهِ وَحكْمَتِهِ . وجُحودُ أهْل الكتاب لنُبُوّتك لا يضُرُّك بشيء ، فاللهُ تعالى يشْهدُ بما أنْزل إليْكَ مِنَ الوَحْي ، والمَلائِكةُ يشْهدون بذلك أيْضا بأنّك صادِقٌ في رسالتك ، وبأنّ ما أنْزلهُ اللهُ عليْكَ هُو الحَقُّ ، وَكَفى بِشهادَةِ الله تعالى شهادة بأنّك على الحقّ . ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروس وعبر كثيرة ، منها :

١ـ إنَّ الدِّينَ عنْدَ الله واحدٌ ، وهُو دينُ الإسْلام ، فالوحْيُ الّذي جاء الأنْبياء جميعاً واحدٌ كَذَلِكَ .

٢ـ القُرآنُ ليْس كتابا تاريخيا ، ولذا لمْ يقصّ علينا سُبحانهُ قصص جميع الأنبياءِ والمُرسلين ، ولكنّهُ كتابٌ يذْكرُ من القصص ما فيه العبْرةُ والعظةُ .

٣ـ منْ حكْمة الله تعالى أنْ أرسل الرُّسُل مُبشّرين ومُنذرين لكي لا يكون للنّاس حُجّةٌ على الله تعالى بعْد الرُّسُل .

التّقْويمُ :

أجبْ عن الأسئلة التّالية :

١ـ ما المقْصودُ بالوحْي ؟

٢ـ لماذا بدأت الآياتُ الحديث عنْ نوح عليْه السّلامُ ؟

٣ـ من الأسباطُ ؟

٤ـ ما الزّبورُ ؟

٥ـ هل الأنبياءُ المذكورون في الآيات هُم وحدهُم الّذين بعثهُم اللهُ تعالى للنّاس ؟ أيّدْ إجابتك بالدّليل .

٦ـ اشْرحْ قوْلهُ تعالى : ﴿وكلّم اللهُ مُوسى تكليما﴾ .

٧ـ ما الحكْمةُ منْ إرسال الرُّسُل عليْهمُ الصّلاةُ والسّلامُ ؟

٨ـ لقدْ ذكر القُرآنُ الكثير من الآيات لأهْل الكتاب ، فكيْف قابلوا هذه الآيات ؟

٩ـ من الّذي شهد على مُحمّد ﷺ ؟ وهلْ صدّق اليهودُ بهذه الشّهادة ؟

نشاطٌ :

ـ ذكرتْ سورةُ الشُّورى أنواع الوحْي الّتي تكونُ للأنبياء عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ . اكْتُب الآية في دفْترك ، وعدّدْ منْ خلالها هذه الأنواع .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والأَرْبَعونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا
لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

صَدُّوا أَعْرَضوا .

خالدينَ ماكثين مُكْثاً طويلاً لا ينْتهي .

التَّفسيرُ :

إنَّ سيِّدنا مُحمَّداً ﷺ نبيٌّ مِنْ عِنْدِ الله تعالى ، وقدْ شهد بذلِكَ اللهُ سُبْحانهُ وَتعالى ، وشهدتِ الملائكةُ بذلِك أيضاً ؛ ولذا على النَّاس جميعاً أَنْ يُؤْمنوا به عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ويتْرُكوا الكُفر والعِصْيان ، وقدْ جاءتِ الآياتُ هُنا لِتُنْذر الَّذين كفروا بهِ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقال سُبْحانهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إنَّ هؤُلاءِ الَّذين كفروا بالحَقِّ الَّذي جاء بِه مُحمَّدٌ ﷺ وَبالقُرْآنِ ، وأَعْرضوا عنْ طريقِ الحقِّ ، وصدُّوا غيْرَهُمْ كَذلِك عَن اتِّباع سبيل الله تعالى حيْثُ أَلقوْا الشُّبُهاتِ الكثيرة حوْل نُبُوَّتِهِ ورسالتِه ، فقالوا عنْهُ ساحِرٌ ، وَقالوا عنْهُ كاهِنٌ ، وإِنَّهُ مَجْنونٌ ، وَإِنَّهُ يُفرِّقُ بيْن المرْءِ وزَوْجِه ، وَإِنَّهُ لوْ كان رسُولاً منْ عنْد الله لجاءَ بكتاب منْ عِنْدِ الله جُمْلَة واحدَة ، وليْس مُفرَّقاً ، وَأَنَّهُ تعلَّم ما تعلَّم على يد مُعلِّمٍ علَّمَهُ القرْآنْ .

إنَّهُمْ بتلْكَ الشُّبْهاتِ الَّتي أَلْقوها مَنَعوا غَيْرَهُمْ مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ وَاتِّباعِ الحَقِّ ، وَهُمْ بِفِعْلِهِمْ هَذا قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بلغَ غايَةً عَظيمَةً في الشِّدَّةِ وَالشَّناعَةِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ﴾ .

إنَّ الَّذينَ كَفَروا يا مُحَمَّدُ بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى إلَيْكَ ، وظَلَموا أنْفُسَهُمْ بإعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ وَعَنِ الطَّريقِ الموصِلِ إلى الخَيْرِ ، وَظَلَموا غَيْرَهُمْ بإغوائِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، طَريقِ اللهِ تَعالى ، إنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ جَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالظُّلْمِ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، لأَنَّهُ سُبْحانَهُ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ، وَلَمْ يَكُنْ سُبْحانَهُ لِيَهْدِيَهُمْ طريقَ الخَيْرِ الَّذي يُؤَدّي إلى طَريقِ الجَنَّةِ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ لَنْ يَهْدِيَهُمْ إلاّ طَريقاً يوصِلُهُمْ إلى جَهَنَّمَ جَزاءً لَهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ ، فَهِيَ طَريقُ مَنِ اتَّصَفَ بالكُفْرِ وَالظُّلْمِ ، وَهُمْ مُخَلَّدونَ في نارِ جَهَنَّمَ لا يَخْرُجونَ مِنْها أَبَداً ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أيْ : كانَ الجَزاءُ سَهْلاً عَلى اللهِ دونَ غَيْرِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَسْتَعْصي عَلَيْهِ وَعلى قُدْرَتِهِ شَيْءٌ ، وَفي هَذِهِ الخاتِمَةِ لِلآيَةِ تَحْقيرٌ لأُولَئِكَ الكافِرينَ ، وَبَيانٌ لَهُمْ بِأَنَّ اللهَ تَعالى لا يَعْبأُ بِهِمْ وَلا يُقيمُ لَهُمْ وَزْناً .

وَبَعْدَ أَنْ رَدَّ سُبْحانَهُ على أُولَئِكَ الَّذينَ اتَّصفوا بِالكُفْرِ وَالظُّلْمِ ، خاطَبَ النَّاسَ جَميعاً وَأَمَرَهُمْ بالإيمانِ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ .

يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسولُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الَّذي شهدَ اللهُ بالصِّدْقِ في رِسالَتِهِ ، وَشَهِدَتْ لَهُ المَلائِكَةُ بِذَلِكَ ، قَدْ جاءَكُمْ بالحَقِّ وَالهُدى مِنْ رَبِّكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنوا بِهِ وَتُصَدِّقوهُ ، وَتُطيعوهُ ، فَالإيمانُ خَيْرٌ لَكُمْ ، لأَنَّهُ يُزَكّيكُمْ وَيُطَهِّرُكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّجْسِ . إنَّ الآيَةَ تُخاطِبُ النَّاسَ جَميعاً ، إذْ إنَّ رِسالَةَ الرَّسولِ ﷺ لِلنَّاسِ كافَّةً ، لِلْعَرَبِيِّ وَغَيْرِ العَرَبِيِّ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ عَلى الإيمانِ بِهِ ، لأَنَّ ما جاءَهُمْ بِهِ حَقٌّ ، بَعيدٌ عَنِ الباطِلِ ، إنَّهُ الحَقُّ الموافِقُ لِما فُطِرَ عَلَيْهِ البَشَرُ ، وَهُوَ الحَقُّ الَّذي يُوصِلُهُمْ إلى السَّعادَةِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

آمِنوا أَيُّها النَّاسُ يَكُنِ الإيمانُ خَيْراً لَكُمْ ، وَلَكِنَّكُمْ إنْ كَفَرْتُمْ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ تَعالى كُفْرُكُمْ ، فَإنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ إيمانِكُمْ ، وَقادِرٌ عَلى جَزائِكُمْ ، فَإنَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ ما في السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ ، فَهُوَ خالِقُها وَالمالِكُ لَها وَالمُتَصَرِّفُ فيها ، وَكانَ اللهُ عَليماً حَكيماً ، أَحاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ ما في الكَوْنِ ، حَكيماً في أَفْعالِهِ وَأَحْكامِهِ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ سُبْحانَهُ أَمْرُكُمْ سَواءٌ آمَنْتُمْ أَمْ كَفَرْتُمْ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ يُجازيكُمْ عَلى أَفْعالِكُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الكافِرينَ لا يُحِبُّونَ أنْ يَعْلو صَوْتُ الحَقِّ ، وَلِذَلِكَ تَجِدُهُمْ يُحارِبونَهُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ .

٢ـ إنَّ مَصيرَ الكافِرينَ نارُ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها .

٣ـ حَثُّ النَّاسِ جَميعاً عَلى الإيمانِ بِالرَّسولِ ﷺ وَبِما جاءَ بِهِ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِمَ جَمَعَ القُرْآنُ في وَصْفِ الضّالّينَ بَيْنَ الكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ ؟ وَما المَقْصودُ بِذَلِكَ ؟

٢ـ لَقَدْ أثارَ الكافِرونَ الكَثيرَ مِنَ الشُّبُهاتِ حَوْلَ النَّبيِّ ﷺ ، ما هَدَفُهُمْ ؟ وَما المَصيرُ الَّذي أعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ مُقابِلَ ذَلِكَ ؟

٣ـ قالَ تَعالى : ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسيراً﴾ ما هَذا الأمْرُ اليَسيرُ عَلى اللهِ ؟

٤ـ بِمَ خاطَبَ اللهُ تَعالى النَّاسَ جَميعاً ؟ وَعَلامَ حَثَّهُمْ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا في السَّماوَاتِ والأَرْضِ﴾ ؟

٦ـ مَا الحِكْمَةُ مِنْ خَتْمِ الآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ عَليماً حَكيماً﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ شُبْهَةً أخْرى أثارَها الكافِرونَ حَوْلَ الرَّسولِ ﷺ وَكِتابِهِ الَّذي أنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبَيِّنُ أنَّ رَسولَ اللهِ بُعِثَ لِلنَّاسِ كافَّةً .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟
ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَغْلوا : تجاوَزوا الحَدَّ .

كَلِمَتُهُ : خَلَقَهُ بِكَلِمَةِ : كُنْ .

يَسْتَنْكِفَ : يَمْتَنِعَ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ الآياتِ السَّابِقَةَ جاءَتْ لِتُحاجِجَ اليَهودَ وَتَرُدَّ عَلَيْهِمْ شُبُهاتِهِمْ ، وَتُقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ القاطِعَةَ ، وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِمُحاجَّةِ النَّصارى ، وَرَدِّ شُبْهاتِهِمْ حَوْلَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى مُخاطِباً أَهْلَ الكِتابِ :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾ .

أيْ لا تتجاوزوا الحُدودَ الّتي شرَعها لكُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فالزِّيادَةُ في الدِّينِ كالنَّقْصِ فيه ، لقدْ غالَى النَّصارَى في شأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ورَفَعوا مَرْتَبَتَهُ فوْقَ مَرْتَبةِ البَشَرِ ، في حينِ أنْكَرَ اليَهودُ نُبُوَّتَهُ وحارَبوهُ ، واتَّهَموا أُمَّهُ بما هِيَ بَريئَةٌ مِنْهُ .

عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنْهُ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « لا تُطْروني كَما أَطْرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مَرْيَمَ ، فإِنَّما أنا عَبْدُهُ ، فقولوا : عَبْدُ اللهِ ورَسولُهُ »(١) .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ لا تَصِفوا اللهَ تَعالى بِما يَسْتَحيلُ اتِّصافُهُ بِهِ ، مِنَ اتِّخاذِ الزَّوْجَةِ والوَلَدِ ، وحُلولِهِ في جَسَدِ المَسيحِ عَلَيْهِ السَّلامُ ، تعالى اللهُ عَنْ ذلِكَ عُلُوًّا كَبيراً .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ القَوْلَ الحَقَّ في شَأْنِ المَسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ جاءَتْ بِأَداةِ القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ حَيْثُ قَصَرَتِ المسيحَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى الرِّسالَةِ ، فَهْوَ رَسولٌ مُرْسَلٌ منْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، ولَيْسَ ابْناً للهِ كما تَدَّعونَ ، وهُوَ كَلِمَتُهُ سُبْحانَهُ ، أيْ : إنَّهُ مُكَوَّنٌ ومَخْلوقٌ بِكَلِمَةٍ مِن اللهِ تَعالى هِيَ (كُنْ) منْ غَيْرِ واسِطَةِ أبٍ ، لقدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعالى جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ ، وبَشَّرَها بِأَنَّهُ أُمِرَ أَنْ يَهَبَ لها غُلاماً زَكِيّاً ، فاسْتَنْكَرَتْ ذَلِكَ ، ولَكِنَّهُ أَخْبَرَها بِأَنَّ هذهِ إرادَةُ اللهِ ، ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] ، لَقَدْ خَلَقَهُ سُبْحانَهُ ونَفَخَ فيهِ مِنْ روحِهِ ، ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] و ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، فإذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ قَدْ خَلَقَ عيسى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَإِنَّ آيَتَهُ في آدمَ أَعْظَمُ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ولا أُم كَذَلِكَ .

ومَعْنى : وَروحٌ مِنْهُ ، أيْ : إنَّهُ سُبْحانَهُ أَنْشَأَهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ فيهِ ، مِنْ غَيْرِ واسِطَةِ بَشَرٍ ، وإذا كانَ هذا هُوَ الحَقُّ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَآمِنوا باللهِ إيماناً صَحيحاً ، واعْبُدوهُ وحْدَهُ سُبْحانَهُ ، وآمِنوا بِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَميعَهُمْ ، إيماناً يَليقُ بِهِمْ ، فَهُمْ عَبيدٌ للهِ تَعالى

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح حديث رقم ٣٢٦٠ .

بالرِّسالة وأكْرَمَهُمْ بها ، وَلا تقولوا إنَّ الآلِهَةَ ثَلاثَةٌ ؛ الأبُ والابْنُ والرُّوحُ القُدُسْ .

عَقيدَةُ النَّصارى في التَّثْليث

يرى النَّصارى أنَّ الآلِهَةَ ثَلاثَةٌ : الأبُ والابنُ والرُّوحُ القُدُسُ . ويُسَمُّونَها الأقانيم الثَّلاثَةَ ، وبَيانُ ذلك عِنْدَهُمْ أنَّ اللهَ ثَلاثَةُ أقانيم ، كُلٌّ مِنْها عَيْنُ الآخَر ، فكُلٌّ مِنْها كامِلٌ ومَجْموعُها إلهٌ واحِدٌ ، وَهُمْ بهذا القَوْلِ ترَكوا التَّوحيدَ الخالِصَ ، الَّذي هُوَ مِلَّةُ إبْراهيم عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وعيسى وَسائِرِ الأنبياءِ عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، كَما أنَّ هذهِ العَقيدَةَ مَبْنِيَّةٌ عِنْدَهُمْ على الجَمْعِ بَيْنَ التَّثْليثِ الحقيقيِّ والتَّوحيدِ الحقيقيِّ ، وهُما أمْرانِ مُتَناقِضانِ ، لا يَقْبَلُ العَقْلُ الجَمْعَ بَيْنَهُما .

وعَقيدَةُ التَّثليثِ عَقيدَةٌ وَثَنِيَّةٌ نَقَلَها الوَثَنِيّونَ الَّذينَ تَنَصَّروا إلى الدِّيانَةِ النَّصرانيَّةِ . لَقَدْ أكَّدَ هَذا الأصْلَ الوَثَنِيَّ لِعَقيدَةِ التَّثْليثِ كَثيرٌ مِنْ عُلَماءِ التَّاريخِ والآثارِ الأوروبيِّين ،حَيْثُ أثْبَتوا وُجودَهُ في الحضارات والعقائد القَديمة .

إنَّ الدِّيانَةَ في الأصْلِ ديانَةُ تَوْحيد ، جعلَها أتْباعُها ديانَةً وَثَنِيَّةً بتَثْليثٍ لا تَقْبَلُهُ العُقولُ ، اقْتَبَسوهُ مِنَ الوَثَنِيَّةِ اقْتِباساً شَوَّهوا بِهِ ديانَةَ تَوْحيدٍ سَماوِيَّةً ، فَلَمْ تَرِدْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ عَنْ أنبياءِ بَني إسْرائيلَ تَدُلُّ على هذا التَّثْليثِ ، مَعَ أنَّ النَّصارى يَزْعُمونَ أنَّها مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ جَميعِ كُتُبِ أنْبياءِ بَني إسْرائيل ، كَما نسبوها إلى المسيح ، وَلَيْسَ في كَلامِ المَسيحِ نَصٌّ عَلى هذا ، بَلْ إنَّ في كَلامِهِ نُصوصاً قاطِعَةً في حَقيقَةِ التَّوْحيدِ والتَّنْزيهِ ، وَعَدَمِ المُساواةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ، وَعدَمِ المُساواةِ بَيْنَ الأبِ والابْنِ بالمَعْنى المجازيِّ لِلابْنِ الَّذي يُطْلَقُ عَلى المَسيحِ وعلى غَيْرِهِ مِنَ الأبْناءِ ، كَما أنَّ المَسيحَ كَثيراً ما يُطْلِقُ على نَفْسِهِ ابنَ الإنْسانِ ، ولَوْ رَجَعْنا إلى الأناجيلِ سَنَجِدُ أنَّها تَدُلُّ على أنَّ عيسى عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خُلِقَ بواسِطَةِ الرُّوحِ القُدُسِ ، وَهُوَ المَلَكُ المُسَمَّى بروحِ القُدُسِ ، فلا يَجوزُ حينَها أنْ يُقالَ إنَّ قَوْلَه : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ في شَأنِ المَسيحِ عليْهِ السَّلامُ يُفيدُ أنَّهُ جُزْءٌ مِنَ اللهِ تَعالى . والمُطَّلِعُ على الأناجيلِ يرَى أنَّ مُؤَلِّفيها يَسْتَعْمِلونَ كَلِمَةَ الرُّوحِ القُدُسِ اسْتِعْمالاً لا يَدُلُّ عَلى أنَّهُ مَلَكٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ .

لَقَدْ أمرَ اللهُ تَعالى أهْلَ الكِتابِ أنْ لا يَقولوا ثَلاثَةٌ ، وَأنْ يَنْتَهوا عَنْ هَذا القَوْلِ ، وَيَسيروا في طَريقِ الحَقِّ ، لأنَّ انْتِهاءَهُمْ عَنِ القَوْلِ خَيْرٌ لَهُمْ ، وَقَدْ أثْبَتَ اللهُ وَحْدانِيَّتَهُ بقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ إنَّ المَعْبودَ بحَقٍّ لَيْسَ إلاّ واحِدٌ ، وَهُوَ اللهُ تَعالى ، وَقَدْ تنَزَّهَ سُبْحانَهُ عَنْ أنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ سُبْحانَهُ عَنْ صِفاتِ المَخْلوقينَ ، وَالدَّليلُ عَلى ذَلِكَ أنَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ ما في السَّمواتِ والأرْضِ ، وَمَنْ كانَ مالِكاً لِجَميعِ المَوْجوداتِ عُلْوِيِّها وَسُفْلِيِّها ، لَمْ يَكُنْ بِحاجَةٍ إلى الوَلَدِ والصَّاحِبَةِ والشَّريكِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بقَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ لِبيانِ سعَةِ قُدْرَتِهِ سُبْحانَهُ وَهَيْمَنَتِهِ على هَذا

الكَوْنِ . وَالوَكيلُ هُوَ الحافِظُ وَالمُدَبِّرُ لأَمْرِ غَيْرِهِ ، وَالمَعْنى : وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً يُوكَلُ إِلَيْهِ أَمْرُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الغَنِيُّ عَنْهُمْ ، وَهُمُ الفُقَراءُ إِلَيْهِ .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ المَسيحَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى ، وَلَنْ يَمْتَنِعَ وَلَنْ يَتَنَزَّهَ عَنْ العُبودِيَّةِ للهِ ، وَلَنْ يَنْقَطِعَ عَنْها ، وَلَنْ يُعابَ أَنْ يَكونَ عَبْداً للهِ تَعالى ، وَكَذلِكَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبونَ ، وَمِنْهُمْ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَهُوَ الرُّوحُ القُدُسُ ، لَنْ يَمْتَنِعوا وَيَتَنَزَّهوا عَنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، فَهُمْ لاَ يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ . وَلِذا فَإِنَّ مَنْ يَأْنَفُ عَنِ عِبادَةِ اللهِ وَيَمْتَنِعُ عَنْها وَيَأْبى الخُضوعَ لِطاعَةِ اللهِ ، وَيَسْتَكْبِرُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ فَسَيَجِدُ يَوْمَ القِيامَةِ ما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِقابٍ بِسَبَبِ اسْتِكْبارِهِ ، فَإِنَّ مَصيرَ العِبادِ كُلِّهِمْ إِلى اللهِ تَعالى ، وَسَيُجازي كُلاًّ عَلى عَمَلِهِ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

هَذا هُوَ مَصيرُ الَّذينَ لا يُنَزِّهونَ اللهَ تَعالى ، أَمَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ فَسَيُعْطيهِمُ اللهُ تَعالى أُجورَهُمْ كامِلَةً عَلى إيمانِهِمُ الصَّحيحِ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ ، وَأَمَّا الَّذينَ امْتَنَعوا عَنْ عِبادَةِ اللهِ تَعالى وَاسْتَكْبَروا فَهَؤُلاءِ يُعَذَّبونَ عَذاباً أَليماً يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ، إِذْ إِنَّ سُنَّةَ اللهِ جَرَتْ عَلى أَنْ يُجازِيَ المُحسِنَ عَلى إِحْسانِهِ بِالعَدْلِ وَالفَضْلِ ، وَيُجازِيَ المُسيءَ عَلى إِساءَتِهِ ، وَلَنْ يَجِدَ أَحَدٌ وَلِيّاً غَيْرَ اللهِ تَعالى يُدَبِّرُ أُمورَهُ وَمَصالِحَهُ ، وَلا نَصيراً يَنْصُرُهُ مِنْ بَأْسِ اللهِ تَعالى ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ العَذابَ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ عِبادٌ مِنْ عِبادِ اللهِ ، اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعالى بِالرِّسالَةِ .

٢ـ إِنَّ عَقيدَةَ التَّثْليثِ عَقيدَةٌ وَثَنِيَّةٌ ، دَخَلَتِ النَّصْرانِيَّةَ وَحَرَفَتْها عَنْ مَسارِها الصَّحيحِ .

٣ـ إِنَّ النَّصْرانِيَّةَ في الأَصْلِ دينُ الوَحْدانِيَّةِ وَتَنْزيهِ اللهِ تَعالى عَنِ الوَلَدِ وَالشَّريكِ وَالصَّاحِبَةِ .



أجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المُخاطَبُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ؟ وما المَقْصودُ بالغُلُوِّ في الدِّينِ ؟

٢ـ ما مَوْقِفُ النَّصارى مِنَ المَسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٣ـ بِمَ رَدَّتِ الآياتُ على أُولَئِكَ الَّذينَ يُؤَلِّهونَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ؟ وَما المُسْتَفادُ مِنْهُ ؟

٦ـ بَيِّنْ عَقيدَةَ النَّصارَى في التَّثْليثِ .

٧ـ مِمَّنْ أَخَذَ النَّصارى هَذِهِ العَقيدَةَ ؟

٨ـ كَيْفَ تَرُدُّ عَلى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ التَّثْليثَ عَقيدَةٌ تُنْسَبُ إلى أَنبياءِ بَني إِسْرائيلَ وَمِنْهُمْ سَيِّدُنا عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٩ـ أَمَرَ سُبْحانَهُ بَني إِسْرائيلَ أَنْ لا يقولوا(ثَلاثَةٌ) ، ثُمَّ أَثْبَتَ لَهُمْ أَصْلاً عَظيماً ، ما الأَمْرُ الَّذي أَثْبَتَتْهُ الآياتُ ؟

١٠ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ ؟

١١ـ بِماذا وَصَفَتِ الآياتُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

١٢ـ ما مَصيرُ مَنْ لَمْ يُنَزِّهِ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وما مَصيرُ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يُنَزِّهونَهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما أَمَرَنا الإِسْلامُ بِخُصوصِ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الَّتي تُبَيِّنُ رَدَّ المَسيحِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى بَني إِسْرائيلَ عِنْدَما جاءَتْ بِهِ أُمُّهُ تَحْمِلُهُ وَهُوَ في المَهْدِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والأَرْبَعونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾
يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ
مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟
إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بُرْهانٌ	حُجَّةٌ وَدَليلٌ قاطِعٌ .
نوراً مُبيناً	قُرْآناً واضِحاً .
اعْتَصِموا	تَمَسَّكوا بِهِ واتَّبِعوا تَعاليمَهُ .
يَسْتَفْتونَكَ	يَطْلُبونَ مِنْكَ .
الكَلالَة	مَنْ ماتَ وَلا وَلَدَ لَهُ وَلا والِدَ لَهُ ولَهُ أُخْتٌ .

التَّفْسيرُ :

اخْتُتِمَتْ سُورَةُ النِّساءِ بِنداءٍ وَفَتْوى ، أَمَّا النِّداءُ فَجاءَ لِيُخاطِبَ النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ ، وَأَمَّا الفَتْوى فَجاءَتْ لِبَيانِ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ يَحْتاجُهُ المُسْلِمونَ في تَعامُلِهِمْ في حَياتِهِمْ . وَفيما يَلي بَيانُ ذَلِكَ :

قالَ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

في هذا النداءِ الإلهيِّ الكريمِ يُخاطِبُ اللهُ تعالى النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ ، كما افْتُتِحَتِ السُّورَةُ الكريمةُ بمُخاطَبَةِ النَّاسِ ، جاءَتْ هذهِ الآيَةُ تُخاطِبُ النَّاسَ .

فَماذا جاءَ في النِّداءِ الإلَهيِّ لِلنَّاسِ ؟

يُبيِّنُ لَهُمْ اللهُ رَبُّهُمْ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلاً وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُباً ، وَمِنْ هَؤُلاءِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ فهُوَ البُرْهانُ الواضِحُ وَالدَّليلُ القاطِعُ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى . وَمِنْ هَذِهِ الكُتُبِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى إلى خَلْقِهِ القُرْآنُ الكَريمُ ، وَهُوَ النُّورُ المُبينُ وَالمُعْجِزَةُ الخالِدَةُ .

وَلَقَدْ بَيَّنَ الحَقُّ تَبارَكَ وَتَعالى أَنَّ هَذا البُرْهانَ وَهَذا النُّورَ جاءَكُمْ ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وَمِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وَكَرَمِهِ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الصِّفَةَ : الرُّبُوبِيَّةَ ، وَذَلِكَ لإِظْهارِ لُطْفِ اللهِ بِالنَّاسِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كُتُبَهُ ، لِتَرْبِيَتِهِمْ وَهِدايَتِهِمْ إِلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ الَّذي يُوصِلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ إِلى جَنَّاتِ النَّعيمِ .

وَمِمَّا يَجِبُ الانْتِباهُ إِلَيْهِ أَنَّ اللهَ تَعالى جاءَ بِالبُرْهانِ وَأَنْزَلَ النُّورَ إِلى النَّاسِ كافَّةً ، وَلَمْ يَحْرِمْ مِنْ ذَلِكَ أَحَداً كَيْلا يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، فَهَلْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَاتَّبَعوا رُسُلَهُ وَانْتَفَعوا بِكُتُبِهِ ؟ هَذا ما سَتُبَيِّنُهُ الآيَةُ التَّالِيَةُ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تُبيِّنُ ثَمَرَةَ الإيمانِ بِاللهِ وَاتِّباعِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، فَإِنَّ النَّاسَ انْقَسَموا بَعْدَ بِعْثَةِ الرُّسُلِ إِلى قِسْمَيْنِ :

قِسْمٌ آمَنَ وَصَدَّقَ ، وَاتَّبَعَ فَنَجا ، وَقِسْمٌ كَفَرَ وَكَذَّبَ ، وَابْتَعَدَ فَهَلَكَ .

وَتَعْرِضُ الآيَةُ الكَريمَةُ لأَحْوالِ المُؤْمِنينَ المُصَدِّقينَ ، وَيُفْهِمُ أَنَّ غَيْرَهُمْ قَدْ مُنِعوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَحُرِموا فَضْلَهُ ، وضَلُّوا ضَلالاً مُبيناً .

أَمَّا الَّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَعالى ، وَعَبَدوهُ وَحْدَهُ ، وَصَدَّقوا رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، وَتَمَسَّكوا بِدينِهِ وَاتَّبَعوا شَريعَتَهُ ، وَاعْتَصَموا بِهِ ، وَالاعْتِصامُ يَعْني تَمَسَّكوا ، وَاسْتَعانوا مُتَبَرِّئينَ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ فَبِماذا كانَ اعْتِصامُهُمْ ؟

هُناكَ تَفْسيرانِ : الأَوَّلُ أَنَّهُمُ اعْتَصَموا بِاللهِ تَبارَكَ وَتَعالى ، فَهُمْ آمَنوا بِهِ وَاعْتَصَموا بِهِ ، وَقَدْ

يَكونُ الضَّميرُ في (بِهِ) عائِداً عَلى القُرْآنِ الكَريمِ فهُمْ آمَنوا بِاللهِ ، وَاعْتَصَموا بِكِتابِهِ وَكِلا التَّفْسيرَيْنِ صَحيحٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرادِهِ .

هَؤُلاءِ المُؤْمِنونَ بِاللهِ المُعْتَصِمونَ بِهِ ماذا لَهُمْ ؟

١ ـ ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ .

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يُكْرِمُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ إِدْخالُهُمْ في رَحْمَتِهِ ، فَهُمْ قَدْ حازوا هَذا التَّكْريمَ الإِلَهِيَّ فَلا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يُعَذِّبُهُمْ ، وَهَذا مِن اللهِ فَضْلٌ كَبيرٌ ، وَرَحْمَةٌ واسِعَةٌ مِنَ اللهِ الرَّحيمِ ، هَذِهِ الرَّحْمَةُ بِها يَكونُ التَّوْفيقُ في الدُّنْيا وَالنَّعيمُ المُقيمُ في الآخِرَةِ .

أَخْرَجَ الإِمامُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « قارِبوا وَسَدِّدوا وَاعْلَموا أَنَّهُ لَنْ يَنْجوَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ ، قالوا : وَلا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : وَلا أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »(١) .

٢ ـ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُّسْتَقيماً﴾ .

هَؤُلاءِ المُؤْمِنونَ قَبِلوا الهِدايَةَ حَيْثُ رَفَضَها النَّاسُ ، وَآمَنوا بِاللهِ ، وَكَفَرَ غَيْرُهُمْ ، وَاسْتَحَقُّوا بَعْدَ هَذا القُبولِ دُخولَ رَحْمَةِ اللهِ ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهِمْ أَنْ هَداهُمْ إِلَيْهِ ، أَيْ : ثَبَّتَهُمْ عَلى دينِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلى أَحْكامِهِ وَتَعاليمِ شَرْعِهِ ، فاسْتَقاموا عَلى ذَلِكَ وَعَمِلوا بِما أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ .

وَالصِّراطُ المُسْتَقيمُ هُوَ دينُ اللهِ وَشَرْعُهُ ، وَمِنْهاجُهُ الَّذي وَضَعَهُ لِلنَّاسِ . قالَ اللهُ تَعالى مُعَلِّماً لِلمُؤْمِنينَ الدُّعاءَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة ٦ ، ٧] .

وَالصِّراطُ المُسْتَقيمُ يَكونُ كَذَلِكَ في الآخِرَةِ ، وَهُوَ طَريقُهُمْ إِلى الجَنَّةِ ، وَالنَّعيمِ المُقيمِ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ .

وَخِتامُ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتي ذَكَرَتِ الميراثَ وَتَوْزيعَهُ ، وَحَدَّدَتْ حُقوقَ كُلٍّ مِنَ الأَوْلادِ وَالوالِدَيْنِ ، وَالزَّوْجَيْنِ ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تُبَيِّنُ حُكْمَ مَنْ ماتَ وَلَمْ يَتْرُكْ إِلاَّ أُخْتاً ، وَلَمْ يَتْرُكْ وَلَداً ، وَلا والِداً .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝ ﴾ .

سَبَبُ النُّزولِ :

أَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ قالَ : سَمِعْتُ جابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ قالَ : دَخَلَ

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، حديث رقم ٢٨١٦ .

عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وأنا مريضٌ ، لا أعقلُ فتوضأ ثمّ صبّ عليَّ أو قال صُبّوا عليه ، فقلتُ : إنّهُ لا يرثني إلا كلالةٌ فكيفَ الميراثُ ؟ فأنزلَ اللهُ آيةَ الفرائضِ . قال اللهُ تعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

الخطابُ هُنا مُوجّهٌ إلى النّبيِّ ﷺ الّذي استفتاهُ أصحابُهُ بعدَ أنْ علّمهُمُ القرآنُ أحكامَ الميراثِ كما جاءَ في مطلعِ هذهِ السّورةِ . سُئلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ مسألةِ الكلالةِ وكيفيّةِ توزيعِ الميراثِ بعدَ موتِ الكلالةِ .

جاءَ الجوابُ من اللهِ العليمِ الخبيرِ الّذي يعلمُ ما يُصلحُ النّاسَ وما يَصلُحُ لَهُمْ ، جاءَ مُخاطباً رسولَهُ ﷺ : قلْ يا محمّدُ ﷺ : اللهُ يُفتيكُمْ ويُبيّنُ لكُمْ حُكمَ هذهِ المسألةِ ، فإذا ماتَ إنسانٌ ولَمْ يكنْ لهُ ولدٌ يرثُهُ أوْ والدٌ فيكونُ ميراثُهُ حسبَ الحالاتِ الآتيةِ :

الحالةُ الأولى : أنْ يموتَ الرّجلُ وترثُهُ أختٌ واحدةٌ ، فلها النّصفُ ، قالَ تعالى : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ .

الحالةُ الثّانيةُ : أنْ تموتَ المرأةُ ويرثُها أخٌ واحدٌ ، فلهُ جميعُ ميراثِها ، قالَ تعالى :

﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ .

الحالةُ الثّالثةُ : أنْ يموتَ الرّجلُ وترثُهُ أختاهُ ، فلهُما الثّلثانِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ .

الحالةُ الرّابعةُ : أنْ يموتَ الرّجلُ ويرثُهُ إخوةٌ وأخواتٌ فيكونُ الميراثُ بينَهُمْ للذّكرِ ضعفَ نصيبِ الأنثى ، قالَ تعالى : ﴿ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ .

هذا حُكمُ الكلالةِ كما بيّنَهُ اللهُ تعالى ، ولكنْ ، ما الفرقُ بينَهُ وبينَ ما جاءَ في صدرِ السّورةِ عندَ ذكرِ الكلالةِ ؟ فالّذي عليهِ أهلُ العلمِ أنّ الكلالةَ في الآياتِ الأولى هُمُ الإخوةُ لأمٍّ فقطْ ، أمّا الكلالةُ في هذهِ الآيةِ فهُمُ الإخوةُ لأبٍ وأمٍّ أوْ لأبٍ .

ثمّ خُتمتِ الآيةُ الكريمةُ بل السّورةُ كلُّها بقولِ اللهِ تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

فهذا البيانُ الإلهيُّ لمسألةِ الكلالةِ بخاصّةٍ ولأحكامِ الشّرعِ بعامّةٍ من اللهِ تعالى مِنْ أجلِ ألاّ تضلّوا عنِ الصّراطِ المستقيمِ ، بسببِ الجهلِ أوْ عدمِ العلمِ ، فهُوَ سُبحانَهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ ، لا يخفى عليهِ شيءٌ فيُعلّمُكُمْ منْ علمِهِ وينفعُكُمْ بما علّمكُمْ .

واللهُ أعلمُ بمرادِهِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دروسٍ وعبرٍ كثيرة ، منها :

١ـ أقامَ اللهُ تعالى الحُجّةَ على النّاسِ بإرسالِ الرُّسُلِ عليهمُ السّلامُ وإنزالِ الكُتُبِ .

٢ـ المُهْتدونَ هُمُ الّذينَ يُؤمنون باللهِ تعالى ويعتصمون بكتابه .

٣ـ مَشروعيّةُ السُّؤالِ عنْ أمورِ الشّرْعِ ممّنْ يعْلمُها .

٤ـ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الأحكامَ الشّرعيّةَ كيْلا نضلَّ أوْ نشْقى .

التّقويمُ :

أجبْ عنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قال تعالى : ﴿جاءكُم بُرهانٌ مّن رّبّكُمْ وأنزلْنا إليْكُمْ نُورًا مُّبينًا﴾ .

أ ـ ما البُرْهانُ الّذي جاء ؟

ب ـ ما النُّورُ الّذي أنْزلهُ اللهُ ؟

ج ـ ما الحِكْمةِ مِنْ ذكرِ ﴿رّبّكُمْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ ؟

٢ـ النّاسُ بِالنِّسْبةِ لِشرْعِ اللهِ ودينه فريقانِ . وضّحْ ذلكَ .

٣ـ ما ثِمارُ الإيمانِ باللهِ والاعْتصامِ بكتابه كما جاء في الآياتِ الكريمةِ ؟

٤ـ عرِّف ما يلي :

الكَلالَةُ ، الإخْوَةُ لأبٍ ، الإخْوةُ لأمٍ ، الإخْوةُ الأشقّاءُ .

٥ـ بيِّنْ نصيبَ ميراثِ الكلالةِ لكُلٍ ممّا يلي :

أ ـ الأُخْتُ الواحدةُ .

ب ـ الأَخُ الواحدُ .

ج ـ الثّلاثُ أخواتٍ .

د ـ الأَخوانِ .

هـ ـ أخٌ واحدٌ وأُختانِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفترِكَ آيةً سمّتِ القرآنَ نوراً .

٢ـ اكْتُبْ في دفترِكَ حديثاً شريفاً يُبيّنُ تفاوُتَ النّاسِ وهُمْ يمرّونَ عنِ الصّراطِ يومَ القيامةِ .

* * *

مراجع الكتاب

١ـ الكشّافُ عنْ حقائقِ التأويلِ وغوامضِ التنزيل : مُحمّد بن عمرِ الزّمخشريّ ، مطبعة الاستقامة ، الطّبْعَة الأُولى .

٢ـ تفسيرُ القرآنِ الحكيم الشهيرُ بالمنار ـ الشيخ مُحمّد رشيد رضا ـ دار المعرفة للطباعةِ والنّشرِ ، بيروتُ ، الطّبْعَةُ الثّانِيَةُ .

٣ـ أنوارُ التنزيل وأسرارُ التأويلِ ـ القاضي ناصر الدّين أبو سعيد عبدُ الله بن عُمر الشيرازيّ ، شركةُ ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعةُ الثانيةُ .

٤ـ دراسة الكتبِ المُقدّسة في ضوء المعارف الحديثة ـ موريسْ بوكاي ـ الطّبعة الرّابعة ١٩٧٧م .

٥ـ روحُ المعاني في تفسيرِ القرآن والسبع المثاني للإمام الآلوسيّ .

٦ـ البحرُ المحيطُ للإمام أبي عبد الله بن يوسف الأندلسي .

٧ـ إرشادُ العقلِ السّليم إلى مزايا القرآن الكريم ، للإمام محمّد بن أبي السّعود العماديّ .

٨ـ تفسيرُ النّسفيّ .

٩ـ التفسيرُ الوسيطُ ، محمّد سيّد طنطاوي .

١٠ـ جامعُ البيانِ في تفسير القرآن ، محمّد بنُ جرير الطبريُّ .

١١ـ السّيرةُ النبويّةُ ـ ابنُ هشام .

١٢ـ تفسيرُ القرآنِ العظيم ، الحافظُ عماد الدّين ابن كثير .

* * *

